شاكر الأنباري

ألواح

منشورات

منشورات

اسم الكتاب : ألواح
المؤلف : شاكر الأنباري
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى ١٩٩٥
الحقوق محفوظة
لوحة الغلاف : للفنان عبد الله الشيخ
تصميم : محمد سعيد الصكار - باريس
اللوغو : صادق الصائغ

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366 - 33039
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

- ١ -

رفعتني السنة النيران عاليا فعاليا، ووجدتني في بيت على سفح جبل. البيت واحد من بيوت اخرى تتلاصق فيما بينها او تتراكب مكونة مدرجات منتظمة. وهو يتألف من طابقين، الاعلى للبشر والاسفل للماعز والخرفان. كنت اجلس في غرفة ضيوف على حشية من الصوف. يضئ الغرفة فانوس شاحب الضوء. الوجوه شاكة والعيون ملتمعة مرعبة. كان الحديث يدور بلغة غير مفهومة، احسست انني محوره فزدت من التصاقي بالجدار، كي اواري نفسي عن الاشارات والايماءات والنظرات.

طلب الكهل، صاحب البيت، مني ان نمضي الى الصلاة، فازددت عجبا، الا انني لم اشا رفض رغبته بالخروج فتبعته. قادني في طريق ضيق، عبر تلك المدرجات، حتى انتهى بي الى مسجد صغير تجاوره بناية مفتوحة تتكون من صالة طويلة مقسمة الى غريفات ضيقة. اشار الي الرجل بالدخول الى واحدة من تلك الغريفات وافهمني بالاشارات انها مراحيض يقضي فيها اهل القرية حاجاتهم.

من المسجد يتسرب ضوء لوكس، من الشحة بمكان حيث بالكاد يضئ موطئ الاقدام. دراويش ينامون متوسدين دراريشهم وسيوفهم ودفوفهم. لحى سود تضفي على وجوههم معاني مرعبة. لماذا جاءوا الى

هذه القرية ؟ ولم اختاروا الجامع للمبيت بدلا من واحد من البيوت مثلي ؟ مراحيض الجامع اقيمت على ينبوع ماء يصب في حوض الميضأة ثم يندلق بعدها نحو المراحيض. راودني احساس ان ثمة بشرا حولنا، في مكان ما من هذا الظلام، يرصدوننا خفية دون ان نراهم. لاضوء يدل على وجودهم ولا همهمة غريبة لكنهم في مكان ما، خلف صخرة او في كهف او عند جدول.

كانت البيوت ساكنة. من شقوق النوافذ وابواب الزرائب تتسرب بحياء قبسات من الاشعة لاتلبث طويلا. بشر يقضون حاجاتهم ثم يعودون الى اسرتهم ليعم بعدها الظلام. النجوم وحدها كانت تنير لنا طريق العودة. النجوم وحاسة مضيفي التي لاتخطئ الطريق . لاخيار لديه فالهوة بعيدة الغور والصخور حادة والظلام خداع. كل حركة لدابة، كل صخرة تدحرجها اقدامنا، اتخيل كما لو ان رجلا مرعبا يمسك خنجرا بيده سينقض علينا. طرق تقودها الاسطح ونجوم تتهاوى في غور الفضاء. من امكنة نائية سمعت نباح كلاب، حسبته قادما من حفرة او كهف. انه قريب وبعيد في الوقت نفسه. هل توجد كلاب في هذا الجبل؟ سألت نفسي دون ان اجيب. لكن ما ان تمددت في فراشي وأطفا الرجل الفانوس حتى تبدلت نوعية الاصوات. حمحمات بغال. اميزها رغم النعاس والقلق. سواد كل ماحولي. انفاس العائلة لاتصل الي. تركني مضيفي الى الظلام وخرج من البيت لشأن لا اعرفه. سمعت اصطفاق الباب، سمعت طبطبة نعليه ثم ابتلعه السكون. ذلك قبل ان تبدأ الحمحمة وطرق الحوافر.

لابد ان يكون جيشا من بغال غزا القرية تحت سربال السواد. غزوة للطرق والساحات والبيوت. ومثل همس رافق ذلك نداءات لرجال. نداءات غير مفهومة، وهي هناك، خارج الجدران. بغال ورجال وحوافر ترقق الصخور في ظلام يشبه البئر، في جهة ما منه اضواء متغامزة

خافتة تضحك على بني البشر ولياليهم المعبأة بالاحلام والكوابيس. هل يعرفون بوجودي في هذه الغرفة؟هل اخبرهم الرجل بقصتي وكيف وصلت الى هنا وهم قادمون للانتقام مني؟لكن انتقام لاجل ماذا؟

فتحت الباب. واجهني درج ينحدر الى الاسفل فنزلت فيه. تلمست بقدمي الدرجات ورحت اغوص في باطن الارض على هدي نور خفيف ينبعث من الاسفل. كنت خاليا من مشاعر الخوف مدفوعا بفضول الكشف. اصوات تنبعث فجأة. استغاثات. تأوهات. بكاء ونهنهة وتوسلات. حتى انتهيت الى فسحة مؤطرة بجدران. الارضية عتيقة وسخة تفوح منها روائح كريهة، واوحت لي الفسحة بهاجس انني كنت اسمع تلك الاصوات من مسجل موضوع في مخبأ ما هنا. وربما هي اشباح العالم السفلي، لبشر ماتوا ودفنوا في هذا المكان. هل انا في مقبرة اذن؟

الفسحة ليست نهاية المكان، فقد رايت ممرا منزويا في ركن من اركانها، ولجته فقادني الى مساحات اشد عتمة. وجدت في نفسي شجاعة لمواصلة السير والاكتشاف. اريد ان استجلي سر تلك الاستغاثات، التأوهات، على اي مصائر تنطوي. انها رسالتي ولن اتخلى عنها. سأكشف المغطى واضئ المعتم، في هذا الوجود الغريب.

وجدتهم هناك، خلف قضبان من حديد واسيجة شائكة وابواب ثقيلة، تطبق على النساء والاطفال والرجال. من وضعهم في تلك الزنازين؟من قضي عليهم بالدفن احياء في هذه المقبرة؟من اقام الاسلاك الشائكة وحجر على العواطف والاحقاد والاماني؟

كانوا يشيرون اليّ، مبتهلين متوسلين مصلين. الاعين ملأى بالخوف والانسحاق والتوسل. حسبوني واحدا من سجانيهم او معذبيهم، اقترب منهم فيهربون ابتعد فيطلبون الرحمة. لا احمل سلاحا والابتسامة لم تفارق شفتي. كانت النساء يخفين انوثة عتيقة، شعورهن منفوشة،

انوفهن متسخة يسيل منها المخاط والدم، وعليهن مرقعات تكشف الاجساد. يتراءى شعر العانة مثل اشجار حلفاء. العجيزات عريضات مسطحات من القعود الطويل على الارض. كن يحملن اطفالا ولدوا تحت الارض. لم يروا الشمس فتحولت بشراتهم الى شمع اصفر. اطفال عراة ينظرون بعجمة في الوجوه. رجال اشبه بالقرود تختلط لحاهم بشعر الصدور والبطون والعانات. نظراتهم تحمل عدوانية غير مفهومة.

- اخرجنا من هنا اعطاك الله ووفقك.

- سأحاول. نحن اخوة اليس كذلك؟منذ متى وانتم تسكنون العالم السفلي؟

- قبل عقدين من السنين كما اخبرونا. وانت اول بشر نراه منذ انفجار انابيب المياه في الممر.

- ومتى كان ذلك؟

- بعد ايام من تقديم وجبة الدجاج. كانت اول وجبة من الدجاج وآخر وجبة على دخولنا المكان.

- ولم انتم هنا؟هل استطيع معرفة الجواب؟

- نحن ايضا لانعرف. افقنا ذات صباح ووجدنا انفسنا خلف القضبان. في البدء قالوا لنا لن تلبثوا اكثر من يوم واحد، قضية روتينية.

اقتربت من الزنازين، وتأملت القضبان والابواب. الابواب لم تكن مقفلة فازداد عجبي. لم لم يهربوا قبل مجيئي؟هل كتب علي ان اكون مخلصهم؟الا يبصرون الابواب مفتوحة والممرات خالية والرقباء غائبين؟

دفعت بابا ثم آخر ثم آخر، واستولى علي فرح غامر، انا المخلص الذي امتلك الشجاعة للنزول الى باطن الارض. انهم اخوتي في آخر الامر.

مشيت الى الامام والحشد ورائي:معلمون، اطباء، شعراء جنود، عيارون، سراق، حفارو قبور، شيوخ جوامع، سواق حفارات، مشغلو مكائن،

حدائقيون، بلامون، وزراء، حزبيون، قادة نقابات، فلاحون يشتغلون في تصفيف الورود وتنسيق الياسمين، عرفت انهم جاءوا من القرية والناحية والقضاء والمدينة. من الشمال والجنوب، الغرب والشرق.

في الزنازين لم يعد سوى الفراغ والبراغيث والروائح العطنة وما خلفته الاصابع القلقة على الملاط والفولاذ. كان الحشد يكبر كلما تقدمنا الى الامام، البعض ينشد اناشيد الحرية والبعض يبسمل ويحوقل كما لو كان في جنازة. بينما كتم الاخرون انفعالاتهم سائرين بصمت فقط. كانوا يجرجرون الخطى نحو النور، نحو فجر جديد يهل من الشرق، من خلف الافاق والجبال، من بين ثنايا البساتين وحافات الانهار.

ـ انهض. طلع الفجر. دعنا نغتنم الفرصة ونسارق العيون فطريقنا طويل.

كان مضيفي ينحني فوق فراشي بشاربيه الخفيفين ووجهه النحيف وعينيه الضيقتين.

لم اتعرف عليه في البداية. من اين خرج لي هذا الرجل قلت لنفسي. ثم فهمت كل شئ وقلت له من خلل النعاس:

ـ نمت امس بملابسي. ليس بي حاجة الى الطعام وانا جاهز للسفر.

من مرتفع البيوت المتراكبة انحدرت مع الرجل. مررنا بساحات صغيرة، بصخور مسننة تكاد تنط في المنحدر، بعيون تنبع من تحت جدران، بحضائر وسطوح. ثم انفتح بغتة سهل واسع مطوق بالسنديان والعفص والاسبندار. وفي اطراف السهل تبتدئ الهضاب التي تتعالى قليلا قليلا كي تصبح جبالا شاهقة مرقشة بالشجر الكث. مرأى السهل وكثرة مافيه من بغال جعلني اتذكر ليلة البارحة. اتذكر الحمحمة والحوافر والهمسات.

اجتزنا قنطرة جدول وغرقنا في بحر متلاطم من البغال:على

ضفاف الجدول، تحت شجرة توت عملاقة تتوسط السهل، على مداخل البيوت، عند تجمع السوق، بغال بمختلف الاشكال والاحجام. بعضها عار وبعضها لايزال ملفوفا ببردعته. بعضها ينش الذباب عن ظهره وبعضها يغفو مرخيا رأسه بين قائمتيه الاماميتين. في الطرق الصاعدة نحو الهضاب كان ثمة بغال محملة بالبضائع. وفي الدروب الهابطة نحو شجرة التوت رجال وبغال عليهم غبار السفر وتعب الطرق وغشاوة النعاس. سكر وشاي وتبغ ورز ودهن. سلال واكياس وعدول وخروج. صابون وفاكهة وبنادق. انا في قرية البغال اذن. القرية التي يتحول فيها بني الانسان الى تابع مطيع للبغل.

كنت البس سروالا من قماش. حوّل هيئتي الى هيئة طائر. اشك انني سأتعرف على نفسي فيما لو حدقت في مرآة. هل انا طائر جبلي فر من سربه وسط الجبال؟ما الذي افعله هنا في هذا السوق؟وسط روث البغال وذبابها، وسط البضائع والرجال الصموتين الذين لايتكلمون الا حين يسألون عن امر او يطلبون شيئا؟جرائد عتيقة تتطاير. اغلفة طلقات فارغة لبنادق عجيبة. بقع ومستنقعات طينية، انطبعت فيها آثار لبشر وطيور وحيوانات ليلية وثعالب ودبابات. لابد انها غزت السوق في ليال سابقة. هل جاء ياترى همس الليلة الماضية من هذه المنطقة؟مضيفي اخبرني ان السوق نهاري. تغيب الشمس ويتلاشى السوق ولاتلبث الا شجرة التوت العملاقة ومطعم العربيد.

ـ أمس رتبت كل شئ، وستسافر مع القافلة الى الجبل العالي الذي يقودكم الى النفق.

ـ كيف اشكرك؟ماذا كنت اصنع من دونك؟

ـ انه واجبنا. انا واحد من الادلاء. تلك مهمتي في هذا المكان. لالزوم للشكر.

رأيت شيئا في شجرة التوت لفت نظري وجعلني احدق حولي بأنتباه

وحيرة. تاج الشجرة واسع يرتكز على سيقان عديدة تآلفت فيما بينها، وحورت اغصانها وفروعها لتشكل معلما لاينسى من منظر السهل والقرية. اسم الشجرة شجرة العريبد عرفت من مضيفي، اما العريبد فلا احد يعرف من اين قدم. يستضيف المسافرين الليليين ايضا، وهو يستغل حاجة الناس وسط الجبال. انه يقدم الشاي والطعام والسكن لمن يطلبه.

وسط الاغصان رأيت الناس جالسين يتناولون طعامهم. ابتكر العريبد من الغصينات طاولات يقدم عليها الاكل، وصنع كراسي من الخشب تسع شخصا واحدا. كباب وتكة ومعاليق واكباد وخصى تيوس واكباش، تشك في اسياخ وتشوى على نار الاسبندار والعفص. يقدمها العريبد مع الخبز الساخن والطماطم المشويةوالمخضرات والبصل. كان البخار يتصاعد بين الاغصان حاملا رائحة القتار. واصوات الآكلين من الرجال تتهاوى الى الاسفل. فيما تمتد بين مقاعد الاكل والارض سلالم من الخشب يرتقيها كل من يروم تناول طعامه امام منظر القرية والسهل الفسيح. والعريبد دائب الصعود والنزول، هو وصانعه الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد. غناء يتصاعد، موالات ومقامات وتطويحات وشطحات صوتية، تأتي من الجبل البعيد او طرق القرية او منابت الهضاب. رصاص لايثور وطمأنينة تتراكم على رؤوس العفص واعراف السمّان. وعلى سطح المياه طيران لحشرات. تحت اديم الارض ديدان راعشة.

- ارغب بتناول الطعام بين اغصان التوت. بي رغبة شديدة في اكتشاف تلك المتعة. اريد ان المح السهل والقرية من علياء التوت. انظر الجدول اين منبعه والطائر كيف يحط على الارض. اريد ان ابصر الجبل كيف يفترش الفضاء والكهف كيف يغور في العتمة. مسارب البشر كيف تتفرع وتفترق بين صخور الجبال، البغال الطرق النساء المزارع السماء البعيدة ذات الضوء الاخاذ، كل ذلك جديد علي.

- لاوقت لدينا لذلك. القافلة جاهزة للمسير. انها متوقفة امامنا

تحت شجرة العنب. الذين يودون نيل تلك المتعة عليهم الانتظار وهو يكلف ساعات من روائح الروث وعويل المربيد ولسعات البعوض. ربما في وقت آخر. مع انني اعرف انك لن تمر ثانية بهذا المكان. الذين يغادرون لن يعودوا.

وراءك لاتنظر. ولا تفكر بنا، اعتبر ماشاهدته قبضة من الاحلام او الخيالات. يمم وجهك شطر مصيرك، لاحظ القافلة في مسيرها ولا تتدخل في شؤون احد. دقق النظر في شجرة الجوز المعلقة والصخرة المتدلية والماعز.

الى شجرة التوت ورجالها لم أنظر. الى القنطرة المنصوبة على الجدول الملوث ببراز القرى والسرطانات وقشور الديدان والضفادع لم انظر، ونسيت شيئا اسمه وراء، حتى غاب السهل وغابت عني تفاصيله المكونة من نساء واسطح وغرف وفوانيس وبغال تشق الارض بحوافرها نزولا وصعودا، رواحا ومجيئا. تلاشت من ذاكرتي حتى سحنة مضيفي الحزينة، وتعجبت من وجودي في متاهة الجبال والطرق والانفاق المظللة بالاسبندار. من قذف بي الى بحيرة النسيان؟انا السابح فيها مثل سمكة؟انني اغوص في باطن الارض، ارض اليوكالبتوس والصخرة المحروقة وعين المياه الجارية. ارض الكهف والحفرة والشق والسفح. ارض الدروب التي لايسلكها الا بغل مدرب على المضايق. ارض الثلوج في الشتاء والمطر في الربيع والتين في الصيف والجوز في الخريف. كانت تلتهم قافلتنا بغلا بغلا ورجلا رجلا. تدفعنا بمرور الوقت، الى الطرق التي لارجعة منها.

جبل خلف جبل. غابة تعقب اخرى. شعب يسلمنا الى آخر. وثمة تواطؤ مريب بينها. تواطؤ تنسجه الانعطافات المباغتة والصفصاف المنتصب على العيون وانعكاسات الضوء على الصخور المعدنية المشعة. وكان الصمت هواء يلف كل شئ حولنا.

كانت القافلة تضم عشرات البغال. اخبرنا القائد بعد ليلة باردة قضيناها في سفح جبل اننا سندخل باطن الارض غدا، وسيستغرق طريقنا للخروج من هناك يوما كاملا تقريبا. اما كيف ندخل في باطن الارض اسلم يقودنا ام نفق ام كهف فأسئلة لم اجرؤ طرحها على قائد القافلة لئلا يظنها تدخلا في شؤونه. فضّلت الركون الى بغلي ومراقبة المسالك، وكنت اخالس امرأة جميلة تسير قربي النظر احيانا، وحسبت اني رأيتها قبلئذ في مكان ما. سرنا تحت ظلال اشجار جوز كثيفة لاتخترق اغصانها اشعة الشمس. مررنا بسواق رطبة وجداول ضحلة. وكانت الطرق تقودنا دائما من قاعدة الجبل الى الاعلى. نظرت بغتة فرأيت نفسي معلقا في السماء. لم اشاهد سماء قريبة على هذا النحو من قبل. صار الجدول خيط حرير، وشجرة الصفصاف الممعرة شتلة من الشوك. العصافير بين الاغصان لايصل تغريدها الينا. وفي الآذان خرير ينبوع، او شلال صغير يغيب خلف الصخور والاجمات الكثة. كلما بدا الكلام يتوقف بعد لحظات، وكأننا نحتفي بهذا الوجود المتناغم المصطلح مع نفسه. لم يجرؤاحد على افتضاض صفو الحياة حولنا. لا رغبة في مضايقة ابن عرس في محجره او الثعلب في غاره. ثمرة التين الناضجة لايهزها صوت، ومسطح الماء في العين لايعكر صفاءه بشر.

لم يدر في ليلة المبيت الا حوارات ضرورية كالبحث عن بطانية او قطعة خبز او نار لايقاد سيجارة. لم يكن الليل راغبا بالحديث الا انه راح يعرض كنوزه على القافلة. نجوم وعواء وبرودة وصخور متدحرجة، خلخلت سكونها الابدي حيوانات متسللة او عابثة تبحث عن فرائسها. همت مع النجوم، وذرذرات نورها، حسبت التبانة زقاقا والعتمة رداء اسود. احسست بروحي تعيش حياة ثانية لا اتبين ملامحها. لكنها تختلف عن كل ماشاهدته قبل اليوم. النزول الى النفق سيكون باكرا، كما اخبرنا قائد القافلة. بغالنا تعلك الثيل والعليق الجاف والحشائش،

بكسل وسكينة. ترفس احيانا او تنهش اجسادها مفتشة عن الحشرات. رؤوسها مطرقة دائما، كما لو كانت تستعيد قصص المكاريين والمهريين والمزارعين واللصوص، تلك القصص التي سمعتها اثناء حياتها في التنقل الابدي بين السهل والجبل، الكهف والنفق، المدينة والقرية. وضعوا فراشي قرب مجمع البغال. كنت احلم بجسد تلك المرأة المكتنزة، وتخيلت حرارتها اللذيذة التي ستذهب عني برد هذه الليلية. ترى هل هجسوا ما كنت افكر به؟

قضيت الليلة مرعوبا خائفا من هجوم خنزير بري او ذئب جائع. كدت الا اصدق انبثاق الفجر، خلته لن يأتي ابدا. اسفرت الصخور عن نفسها في المنحدرات والسفوح. وتراءى العليق جيش اشباح ينوي اعادتنا الى قرية البغال. الفجر ذو المذاق السحري يطل اذن، يملا الارواح سعادة ويبشر بالعبور الكبير المنتظر. سنتجتاز البرزخ كأي بشر اسوياء، وسنبدأ حياة جديدة.

جاء رجل من المنحدر حاملا عباءة صوفية على ظهره. دخل مجمع البغال، ثم اجتازني نحو مفرش عريض كان يجلس عليه قائد القافلة. نفض مابعباءته فاذا هو تين بري وعنب ولوبياء طازجة وشمامتان صفراوان اخذ اريجهما يفوح في الهواء. اقيم موقد ووضع ساج صغير عليه وفرشت الارغفة. القائد هو الذي تكفل بأعداد الفطور.

ـ سنأكل ونشرب ونرتاح دقائق ثم نعد عدتنا لاجتياز النفق. امامنا طريق صاعد قبل الوصول. علينا ان نظل على حذر، فالانزلاق سهل والهاوية بعيدة والوادي ملئ بالهياكل العظمية. من يقع يقع من كيسه فلا احد يكلف نفسه عناء النزول الى الوادي. لهذا سموه وادي الموت. وهو ملجأ للضباع والذئاب والكلاب البرية التي تستلذ لحم البشر.

صعدنا المرتقى بغلا وراء بغل. الطريق ضيق والاحمال شاقة، واشعة الشمس توزع حرارتها على تيجان الجوز ومستنقات الصخور والعروق

الغليظة المتشابكة في باطن الارض. لم المح المرأة الجميلة وصرفت ذهني الى حوافر البغل وايقاعها الرتيب على صلادة الصخور. الوادي يقترب، كل الدلائل تشير الى ذلك. الصمت، القدسية الشائعة في الفضاء، والاحاسيس المتولدة من هذا الصعود الازلي. انه وادي الموت اخيرا.

الاشجار عتيقة، متشابكة، تنمو من اجساد لاتمت الى عناصرها، شجرة تفاح تنتأ من ساق تينة عجفاء، خروبة تمتص رحيق الارض عبر جذور عين الذئب، شجرة اجاص تتزاوج مع لوزة معرشة الاغصان اتخذت منها النسور والغربان والعصافير اعشاشا ومستراحات واماكن افتراس. في الاسفل طيور عملاقة تفرش اجنحتها وتحلق بسلام فوق الوادي. الجدول بعيد، استطيع ان اصله بقفزة واحدة، لكنه تحول الى خيط ابيض يتلوى على هواه كما لو انه افعى خرافية. نزلت من ظهر البغل ورحت اسير وراءه، ينبغي ان لا نسلم قيادنا لحيوان، اخبرنا القائد. البغل لايؤتمن في مثل هذه الحالات. يبهظه الثقل والصعود، الصخورتمض الحوافر، فلايطيق ذلك. ينهي حياته بقفزة مفاجئة الى الوادي. هل ينهي البغل حياته اشتياقا الى تلك الجنة في الاسفل؟جنة الاغصان والثمار، جنة الموت والقبج والرجال الملتحين عبدة الشياطين. حدثني الشخص الذي امامي عن وجود طائفة تسكن هناك، وهم يجتمعون في الليالي المقمرة في كهوف محفورة في الصخور. يضيؤونها بمشاعل وفتائل مغموسة بشحوم بني البشر. لايختلطون ابدا بالقرى المجاورة. انهم يقدمون اضاحي بشرية في تلك الكهوف تقربا لاله الموت، الاله الوحيد الذي يعبد في الوادي. الناس من رعاة ومهربين ومزارعين ولصوص يجتازون هذه الانحاء، يعرفونهم من لحاهم، لحى كثة اشبه بلحى التيوس.

غرد طائر من خميلة، وتاوهت عضاية وراء حاجز من الشجيرات يفصل الطريق عن هاوية الوادي. الهواء يثقل والتنفس يصير عسيرا. لم

يعد احد يجرؤ على الكلام او الغناء. للموت جاذبية لاتحد، احسست بها تمد اذرعها من قرارة الوادي. اذرع لاترى لكنها تتشبث بنا شخصا شخصا وبغلا بغلا. حتى رقابنا كانت تستدير عنوة نحو الهاوية. نحو المقبرة الملكية للبغال والشياطين الملتحين والضباع الجريحة والرجال التائهين في مسالك الجبال. ثم حدث ما كنت اخشاه. ففي منعطف حاد للطريق، لم يحتمل واحد من البغال ثقل احماله فالقى بجسده الى الوادي. رأيته يقفز بأرادة لاتلين هو وصناديقه واكياسه وقراده. ابتعد عن الحافة وهو يتلوى في الهواء كما لو كانت اياد رحيمة تحف بجرمه. هوى مثل خيط قطن داكن. ريشة ساقطة على الصخور وذرى الاسبندار وافواه الكهوف. كان موته انتقاما منا، نحن القساة صانعي الحروب هادمي البيوت مقتلعي اشجار اللوز سجاني الحياة. ارتطم قبل وصوله القعر في صخرة ناتئة مثل رمح، تلبث هنيهة عندها ثم سرعان ما خلص جسده من سنانها وعاد الى ديدنه ديدن السقوط الحر نحو الهاوية، نحو انتهائه هيكلا عظميا ابيض المظام وجمجمة ضاحكة وحوافر متآكلة بسبب الريح والمطر ورقائق الوفر.

ثار الغبار في الوادي وتجمعت الطيور والحيوانات في مكان السقوط. عقبان وغربان وباشقات. ذئاب وبنات آوى وبنات عرس. ووقفنا نحن ننظر بذهول.

ـ اقرأوا الفاتحة ودعونا نواصل الرحلة. فعمّا قليل سندخل النفق.

صرخ قائد القافلة بصوت عال سمعناه كلنا. عاودنا مسيرنا ملتفين بطلسمات الموت واذرع الاشواق الممتدة من الوادي. سنط حولنا وهضاب وراءنا. وعلى مهل رحنا ننحدر في الشق، دون مقدمات، دليلنا السنط وهدفنا اللامكان. نحن في حضرة الحافات ودوي الريح والصخور. في حضرة الطبقات الصخرية المكونة من املاح وغرانيت وكالسيوم انحلت في ذراتها وعلى مر الدهور، عروق وحشرات ومعادن

ومياه. حقب تنث ازمانها على الداخلين. ارض رملية تغوص الارجل في رخاوتها. القوقعة الميتة والسردين المتخشب وسافيات الرياح. السماء تبتعد، زرقاء فوق رؤوس لاتتكهن ماسوف تراه. ظلال لصخور ذوات اذناب، واشجار كانها رؤوس البشر، ونحن في جوف اسود لا رجعة منه. انني ابتعد عن الارض التي خبرتها، وعايشت نبضها. ابتعد عميقا في باطن الارض. في قمة سامقة طالعنا بوز حيوان ظننته معزى. ينفتح النفق امامنا وينغلق الشق خلفنا، خطوة بعد خطوة. اين الضباء التي رأيناها في جنة الوادي؟والحيوانات المتوحشة والهمس في قرية البغال ؟صخور، اشجار، مسائل ماء، انعكاسات لاشعة لايعرف من اين تهوي، والسماء خط والصمت سيد القافلة. يفرش اجنحته على الشارب الكث والمسدس وقبضة الحناء والصابون المهيل والحافر والبرذعة. لادقائق ثمة ولا ساعات. الزمن لايعدو ان يكون منعطفا او قمة جبل او حيوانا غريبا. زمن لاتعرفه سوى الريح والانعكاسات والاوهام التي تتبعث في رؤوسنا.

في نهاية النفق كان النهر بانتظارنا. امواجه مرئية وتياره سريع يجرف اغصان الشجر المنقصفة والقواقع الكبيرة. لن نستطيع مواصلة السفر، امام النهر، امام جبروته غير المنتظر. كيف نجتازه والبغال مثقلة بالاحمال؟ارشدنا قائد القافلة الى سلك رفيع مشدود بين الضفتين. على المرء ان رام العبور امساكه بيد ثابتة والسباحة باليد الاخرى، ولا يوجد سبيل آخر. اما البغالون فسوف يجتازون النهر على ظهور بغالهم. على الانسان ان يغامر في مثل هذه الظروف. الشمس في الاعالي شاحبة الضوء، شحوبها يشي بالغروب والغياب والتلاشي. والرحلة في لحظات انتهائها، ذكريات تتحل واشواق تسيح. وشبح البغل المنتحر يطوف في ذهني كأنه رخمة تعد بالانتقام. هذا زمن التحولات ولوعة النسيان، زمن السفر لاكتشاف ابعاد اخرى لم احلم بها قبلئذ. عالم يكتظ باحلامه المحبطة ومشاريعه التي لن تتحقق. تعلقت بالسلك

فوجدته سلكا من رغبات وماض اليم ونساء وعشاق وتحولات. سلك المنديل الابيض والرائحة الانثوية، وكان الماء عريضا اعرض من حياة. وكانت الذكرى صغيرة حلوة المذاق. ذكرى منديل ابيض يتسع للطفولة وروحي المعلقة فوق مدن الخراب والضوء والموت. منديل من حرير ذو حواف مطرزة يتراءى لي في الآفاق تحتي، في شوارع العالم الارضي وذكرياته، العالم الذي ودعته بعد اجتياز النهر الى الابد.

- ٢ -

منديل ابيض من حرير، ذو حواشي مطرزة، يبين لي في الفيوم، كأنه نار وسط ظلمة. كشباك صغير مضاء بالصفرة المنورة في عاصفة ليل اجرد. منديل الحياة وقد غادرتها كسيفا على ظهر بغل. منديل ليلة الهيام والضحكة الصادحة ومداعبات العيون والخديعة والنساء والصبا. وجدته ثاويا تحت الوسادة. لم اصدق مارأيت، فراح قلبي الصغير يدق بعنف. دمي يفور وعيناي تدوران كطاحونتين خوفا ورعبا. خوف الانكشاف ورعب المصادرة. فعمي حسان لايمكن الوثوق به لو اكتشف الامر. كان مطويا بعناية وانوثة، انيقا، جذابا، ساحرا، مثل ذكراه وطيفه والاحاسيس العنيفة التي دارت ذات يوم حوله. كنت تلك اللحظة اتلفت حولي، ممضوضا بالهواجس والاحتمالات. دسسته في جيب دشداشتي. لم يرني سوى باب المطبخ وسور السطح المطل على الحوش كأنه ثمرة بطيخ سوداء وعيون ذلك القمر المحلق في فضاء الحوش ماسة من ذهب.

كيف اجتازت حكاية المنديل مصفى البرزخ الفاصل مابين الحياة والموت؟

صورة المنديل، كانت اولى الصور التي تجلت لي بعد خروجي من النفق الصخرى الطويل الذي اجتزته. نفق خروجي من عالم الارض

المكون من جبال وغابات وبغال واشباح بشر قضوا وتحولوا الى هياكل عظمية في الوديان والكهوف والحفر التي رايناها اثناء السفر. لقد اقتادتني قوة ما الى بيت مظلم لايرجع منها داخل اليها. الابواب موصدة والاتجاهات مفقودة والعماء مطبق على الصخور، والممرات، والجبال، والشجرالمعلق كالبقدونس في سماء كانها غيمة. لابد ان ماحدث قد حدث قبل زمن طويل لم اعد اتذكره. تجئ اصداؤه خافتة، نحيلة الوضوح، ماعلي الا ان ابحر في الزمن بتركيز شديد كي استعيد حقيقته. وكلمات مثل:ملجأ، طائرات، بصرة، الحيدرخانة، قره تبه، قرية البغال، برج الاموات، سنية، عمي، خالي حزم، وكثير كثير غيرها، بحاجة الى شدها ورفوها وربط اوصالها وحروفها وتقليبها ظهرا لبطن كي تروى حكايتي وتعطي صورة جلية لحياتي. وحكاية المنديل الذي اراه بوضوح وتجل هي التي ستقودني شيئا فشيئا الى فضاء الحكايات والواح الاحداث والقصص في هذا الزمن الجديد، زمني، الذي لم يعد له اي معنى او دلالة. الزمن الذي لم يعد يحصى بالساعات والايام والسنين، ولا يعتمد على تعاقب الليل والنهار، الخريف والربيع، طلوع الشمس وغياب القمر، فانا سابح مثل ريشة لامرئية في الفضاء. لكن اي فضاء؟

ينتقل الانسان من عالم الاحياء الى عالم الاموات وتترشح حياته بكل التفاصيل عبر مصفاة ضخمة، دقيقة، محكمة الصنع، تسيرها قوة ما او عقل كلي القدرة، كامن فيه، في مكان ما من روحه. يمر كل ماله قيمة وصدى في النفس. كل مانحت اثره ذات يوم على صخرة الجسد وبصم وكتب وشكل، مثل فنان قادر، تلك الروح الخالدة، التي هي خليط من اللحم والعصب والذهن والخيالات والاماني. مايجعل الانسان فردا بلون وطعم وايحاءات حضور لاتخص احدا سواه. والا لم نطت حكاية المنديل دون مقدمات، لتطفو على ماضيي كله. كما لو كانت فقاعة طفرت فجأة على سطح سائل راكد، أو موجة علت بغتة فوق نهر يمر في

سبات ؟ بدون سابق انذار، تفاجئ المرء حادثة جرت في يوم بعيد، باحاسيسها ورعبها وفرحها فيقف عندها مشدوها مشلولا لايدري ماذا يفعل. باعثها غريب مثلها، كأن يكون رائحة اسفلت في يوم قائظ. نافذة مهدمة تجذب اليها البصر. خيال شخص غريب الملامح يخلع ملابسه الرثة ليدخل النهر. ضفة بارقة بالغيوم الرمادية. شمس دانية فوق الرؤوس. مرأى زهرة برية تحت كتلة كونكريتية لجسر من الجسور. بواعث لا ادري من ينشرها امامنا كي تفجر لدينا ذلك الينبوع الرهيب من الاطياف والذكريات.

- ماهو السر؟كيف ترد الحكاية، وما هو الباعث؟

سألت رفيقي بحب وفضول. دوامة التساؤلات تمور في داخلي. زهرة المنديل تتفتح امامي شبيهة بطير نورس ناصع البياض.

لفتنا من جميع الجهات تيارات ريح سلسةوكنا محمولين على جناحين من اجنحتها العديدة المتراقصة. الرفيق مستمتع بالريح، ببساطها السحري، مترنحا كأنه سكران. عيناه تحدقان في الجهات بألق، وكأنه يحبذ وجوده الجديد، العصي على الفهم. الارض تحتنا، كعادتها مرقشة بالحياةشجر وبشر وحيوانات وجسور. انها قريبة، وبعيدة في الوقت نفسه يفصلها عنا عالم التحولات غير المفهوم الذي اجتزناه دون ارادة منا.

رد رفيقي على سؤالي بذهول، وكانت الريح ترجه بين اذرعها مثل سعفة غضة:

- انا لااعرف معنى كلمة (باعث)لانني لااجيد القراءة والكتابة. فهي جديدة علي، وحبذا لو اخبرتني بمعناها، فالكلمات الجديدة تمنح لروحي متعة الخلود. تفهم ما اقول؟ربما تعني حليبا او معطفا دافئا او لمسة حنان يخدر الجسد. هل تعني كاروكا خشبيا يختض ليل نهار؟اثناء حياتي القصيرة، وقبل حصول ذلك الانفجار الرهيب، كان عالمي يتألف من

الدبية الصوفية والساعات الدقاقة التي يتوسطها رجال صغار من البلاستيك يهتزون مع وقع الجرس ولعب مختلفة الاشكال اتذكر منها الان واحدة على هيئة فتاة ذات عينين متحركتين، كانت نوابضها من خشب او عاج، وكان وجهها مدورا ووسط خديها بقمتان حمراوان تهمس لي بالقصص عن الضفادع واليعاسيب والببغاوات. كانت صديقتي الوحيدة. اما العربات فقد كانت مدهشة في تنوعها :صغيرة مبطنة بالقديفة، مبطنة بالبلاستيك، مؤطرة بالايات القرانية، موشحة بخيوط خضر سمعت امي تقول انها من احد التكايا يمنحها الدرويش لتكون حرزا. عربات بعجلات مطاطية ومشدات للتثبيت وشبكات ناعمة تمنع البعوض من التسلل، عربات عالية مثل الحصن واخرى واطئة كانها المراجيح، تبعث صريرا مزعجا، يخلق الكوابيس. واحدة من تلك الكوابيس رايت نفسي فيها حشرة صغيرة تدعى فرس النبي، وقد راحت تطاردني ضفدعة كبيرة نطت من كتاب اخي الكبير الموضوع جنب راسي.

لافائدة من السؤال. الرفيق الطائر جنبي غر لايفقه ما اتحدث به. تجربته الحياتية قصيرة، هينة، لاتذكر. ولايمكن لامرئ مثلي رأى برج الموت وعاشر عبد علي المحامي ولطيف وفتاح افندي، سافر بين المدن وساح في الروابي والوديان. ركب البغال مع المهربين واللصوص وقطع الصحاري. سبح في الخابور وكاد ان يبتلعه كوسج في شط العرب. ضاجع العاهرات في محلة الذهب وشاهد سباقات النمل على ضفاف دجلة. لايمكنه الاستفادة من تجربة طفل غر لم ير سوى عربات الاطفال وقناني الحليب ودفاتر المدرسة.

ساجد لنفسي تفسيرا لرسوخ ذلك المنديل في نفق مايدعونه بالذاكرة. الشاشة الواسعة التي تخفي وراءها طبقات من الحكايات وكنوزا من الصور والوجوه والاحداث. كنوز من الوجوه والتعابير والروائح والوان السعف وقطع النحاس. اكف مشققة من البرودة، مرايا متشظية

تعكس سماوات صافية. مرايا متشظية بفعل انفجار كوني او ارتطام مريع او ضربة ماحقة، سببتها جنية هائجة في ليلة من ليالي جلولاء. شوارع خالية من المارة، صفارات انذار لها وقع صاخب لموسيقى تذكر بالموت، او الانتحار. تظل تتلوى في الازقة والحارات والبوابات المغلقة والدور. مخالب نازلة من السماء. مجسات اخطبوطية تضرب ضرب عشواء في محيط البشر، تقبض على فرائسها المكونة من الاذان والحناجر والاثداء والاعصاب القلقة والخيالات المروعة من السجون الضيقة والزنزانات التحتارضية، التي يقطنها معذبون طويلو اللحى اختلطت لديهم الازمان ومرت عليهم العصور مرورها على شاهدات القبور والمقاصل ومشانق الوحدة. شاشة الزمن الذي رأيت فيه الجثث ملفوفة بحرامات سود والوجوه ممسوحة من الحرارة والاعضاء ذائبة.

كانت الاجساد كتلا اسطوانية وثمار باذنجان وقضبان نحاس مطلي بالاسود كانها تماثيل مثال شاذ الخيال. الرماد بحر، والرماد دجلة المنسابة روحا مذعورة بعد ان كانت شاهدة، مثلي، على ذلك الانفجار. اما الدموع، اما الاهات والصرخات وتعابير الرعب وسمات الانطفاء، فصارت سجادة شاسعة فرشت على المدن والتلال والسواقي وكتمت انفاسها. كتمتها بشخير عال متقطع، شخير جمل ذبيح يتفرى لحمه من الالم وسط بيداء شاسعة محصورة بين جلولاء وقره تبة. كانت الصواريخ من طراز كروز مرفقة بدرزينة من الهامبوركر البقري المجلوب من تكساس واريزونا، مع بالات القطن المعد لصناعة بناطيل الكابوي، اضافة الى الويسكي المستقطر من بساتين ميامي، كل ذلك ملفوف بمؤلفات هنري ميلر الفاضحة عن الجسد، تضرب مثل عاصفة رملية، صدغ بغداد وعقرقوف وشثاثة وعين التمر وطوزخورماتو وجبة وقلعة سكر والفلوجة والصقلاوية ونينوى وهيت ذات النواعير وكبيسة المتقوقعة على الحدود السورية وهور الحويزة، باعتباره اخر معقل

للسومريين واحفادهم رعاة الجاموس، والشيخ حديد باعتباره اخر معقل للبدو المتحدرين من شمر طوقة.

كانت قصائد والت ويتمان تتطاير فوق بحيرة الحبانية لترويع سن الذبان.

اغنية لنفسي تصدح على قنطرة مقببة بخشب الصفصاف تقع مابين المجرة والهور. رافق ذلك قصاصات من ورق تواليت رسمت عليها اشكال من شخصيات الواسطي وجماله. جسد اسطواني موته فذ مرق في سمائنا وليس ثمة ريح في السهول ولا زخات مطرعلى الرمال.

غزوة مريعة، رايناها قبل تحولاتنا الصعبة فكتمنا السر وحسبنا الامر هدايا تزخر بها السماء، تجلت لعيوننا الشاخصة الى نجوم الظهيرة. عيوننا كانت مذهولة لهذا الغزو، وقد تلقته ببرود منطقة الحيدرخانة وسوق السرايا الذي كنت اتحول فيه باحثا عن عناوين كتب فقدت من المكتبات.

ببرود كنا ندلي ارجلنا في سواقي الحلة وشاخات الرمادي ونهيرات جلولاء، وببرود كنا نحوش التين والعنب في بساتين شهربان والهندية الشاخصة الى بواباتها باستسلام وطمانينة، ونسرق القبل من فتيات جائعات البطون كن يخرجن من مدارسهن والشهوة تلعب بين اثدائهن. وكل شئ كان مرسوما في السماء، وكنا مهددين بالموت والمحو.

كيف خرجت ذكرى المنديل من ركام تلك الذكريات؟

ربمابسبب رائحة المرأة المشبع بها المنديل. رائحة المرأة الخالدة التي ولدتني عاريا بلا لغة سوى لغة الجسد، فاسلمتني الى حضن الارض المكتظ بالاشياء.

في تلك الرائحة تكمن شهواتي كلها، حواسي وعذاباتي وقد راحت تجر روحي الى سرير الشهوة:كانت امنيتي ان احصل على خاتم سحرى مثل خاتم عمي. اوجه حجارته السوداء المشعة بالاغراء الى المرأة

الجالسة امامي فتتقاد طائعة الى سلطتي.

واقول لنفسي ان عمي وما دار حوله من قصص، هوالذي بعث بذكرى المنديل كي تعكر صفو طيراني على اجنحة الهواء الرجراجة. يعود ذلك المنديل في الاصل الى امراة جميلة حطت ضيفة على بيتنا في واحد من ايام الصيف البعيدةوجه مدور وعينان عسليتان وانف اقنى ينحدر بلطف على شفتين كانهما ثمرتان في موسم النضوج. جسدها ممتلئ، ذو كفل رجراج يبرز من خلف عباءتها الابريسم. ابتسامتها غاوية داعية الى الهجوم والمضاجعة، لؤلؤية يشع وسطها سن ذهبي، صفرته تفريل العتمة وتعكس اخف الانوار الواقعة عليه.

جاءت عصرا، هي وزوجها، وكنا بانتظارهما انا وخالتي وامي ونساء الجيران. على رأس الحشد عمي بالطبع، اذ هو الذي دعاهما. لم يسأل احد عمي عن معرفته بتلك العائلة، في اي الامكنة التقاهما وما هي المناسبة، فأسئلة مثل تلك لم نفكر بها. الاعراس والزيارات ولقاءات الصدف كثيرة، فضلا عن ان لااحد يجرؤ على سؤال عمي حول امر مثل ذاك. زوجة عمي، و هي خالتي في الوقت نفسه، لم ترتق هواجسها لمرحلة الشك، رغم انه لايضاجعها الا مرة واحدة خلال عودته من المعسكر. كان عمي جنديا في معسكر الوشاش، يؤدي خدمته الالزامية ويمارس هوايته في ارتياد ملاهي بغداد واحياء العهر فيها. يسكر ويراهن على الخيول ويدخل السينمات، ويرشي العريف المسؤول عن الاجازات كلما عن له رؤية خالتي. أما كيف عرفت انه يضاجع خالتي القانعة مرة واحدة فقط، فيعود الى عادتي السيئة في التلصص على مايفعله الكبار في مخادع النوم والخلوات، من وراء الابواب وخلل شقوقها، عبر الشبابيك المفتوحة وبواسطة الكمائن الليلية. اميز اللعبة من الشخير والمواء والاصوات الفظة والاهات وفحيح الانفاس، المشهد الذي ينتهي في حالة خالتي بانة موسيقية طويلة ذات شروخ في وسطها،

تجعلني ادرك انتهاء اللعبة، لعبة الكبار الغريبة.

لم تثر اية تساؤلات حول معرفة عمي بالمراة وزوجها.

عم الفرح بقدومهما واشرقت ملامح عمي غبطة وراح يعبث بخاتمه السحري دون توقف. رأيت الخاتم متلبسا اصبعه بعد رجوعه الى البيت اثر عراكه الشهير مع أبي. خاتم عريض له فص اسود من حجر كريم صقيل، له طاقة سحرية لاتحد، تهيمن على النساء فتدير اليه الابصار لتقع على اليد البيضاء ذات الشعر باصابعها الغليظة التي توحي بالفحولة والجنس ورغبات الجسد غير المعلنة.

كان الحجر واسع الاستدارة، يظن المحدق فيه انه عين بقرة مفتوحة بعيدة الغور. كان السحر يكمن في تلك العين، فبها يشل عمي طرائده من النساء، وبواسطتها يرسل امواجا مغناطيسية تغور الى اعمق الغابات اختفاء في الجسد، ثم لاتلبث الغرائز ان تتحرك من كهوفها وتمد مجساتها الى الوجه واليدين وتضاريس الجسد. وبسبب ذلك الخاتم ، كما قدرت، عرف عمي عشرات، من النساء:قصارا بارداف بضة وسمانا ببطون منشدة الجلد، طوالا بارزات العظام يحسبهن الرائي رجالا ، بيضا مشوبات بسمرة وسوداوات ذوات روائح قوية تشد الرجال. ارامل ، متزوجات، عوانس، عدا الصبايا فالسحر يبطل بفعل قوة عمي وحنكته فهن يسببن وجع الراس وخراب البيوت. تندس ثانية بين فخذيها وتاتيك بعد اسبوعين لتخبرك انها لم تر نقطة دم من دورتها الشهرية، كما داب على القول في مجالسه الخاصة.

- ٣ -

كان عمي يعشق السلاح والمرأة والمال.

السلاح يضفي الهيبة على الرجل، ويمنح قلبه الشجاعة. انه قوة، والاستقواء مرغوب حتى لو كان على ذبابة، كما يقول المثل الذي يستشهد به دائما.

المرأة الضعيفة فريسة سهلة للرجال والعود الهش تكسره الطيور والجذر الرخو تقتلعه الريح.

لذلك اقتنى عمي بندقية صيد ايام كنا في القرية، قبل الفيضان بسنة. يستخدمها في الاعراس كرمز للابهة والقوة، ويصطاد بها في الايام العادية الزرازير ودجاج الماء والزاغ.

بدأ ببندقية صيد وانتهى برشاش كلاشنكوف حين شاعت الاخيرة قبل بدء الحرب بقليل. ومابين النوعين جرب مسدسات اوتوماتيكية، بنادق انكليزية، بنادق صيد بسبطانتين ، كواتم صوت، حتى تطور ذلك الولع بعد عشرات السنين، الى اهتمام غريب بانواع المدافع والمتفجرات والالغام والطائرات والسفن الحربية والطوربيدات والغواصات وانواع القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية والبايلوجية. راح يتطلع اليها بمتعة على شاشة التلفزيون ويسمع التقارير

عنها في الاذاعات، حيث صارت حديث البشر في الشوارع والمقاهي والمدارس ومجالس المقاولين التي راح عمي يؤمها بعد ان اصبح مقاولا هو الاخر.

حياته كرسها لتلك الاشياء الثلاثة. المراة بالنسبة له مغامرة جديدة دائما. ما ان يرى امراة جميلة حتى يسارع الى خاتمه ، فهو الذي سيدله على مفتاح قلب الفاتنة. وقد دفع عمي ثلاثة اصابع من يده اليمنى اللابسة للخاتم ثمن حبه للنساء، وقال فيها جدي بشكل نبوئي ذات يوم.

ـ الاصابع تشهد يوم القيامة على صاحبها، تخاطبه امام الله قائلة:لقد زنيت بي وسرقت بي واكلت السحت. انا امسكت جسد المراة وانا التي عددت النقود الغش.

ـ ان الله غفور رحيم ياابي، يمتد بي العمر وساتوب الى الله واذهب الى الحج واصلي.

هكذا سمعته يجيب جدي وهو يداعب كعادته خاتمه السحري.

هل كانت تلك المراة ، صاحبة المنديل، واحدة من ضحايا خاتمه؟

في اي الاماكن جلس عمي قبالتها وهو يداعب خاتمه وعيناه الواسعتان تشقان لحم الانثى الراغبة لكن بحذر؟وهل ان عمي نال تلك المراة قبل مجيئها الى بيتنا؟

الامور ليست اكيدة، ولايمكنني الجزم بشئ من ذلك القبيل. تلك على اية حال، ظنون تستدعي لتوكيدها مراقبة متواصلة للاشارات الصغيرة وقراءة لغة الجسد والتلصص على الخلوات ، وهو مالم يتح لي في ذلك المساء.

شئ واحد استطيع الجزم به دون ذرة من الشك، ان يد عمي ذات الخاتم داعبت ردفها وهي تهم بالصعود الى قمرة السيارة.

حدث هذا بعد ان اكملا العشاء وشربا الشاي. تحدثا طويلا عن

البيت ومشاغله والعمل ومشاريعه والاطفال القادمين وما يخططان لهم من مستقبل. صعد زوجها الى قمرة القيادة، ثم مشى عمي مع المرأة الى الجانب الثاني ليفتح لها الباب ويساعدها في الصعود. كانت العتمة تخفي الملامح والحركات وتسكب ظلا ثقيلا على الهواء. كنت واقفا قرب الباب. انظر بدهشة الى القمرة المتلامعة بالالوان واللوحات المتغامزة والساعات المرقمة بالفسفور الاخضر. سحرتني ايضا الصور الطاردة للعيون الحاسدة وزينة المرأة المتمثلة بالاساور والاقراط والخواتم.

مد عمي يده اليسرى كي تستند عليها عند الصعود. رأيت يد الخاتم، اليد التي قطعت منها ثلاثة اصابع بعد سنين قرب جسر القرنة، تمتد بحركة كأنها عفوية الى ردفها الكبير. حركة هي بين الاحتضان والمداعبة وجس النبض. كانت القمرة ملونة من الداخل متوهجة من الخارج، كتب على مقدمتها الامامية ادعية وزخارف كوفية، وزينت اجزاء منها بالنمنم والاكف الفولاذية الطاردة للارواح الشريرة والناس الفاسدين. لدهشتي، رغم كل ماتحمل من تحذيرات، لم تستطع منع عمي من ارتكاب فعلته.

اما ذلك المنديل الحريري ، فلم يفارق يدها طوال الجلسة.

كانت تمسح به فمها، تكتم بنسيجه الحريرضحكها وابتسامها، ناثرة حولها القرنفل والهيل. وجدت اجمل مافيها ، تحت اضواء المصباح المائل الى الحمرة، يدها الممسكة بذلك المنديل. اية ابهة واي جمال. كنت انزوي في ركن من حوش بيتنا السابح بانوار قمر كأنه ماسة ذهب.

تلك الامسية حسبتها ملكة لليل، والغنج، والذهب، والنساء. استحالت امي وخالتي ونساء الجيران امامها رعية بائسة ، منقوعة بالزيت والشحار والعطن.

ومن حديثها الساحر، المنساب من بين لؤلؤ اسنانها، عرفنا ان زوجها يشتغل طوال السنة. ينقل الاحجار المستخدمة في البناء صيفا ،

اضافة الى الطابوق والجص والسمنت والابواب الحديدية باسعار عالية لوجود حركة بناء ضخمة في البلد بعد خروج السكان من قمع البداوة الى حواضر المدن. اما شتاء فينقل مواشي الرعاة من صحراء الى صحراء. يقسم سيارته في هذا الموسم الى طابقين بصفيحة فولاذية يستخدم الطابق الاسفل عادة للجمال والحمير، اما الاعلى فللماعز والخراف، فيكون ربحه وفيرا في جميع الاحوال. وفي مواسم الرقي والرمان والبطيخ، المواسم الخصبة التي تشتهر بها بعقوبة وكربلاء وبلد وشهربان وعين التمر ، فيتحول بيتهم كما تقول، متفاخرة قالبة عينيها السوداوين بفنج، ورامقة عمي بلحاظ من مودة، الى مخزن مخضرات وفواكه يفيض منه البيت ويمتد الى الجيران، فيحصلون هم على نصيبهم ايضا.

كان بيتنا كله يردد قهقهاتها وطقطقات لسانها.

يتألف بيتنا من عدة غرف، تطل على حوش واسع ارضيّته خرسانية. يقع الدرج في الزاوية المجاورة للمطبخ، ويقود الى السطح المسور بالطابوق حيث يستطيع المرء من هناك ان يلمح تخوم المدينة. غرفة لامي وغرفة لعمي وخالتي وغرفة لنا نحن الاطفال. جدي كان ينام في غرفة الضيوف المشرفة عبر شباكها على الحديقة. وفي الحوش مصباح واحد فقط يشتت الظلام جزئيا لكنه لايطرد من نومي الكوابيس الرهيبة التي تتعاقب علي حالما يتصاعد مواء القطط وعواء الريح في الشتاءات.

فرغ الحوش ووقفنا خارج البيت لتوديع الضيفين ورأيت عمي يداعب ردفي تلك المراة عند الصعود. تململت الشاحنة الفولفو الحمراء، الطويلة، بآياتها وادعيتها ثم استدارت دورة واسعة لتتجه الى الشارع الرئيسي. كان زئيرها يسبح في الفسحة الواسعة جاذبا الينا انظار الجيران البعيدين ومشاة الليل والعائدين من المقاهي والنوادي الرياضية وعمال معامل الخبز والنسيج.

لا اعرف ماالذي دعاني الى الوقوف مع الحشد ومراقبتها وهي تختفي دون اللحاق بها والتعلق بمؤخرتها كما قررت طوال المساء. فثمة هاجس كان يهمس لي بالعودة سريعا الى الحوش.

مضيت الى هناك.

كان الحوش خاليا وامي في المطبخ تجمع الاوعية والقدور والاواني والسكاكين والصحون الملوثة ببقايا القرع واللحوم والرز والشربت المصنوع من القمرالدين. زحفت الى الفراش والوسائد المبعثرة عليه كأنني اروم ملامسة آثار المرأة وحرارة جسدها. المكان ساخنا لمايزل ، معطرا ووثيرا وذبذبات اللحم الطري تجوس في الثنايا والهواء الراكد. وجدته تحت المخدة. منديل الهيام وليلة السحر والحياة الارضية وغنج العيون والعطر الفاغم للانثى الخالدة، المجهولة الهوية.

قلت ادخل الغرفة واخبئ في بطن عتمتها روحي فلا تقع انظار عمي علي. اما اذا رجع الضيوف لاسترداده فساكون عندئذ امام الامر الواقع. كانت اصوات السيارات ونفيرها البعيد تبعث الرعب في اوصالي. اتخيل الشاحنة الحمراء راجعة القهقرى لاسترداد المنديل، فهل من المعقول ان يفرط احد بمنديل رائع مثل هذا؟

ماذا اعمل لو رآه عمي، واراد استلابه ليكون ذكرى لغرامه؟

خطت في الغرفة منقطع الانفاس. طرقعة الصحون تتناهى الي رتيبة متواصلة احسست كما لو ان امي مقبلة على اكمال جبل من الاواني الوسخة. احسست بالليل يمتد ثقيلا على الكون. سمعت عمي يدخل الحمام لازالة لزوجة العرق والغبار كما يفعل يوميا وراحت خالتي تلملم السجاد والوسائد والبسط.

لاادري متى عم السكون في البيت. في مكان قصي من المدينة عجلات تدور ونباح كلاب يتصاعد متكسرا على ديباجة الليل المصنوعة من احلام واوهام وخطى سرية ودخان سجائر لحراس ليليين يتصاعد

الى الفضاء حلقات حلقات ليشكل على تيجان اليوكالبتوس والنخيل اجنحة وهمية كانها اشباح.

ماءت قطة على سطح الجيران، وشجعني مواؤها للخروج الى الحوش ثم الى الحديقة الصغيرة. وانتني الجراة على اخراج المنديل من جيبي، فتشققت عطره وكادت رئتاي ان تغوصا في بحر رائحته.

لن اريه لكائن، وساغسله بنفسي حين يتسخ. لن ادع عينا عمي تقعان عليه. انه يميزه جيدا بلا شك. فمن عاداته حين يتعرف على امراة ان يدس انفه بكل الخبايا :الملابس، الاسورة، نفانيف النوم، الحقائب. كان يعبد حاجات النساء.

لا لن ادع يد عمي الحاملة لخاتمه السحري ان تصادر كنزي.

- ٤ -

وذكرى المنديل تلك هي التي جلبت صورة الملجأ، ملجأ موتي. كنت الوحيد من بين الاقرباء الذي جذب البناء الضخم الغريب انتباهه. عمي حسان مشغول بجمع المال ومطاردة المقاولات الرابحة. مع انه مر بلا شك اثناء سفراته نحو البصرة والحلة وبعقوبة والفلوجة بالطرق المحاذية له. ابي لم يعد يرى الا مايريد ان يراه بعد ان حولته سفرته الى الكويت وانتقالنا الى المدينة، الى رجل حكيم يهمه اكثر مايهمه في هذه الحياة الفانية مايقوم به الابناء وخاصة انا، غريمه الابدي الذي استعصى على التطويع. خالي حزم اعتكف بيته راويا لمن هب ودب مشاهدته للجني ومفتشا عن حكاية جديدة ينسى من خلالها مصيره الاليم الذي حكمته به الحياة، مصير الشيخ الطاعن في السن الذي لم يملا بيته بالاطفال.

هل هو القدر ما جعلني اهتم به كل هذا الاهتمام؟ قدري المحبوك بجدارة ودراية وتصميم مسبق. اكتشفت اليوم فقط انني كنت مثل من يجدل حبل مشنقته بيديه او يحفر قبره دون ان يعلم.

كان البشر ينظرون ويعجبون. ضخامة لاتصدق. مرت على هذه الارض قرون طويلة دون ان تكتحل العيون بمشاهدة بناء مشابه. كان لي

حجر مغناطيسي يجذبني اليه، انا برادة الحديد التائهة. ثمة قوة كانت توحي لي بالمجئ الى المنطقة والتفرج على مراحل البناء ومايستجد من اجزاء. قوة موسوسة لها ايحاء سحر اسود كان يبدا معي ما ان ارتدي ملابسي واخرج من حديقة البيت الى الفسحة الواسعة.

من الباص كان يتمرأى لي كانه رسمة جاهزة. في السماء، على المآذن، فوق مويجات النهر، لايفارق خيالي حتى امضي اليه. امضي اليه مرزوما بفيضاناتنا الماضية وحكايات ابي عن رحلته الى الكويت والتوابيت التي رأيتها صبيا ومخلوقات عبد علي المحامي الكرستالية واصابع عمي التي قطعتها عشيقته سنية.

هو واحد من عشرات ، اقل حجما، توزعت البلد كما ادركت ذلك لاحقا.

ابناء سومر بنوا الزقورات معابد للسماء المكتظة بالاسرار. البابليون اشادوا المدن من طابوق واعمدة وقير وتماثيل تخلد الانسان الطامح الى البقاء دهرا فدهرا. الفرس طاولوا في البناء، طيسفونهم تعكس الانوار المتراقصة على ابوام الظلمة. صنعوا الاعاجيب لرستم ودارا وكسرى، ثم ابادهم هم وابنيتهم عرب الرمال، الذين قدموا من نجد ويمن اليمان والطائف فاقاموا الجوامع والخانات والحانات والبيمارستانات. زججوا واجهاتها بالرسوم وكفتوها بالقاشاني وزخرفوها بالاماليد. جاء المغول والاتراك والسلاجقة والفرس والبويهيون وجنكيز خان والمماليك والانجليز والملك فيصل وعبد الكريم قاسم وشلة الرؤساء بعده، لكن مثل هذا البناء لم يتحدث عنه الاجداد. تركوه لنا كي نخمن الفرض منه. نبارك او نلعن. ثمة معجزة تخبئ سرها، وثمة سر يستعصي على العامة من امثالنا.

ـ ملجأ، ملجأ.

يقول ركاب السيارات والمارة والاهالي وباعة اللبلبي والشلغم

وعصير الرمان. لا احد يعلم من افشى السر. رغم ذلك فالكل يدرك انه يختلف عما شاهدته العصور. فلا طابوق ولا جص ولا قير. مادته لم يعرفها جلجامش وحمورابي ونرام سين وآشورناصريعل. كلا ولا ابو جعفر المنصور والمأمون ومدحت باشا وجعفر ابو التمن وكامل الجادرجي.

مادته لم يعرفها احد من شجرة العائلة الكبيرة. شمر جربا، الدليم، زوبع، عنيزة، زبيد، المحامدة، الكرابلة، البوريشة، البونمر، البوعبيد، البوعيثة، البوفراج، شمرطوقة، العانيون، الراوييون، الصقلاوييون، البومهاوش، البوبالي، الهيتاويون. اليسار، الفتلة، خفاجة، الجبور، الهندلي، وهي القبيلةغير المذكورة في قاموس العشائر الذي وضعه الباحث عبدالله المطيري.

بنوتميم، قراولوس، الندا، البوجواري، الساعدة، ، الحامد، العمار، بنوزيد، المعلا، الدلفية، الكروية، الردينية. المنتفق، بنومالك، العمائرة، المعدان، عشائر هور الحمار، الجبايش ، بني اسد، بنو سعد، بنو خيقان، الفهود ، الحساوية، عبادة، كوت جارالله، كوت محينة، المجرة، الاجود، آل ازيرج، الذين يبعثون في الاذهان صورا نافرة خشنة لقرون الجاموس وانياب الخنازير البرية والمشاحيف المتوارثة منذ العهود السومرية. الحصونة، القراقول، الزهيرية، الظوالم. بنولام، البومحمد، البهادل، السراي.

حمدان وكوت الزين وعشائر جزيرة ام الجبابي وكصيصيف ومهيجران.

السوامر والعوايد والشبوط وبنومنصور والمياح والنشوة والخلوط.

زبيد والبيكات والبراك والبكر والسوامرة والجوابر. زنكنة، اللرية، البارزانية، الطالبانية، العباوي، الدركزلي، الشكاك، الموزعون بين بلادين، سكنة الجبال العالية ، هم الذين استخدمت لهجتهم ذات يوم شفرة سرية في الجيش لصعوبة فك مغاليقها. ربيعة، بنوكعب، البيرماني،

المصالوة، التكارتة، الحلاويون، اليزيديون، الاثوريون، السريان، التركمان. العرب والانباط والفرس والفيليون والتلكيف. الجزراويون، الجواريون، البياتيون، البيرقداريون، الصابونجيون، الفرمانيون، الهمايونيون، السعدون، ال خيون، العبيد، العبايجيون، النوابيون، الخزرجيون، الخشابيون.

الديريون، الغرافيون، الانباريون، الفاويون، الصليب، الكاولية، البصاروة، الفلوجيون، الطوزخورماتيون، الجمجماليون، القلعه دزيون، الذين يتذكرون خراب مدينتهم اينما حلوا. الشهريانيون، المندلاويون، القره تبيون، الذين ينتسبون الى قره تبه. رأيت على طريقها ذات مرة كيف تذبح الابل وتتماوج التلال في بيضة الظهيرة. كيف تنعكس بيوت الشعر السود في السماء الزرقاء كما لو كانت طيور زاغ مهاجرة. السنة نفسها التي قامت فيها الحرب وبدأت المدافع بعيدة المدى ترش جبال حمرين بالغبار والزنخة والموت. ايامها شهدنا انا والملازم مأمون عبد السميع الخشالي هجرة جماعية للقط البري واليرابيع والغزلان والذئاب والحيات والحبارى والكركي ورعاة الماعز.

في البدء، اقتلعوا اشجار اليوكالبتوس. ازالوا الحلفاء وطهروا الارض من اعواد الصفصاف والطرفاء البرية. كشطت التربة وسويت بشفرات عملاقة مشدودة على محركات ليست ذات اسم. المقاولون المحليون لم يعرفوا مثلها في البلد، وقيل لهم بعد تساؤلاتهم الملحفة انها صممت لمشروع الملجأ فقط. قال العامة انها حشرات غابية مسخها الله عبرة لبني البشر، وهذا الاعتقاد مرده ان اشكال بعضها مستوحاة من حشرات افريقيا ودواب الامازون والصحاري والبحار، التي تفرض على كائناتها ابتكار اجساد تقاوم قسوة الظروف. الارض احيطت بسياج رقيق من الخشب بعلو مترين. كان يحجب مايدور في الداخل عن اعين الفضوليين واللصوص والاجانب والعرب المشتغلين في البلد،

وسرعان ماتعرض ذلك السياج الى غزو منظم للكتاب السريين وهم يعلنون آراءهم صريحة فيمايدور حولهم، لالحرب الاكراد، الشيوعية اقوى من الموت واعلى من اعواد المشانق، يسقط الرئيس الاوحد، تعيش الديمقراطية، لاللعسكرة، التهجير عمل لا انساني، كلنا ضد السلطة، انت لست وحدك، سعيد يحب الهام البياتي، النجف قلعة صامدة، تعيش فلسطين، اعطني مسرحا اعطيك شعبا مثقفا، حافظوا على التراث. الخ من الشعارات والجمل والكلمات، التي كتب بعضها بالفحم وبعضها بالاصباغ والطباشير والدم احيانا. كانت تمسح او يكتب تحتها تعليقات مضادة الامر الذي حول السياج الى برلمان حقيقي مفتوح للسكارى والجنود الفارين والسياسيين والمتذمرين.

لم يغن السياج عن سماع الضجة المتصاعدة من المنطقة كما لم يحجب الالات العملاقة، التي يستطيع القادمون الى بغداد رؤيتها من مسافات بعيدة. ضجة حفارات ومثاقب وقاشطات وبلدوزرات وشاحنات وسكك كانت تشق الارض بسهولة ويسر. ينعقد فوق ذلك الضجيج والحركة دخان وغبار ، يترسبان في اماكن بعيدة على هيئة رذاذ اسود تحتضنه اوراق العنب وعذوق التمر ونجيل الضفاف ، اما على اليوكالبتوس والاثل فينعقدان غييمات صغيرة متفرقة اشبه بالبعوض ، لايندحران الا بحلول الظهيرة.

تم سبر التربة بعشرات من الاجهزة، ولعشرات من الاغراض:تحملها للضغط، نسبة الرمل فيها، العناصر الكيمياوية العالقة مع الغرين، قوة الشد، الانزياح، عامل الاهتزاز، سلوكها في الانفجارات والهزات الارضية، انواع المعادن واستجابتها للاشعاعات الذرية والنيوترونية، الرطوبة، المياه الجوفية القادمة من نهر دجلة عبر التنافذ الشعري. اخيرا نسبة الاملاح، العامل الفذ المسبب في تآكل الحديد والخرسانة والعوازل الاسفنجية والخشب والتاسيسات الكهربائية والصحية.

كان العمل يجري في حفرة شاسعة، الراكب في الباص ذي الطابقين، وهو ماكنت افعله للاقتراب من المكان، يرى العاملين في قعرها مثل اميبات رجراجة لاتستقر على حال. ضائعون بين الات عملاقة وبكرات ضخمة ومهاو بعيدة الغور وقضبان غليظة، مرآهم مرأى حشرات تحرث الارض بحثا عن طعام لايرى بالعين المجردة كدقيق الخشب وذرات البروتين ورقائق الكاربون وخيوط الديدان المجهرية.

لو قدر لي ان اقرأ مصائر البشر ، اين يموتون، ولماذا، وكيف، لقرات مصيري الشاق بلاشك، لحاولت تفاديه بالهرب الى الجبال العصية المسالك ، الغاصة بالغرائب والقرى والكهوف، او الاهوار المتشابكة البردي ، او الارتحال غربا عبر الصحاري ، دليلي نجم القطب وذئب البر الى ان يصطدم رأسي بجدار دولة ثانية.

كنت قراته على واجهة السياج وذرات الغبار ونظارات السائقين ودوامات الرمل. على دخان المحركات، على الخشب، في الابار الجوفية، بدلائل الاحلام، على وجوه البشر المذعورين من الهبة المفاجئة التي انحدرت عليهم مصحوبة بملايين الاغراب القادمين من خلف المحيطات والجبال النائية.

لم ادرك وقتها انهم كانوا يبنون ملجأ موتي، وحريقي القادم الذي رفعني بألسنته وحطني على الجبال. تشبثي بالحياة الارضية كان اقوى من هواجسي ومشاريعي وخططي. كنت مستكينا الى حكايات عمي ومقاولاته. الى حياتي العريضة مع عبد علي المحامي ولطيف والفران وازقة بغداد الغاصة بالعاهرات والحانات وآثار الازمنة الماضية. مستكينا كنت مع استكانة الحياة وطقوسها اليومية التي تقيم حولنا درعا من اللاابالية والغفلة. وفوق ذلك، حلماي اللذيذان اللذان لفاني باذرعهما الاخطبوطية ولوامسهما المخدرة الباعثة على التريث والتأمل. حلمان ظلا يتراءيان لي بين فترة واخرى، دون تغيير تقريبا. لقد نشرا

باصرارهما العجيب ، ستارا من الخدر على مشاعري وقراراتي، فأبعدا عني شبح الموت مثل تميمة. امراة عارية ، نهداها نافران يعلنان حضورهما. تتوسطهما حلمتان بلون الشوكلاتا. حوضها مدور فاتن والخصر نحيل. يستر الخصر قلادة من يشب واسمانجوني مطعم بالازهار الحية فاقعة الالوان، مختلفة الاحجام تنث الروائح حولها. فمن ورد مائل الى البياض تنقط بياضه بقع سود تنشر ظلالها النجمية على الحافات ، الى نرجس استرقت اوراقه حتى لتحسبنه نسيج حرير صدرته الصين الى ملوك العرب الغابرين. من عين الثور الى الدفلى. ازهار برية لم اشاهدها قبلئذ خلال رحلاتي في سهوب جلولاء وشواطئ الفرات و ضفاف دجلة وجزرها.

ازهار بريةلايشاهدها المرء الا في الحلم. سلّكت على مهل وروية بخيط من اللبلاب، فشكلت قلادة تلتف لولبيا، تبدا من الصرة حتى ملتقى الفخذين. كانت المرأة تمد يدها بحركة غريزية لتحجب وكر اللذة وكهف الحياة، كي لاتقع عليه عيني الشرهة ولاخيالي الحاد. تمد يدها فتبين الاصابع الفيروزية، بداعة ماخلق وفرادة ما صنع، لاعوج فيها ولا ميل ، مغوية غاوية تنث غنجا ودلا. خمنت ان الحركة غريزية تتلبس المرأة الخائفة على كنوزها. وراءها ملاءات شفيفة تتطاير في اجنحة نسيم لايحس. الشجر صانت والغصينات عليها هديل لاينقطع ، واليمام يتأمل مايجري في الجنة حوله، في مجرى الحياة الابدي. بذرة تنتا وتتعالى سوقا وتنتهي ثمارا.

الملاءات تسري في الفضاء ثم تصعد برقة لاتلبث بعدها الى الهبوط ريشة ضوء. يحملها الى الفضاء مرة اخرى منقار طير لايرى ما ان تهم بالهبوط الى الارض. طير جناحاه انوار وعيناه خيالات وقوادمه اوهام تعرش في رأس تلك المرأة السكرى بجمالها. وانا انظر بعجب، واتامل بحسرة، فالمثال امامي والوصول له من اصعب الاحوال، الشهوة

لامحل لها والطلب عسير.

الشعر له الوان بحرية، الوان مخلوقات الاعماق سمك واخطبوطات متخفية في قوارير سفن غاطسة منذ مئات والاف السنين. شعب مرجان ومستعمرات اسفنج وعليق بحري سائب الاوراق. وتثبت الملاءات الى الشعر نجوم اقرب الى الذهب منها الى الفضة، نجوم مشدات وزينة وفتنة للعيون.

في الساقين خلاخل، وافعى ملتوية جلدها جلد نمر، تلائم السيقان البضة والافخاذ. الافعى نائمة ورأسها يتجه الى ملتقى الفخذين. لوقدر لعينيها ان تنفتحان لابصرتا حجر المغناطيس القاتل على بعد بضع سلاميات منها، لرأتا مثلث اللذة المغطى بالثمار المرّة والزهور البرية. ولكي يحاط الجسد بالسموم اكثر فاكثر ، راحت افعيان ثانيتان تلتفان على ساعدي المرأة وهما من الفضة هذه المرة، كل واحدة تحدق في راحة من راحتي المرأة، والراحتان مفتوحتان، مضاءتان بجوهرتين ضخمتين القتا القا اضاء الملاءات واشجار اللبلاب وابتسامة المرأة وعينيها المحدقتين الى بعيد :الى الايام المتخفية في رحم الغيب الذي سيأتي لامحالة، الايام المنسلة من شواطئ المستقبل كأنها سحائب صيف. هل تدرك بأحساس مبهم ، انها خارجة من رحم هذه الجنة الى ارض اخرى ؟ ارض غربة. ارض مدن لامرئية ملأى بالدهاليز والغرف والرجال القساة. ارض خيالات شجرها وغيمها وماؤها، معلقة في رؤوس الجبال.

كأن تلك الجنة لم تخلق الا لتلك المرأة المثال، ولي انا النائم، الحالم، الحي، التائق لمفارقة بيتنا وعيني ابي القاسيتين وارض المعسكرات والبدء من جديد، في صنع حياتي التي اريدها . أمراة في جنة . وكل ذلك لايعدو ان يتخلق في رأسي انا، يوما بعد يوم، وسأما بعد سأم.

ـ انت بحاجة الى الذهاب معي الى محلة الذهب سريعا. انت

بحاجة لامرأة تخلصك من سمومك.

قال لي لطيف حين اخبرته بما رأيت. ثم اطلق ضحكة مدوية في فضاء شارع النهر. وكان ذلك الحلم واحة، اركن اليها خلاصا من جحيم المعسكرات والحياة الحمى التي كنت اعيشها.

لم يمر اكثر من اسبوع على نقلي الى جلولاء حتى عاد ذلك الحلم للظهور في منامي. عاد مصحوبا بتغير طفيف في التفاصيل، وحسبت ان في الامر نبوءة تتكون امامي عليّ ان افك رموزها، واستقرئ دلالاتها، علها تتعلق بهاجس الملجأ الملحاح.

الجنة جنتان. واحدة في الاعلى من اطيار واغصان وثمار لاتغيب شمسها ولاتطلع لان شدة الاضاءة ثابتة لاتتعدى الضوء الطبشوري الالق والخافت في الوقت نفسه. الثانية في الاسفل من زهور ونجيل وامواه وارض ممهدة، حصاها در وياقوت ومفارشها استبرق وقطيفة وريش اطيار تشبه الطواويس.

المرأة الاولى تحمل مصباحا يضئ بدائرته الذهبية الوجه وخصلات الشعر الاسود المدهون بالزيت، حيث تفوح رائحة تختلط برائحة الورق الريحاني. للمصباح قاعدة زرقاء من زجاج. تشف عن فتيلة لامعة تسرب الزيت الى شعلة النار المتأججة بلا انقطاع.

هل هي عشتار سيدة الخمر والقمح، التي رأيتها في المتحف؟سيدة الحياة والموت في الوقت نفسه؟

كانت اصابعها مجملة بالخواتم ، كل خاتم له تصميم خاص ومعدن خاص. قدرت من تفرد تصاميمها انها تنتسب الى فضاءات زمنية موغلة بالقدم، لها نكهة العهود السومرية والبابلية والسلجوقية والبويهية والمماليك وفرق الحشاشين. تلك التصاميم لم تعد متداولة في سوق الصاغة والاستريادي وشارع الكويت في البصرة والسوق المسقف في السليمانية. التنينات ذوات اصول صينية والافعوانات رقيقات

صحراويات المنشأ والثمار ثمار طبيعة جبلية باردة. الاقراط متدلية في فراغ بلا قرار تحت اذنيها، حلق وفصوص تتشريك فيمابينها مكونة عناقيد وثمارا واماليد، من فضة حينا ومن جواهر حينا ومطعمة بالعاج احيانا، حتى تحار العين اين تلقي البصر وسط ابهة تلك النفائس. الراس منتصب ، فرس متأهب للوثوب، والعينان تفتضان الامداء البعيدة ، خلف اليوكالبتوس والنخيل ، وتعابير الوجه تضفي عليها هيئة من يتسمع او يتوقع ظهور شخص ما او حدوث امر جلل. هي لحظة مكرسة للابدية، ونظرة تتجاوز الزائل.

امرأتان في جنتين، تطلان من بخار حلم يجرى في رأس قلق يسيطر عليه الجثام ليلا وراء ليل.

تجلس الاخرى على كرسي من الخيزران وتحتضن سلة من خيوط العنب تكتظ بالقوارير والدوارق والعلب والمرايا والمكاحل. المرايا اطاراتها من معدن لماع وسطوحها تعكس ماطرف او طاب في الآفاق. قربها كأس ملئ بخمرة حمراء، والكأس رسمت عليه حيوانات غريبة وبشر شاذو الخلقة منهم بعين واحدة ومنهم بجسد ذي رأسين، وتنينات ملتفة بعضها على البعض، وهاربيات ناعمة التعابير، وكأن رسام ذلك الكأس اراد من رسومه ان يؤكد وصوله الى سهوب الجنون وجبال الخيال. هل الكأس مصنوع من بلور؟هل هو مصنوع من عاج؟من مرمر؟هل الخمرة حقيقة ام خيال؟

كأس ذو شكل مفلطح اشبه بالفم. يهم التهام المرأة الجالسة على الكرسي بعجيزتها المشتهاة وجسدها القاطر شهوة الذي يثير فيّ جوعا لاحد له.

حول المرأتين تتبعثر عقود من النمنم واطواق من الريش وسكاكين حادة تلصف، الاشعة المبعثرة عنها تنغل في قناة مياه تلعب فيه اسماك وعرائس بحر. ثمة ايضا هالة شاحبة من الضوء، تكشف بمنتهى

الوضوح تمثالا صغيرا لامرأة تحمل على رأسها بقطينة تتحدر منها شرائط ورقية تختلط مع كتل الريش المجاورة لحافة القناة. كانت نظرات المرأة التمثال تنم عن شبق هائل ورغبة جامحة لاتخجل من التعبير عن نفسها صراحة.

لكن ماذا يعني كل ذلك؟ماذا تعنيه تفاصيل الجنان والنسوة المتوحدات فيها؟واين اجد العلاقة الواضحة مابين رموز الحلم وحياتي المرسومة لي والتي ينبغي علي ان اعيشها؟ماذا يعني ذلك التكرار الملح في البيت، وسط المعسكر، وفي الغفوات الصغيرة التي اختلسها احيانا وانا اجلس في الباص، متجها لرؤية الملجأ؟فوق ذلك، بدأت تفاصيل ماأراه في النوم ترد على خاطري اثناء مشيي في الشوارع او حديثي مع ابي داخل الحوش او حتى في جلسات الخمرة مع عبد علي المحامي وباقي الشلة. لكن رغم ذلك لم ينقطع اهتمامي ابدا بالملجأ. بدأت اتقصى تفاصيله مهما دقت. عرفت ان الخرائط كانت مجلوبة من خلف البحار، من قارات لاتنتمي الى قارتنا. مكتوبة بلغة لايفهمها الا ذوو الاختصاص. خرائط توضح ادق التفاصيل، ابتداء من الاعمدة الضخمة وحتى فتحات التهوية.

كانت الخرائط مقسمة الى عشرات اخرى ثانوية، تبين الشروحات والدلالات غير الواضحة في المخطط العام، كأرقام القضبان الفولاذية وسماكتها واقطارها واطوالها وانحناءاتها، وحجوم الفتحات ونسب خلط مواد الخرسانة من حصى ورمال واسمنت، واستطالات الجوائز وسماكة الارضيات وثخن الجدران، التي عليها ان تقاوم الانفجارات الصاروخية والقنابل الاشعاعية.

عد المشروع فتحا جديدا في فضاء العلم والمعرفة. زبدة الخبرات في قضايا الدفاع وتطور هام يتجاوز آفاق اذهان عشائرنا الضيقة الخارجة توا من شرنقة بيوت الطين والشارات. كنا نسمع هذا من افواه

المتخصصين واعضاء المخابرات والحزبيين. يقولونه عرضا كي يبعدوا الاتهام عن انفسهم. اتهام انهم يبوحون بسر خطير من اسرار الامن الوطني والقومي. يهمسون به للاقرباء والثقاة، فيتصاعد الى الاجواء العليا مثل خيمة هائلة.في السنين القادمةسيدخل البلد نفق حروب متواصلة تتطلب ابنية هائلة وسرية وغامضة، وموانئ واسعة وخلجانا فسيحة لخلق اسطول حربي يظل متأهبا ليل نهار، وجيشا جرارا يخلق حوله هالة اسطورية سيكون منتسبوه المفضلين والصفوة من ابناء الشعب. هم الذين يمنحون دماءهم للرمال والحصى، للسواقي والانهار، لجذوع النخيل واسفلت المدن. مانراه قمة الجبل الجليدي فقط.

كنت بين مصدق ومكذب، مندهش وخائف. الهمسات توحي بمغامرات عظيمة قادمة.

كان العمل يتواصل اربعا وعشرين ساعة. في البرد والحر. في العطل والاعياد. كأنهم كانوا في سباق محموم مع الزمن. يوميا، كما سمعت، يتم رفع التقارير عن سير العمل. قطاع الحفر والتسليح والصب ومص المياه الجوفيه والتوصيلات الكهربائية والميكانيكية، حيث يتم دراسة تلك التقارير من قبل مهندسين من مختلف الجنسيات:عراقيين للتنفيذ اليومي، مصريين للاشراف، المان لقسم الكهرباء والاشعة الذرية، انكليز للتهوية، اميركان للاتصالات مع الخارج، هنود لفحص المكعبات الخرسانية وعينات التربة. الاشارات توضع على جدول بياني مقسم الى ايام واسابيع وشهور وسنين.

حين يتطلب رفع تقرير شامل لمايجري على الارض، وسط السياج الطويل، برلمان اللصوص والمعارضين والسكارى، نرى طائرة مروحية صغيرة تحلق فوق الموقع بارتفاع منخفض وابواب مفتوحة وسرعة بطيئة ، يطل منها رجال صغار الحجوم. يثبتون امامهم آلات قياس غير واضحة الاجرام، مكبرات وبوصلات ونواظير، كما لو كانوا يتجسسون

علينا. كانت رؤيتهم تبعث القشعريرة في الاجساد، فهم يجسدون قوة غير مدركة، غامضة، تقوم بعمل غامض هو الاخر، ولا احد بقادر على ايقافهم او الاستفسار عما يفعلون. لكن الاغلبية ، بمن فيهم انا، تقبلت المشهد المتكرر على مضض. مايجري ليس الوحيد في البلد، فثمة عشرات الاعمال المماثلة والاف الامكنة التي يمنع الاقتراب منها ومئات الطائرات بمختلف الاحجام تقوم بطلعات غريبة على الموانى والصحاري والقواعد الجوية ومضائف العشائر والجبال، حيث الطبيعة اكثر عدائية واقل موثوقية.

كل شئ كان يسير على ضوء ماخطط ورسم وقرر. لا احد يشك بذلك.

كل شئ يجري مثل ساعة مضبوطة، الا جزءا واحدا كان غائبا عن الاذهان. لم ينتبه له بفعل غفلة جماعية او تجاهل مقصود من جهة ما. جزء بسيط كان غائبا عن السلطة والعاملين ونحن ابناء البلد، الذين كنا نحدق من طوابق الباصات الشاهقة بدهشة.

انه السرية المفقودة ، التي يفترض ان ترافق مشاريع دفاعية تمس الامن الوطني مثل مشروع الملجأ.

كان عرضة للهجوم. نقاط ضعفه ومداخله ومفاصله التي يمكن ان تقوض تلك الكتلة العظيمة مرسومة بدقة على جميع خرائط التجسس.

كانت الاعمدة تتوالد شامخة في الفضاء. الجدران المدعمة بصفائح الفولاذ تتسامق خاطة ذبذباتها الثقيلة على رقائق الهواء. خزانات الماء تكتمل خزانا فآخر، وكنت اسبح في تيار الايام المتعاقبة مثل سمكة مزهورة، تتقاذفني الشوارع والحانات والفنادق والمدن والمعسكرات والاحلام والسجون والصحاري والجبال.

واثناء اهتمامي بالملجأ جعلت من محل لطيف، في شارع النهر، محطة لي دائمة.

ازوره مساء كل خميس تقريبا. في العطل والاجازات يصبح مركزا انطلق منه الى المقاهي والشوارع والحانات. ولطيف يعرف انني سأعود اليه من جلولاء مهموزا بشوق الحكايات والنساء، حكايات فتاح افندي ونساء شارع النهر والرشيد والسعدون. الا انني لم افاتحه بشأن الملجأ. رحت اعتبر نفسي واحدا من البشر، يستطيع كغيره تلبية رغباته الجنسية ومشاهدة الافلام في السينمات والجلوس الى الاصدقاءلتبادل اخبار البلد، ومستجداته. ونشأ لدي حب استطلاع غريب، للتجوال في الاماكن الغريبة والازقة العتيقة الحاملة لروح بغداد، والحارات التي تعد علامات فارقات على جسد هذه المدينة، كان لعبد علي المحامي دور كبير في تنميته.

الحيدرخانة. وحدة من امكنتي المفضلة للتجوال فيها والتطلع الى مشربياتها وسقوفها المعلقة وناسها الخليط من العرب والاكراد والفرس والمصريين والعاهرات وطلاب الجامعات القادمين من مدن اخرى. فيها ايضا نشأ مامون عبد السميع، الضابط معي في معسكر جلولاء، وهو

من ابوين بغداديين عريقين قضيا عمرهما في تربية الاطفال والكدح. كان كثيرا ماحدثني عنها اثناء سفرنا سوية من جلولاء الى بغداد. كان يطيب له رواية غرائبها وانواع شوارعها وجوامعها ومقاهيهاوتاريخها الضارب في جذور المدينة. فالحديث عنها يعيد له ايام طفولته والالعاب التي مارسها مع شلة الاطفال الباقين الذين اختفى بعضهم نتيجة الفقر والجريمة والسياسة. سألته عن اسمها فقال:اسمها من اسم وال نصبه الفرس خلال احتلالهم لبغداد هو حيدر خان. دفن بقبر في تلك الناحية، وازيل القبر بعد عدة قرون بعد ان طرد الفرس من قبل الاتراك القره قوينلو المنحدرين من الشمال. من مقاهيها قهوة حسن عجمي والكمبتلي وآمش، واشهر مطاعمها مطعم ابن سمينة. كان عمي يأخذني الى هناك لاكل القوزي، اثناء لقاءاتنا. جامعها القديم عاصر الغزوات والاوبئة والولاة والدفتردارية والرسامين، وكان يعد برلمانا شعبيا في عقدي الثلاثينات و الاربعينات من قرننا العشرين:قرن الحروب والقتل، قرن العسكر والقنابل والكومبيوترات، قرن الوعل والثور والبزاقة السائرة فوق الاديم المهد. منه تنطلق المظاهرات مطالبة بحقوق الشعب الدستورية وتجري باروقته القيادات الدينية والاجتماعية كآل النقيب والدفتردار والنقشبندي وكاشف الغطاء والصدر والجلبي والبارزاني مشاوراتها. ورد اسم الحيدرخانة في تقرير للمؤرخ المعروف فيليكس جون ضمنه اشهر عقودها وهي الخشالي والشفتالات وآمش. ينتسب الملازم مأمون عبد السميع الى عقد الخشالي.

اضيع في متاهة تلك الازقة واشبع بصري من شناشيلها وغرفها المعلقة في الهواء وواجهات مخازنها الملأى بالبضائع. اعبر شارع السراي وانسل من الجهة الثانية لادخل شارع النهر متوجها الى محل لطيف، مرفأي الدائم ومركز حياتي. مرتعي الذي كان يسهل لي بلوغ اوطاري في تلمس اجساد النساء واشباع رغباتي المتمثلة بغزل العيون،

حركات الحواجب، احتكاك اليد بالمؤخرات الرخوة الرجراجة، الضغط والحك، ودس الاعضاء المنتصبة في التجاويف الدافئة والتكويرات والانبعاجات. نزوات شاذة، لاحيلة لي على تركها. واعتقد ان ابي كان السبب وراء تأصيلها في نفسي، فهو الذي جعلني اعيش متقوقعا داخل شرنقتي خائفا من اعلان رغباتي وهواجسي وطيشي. ابسط نأمةتدل عليها كانت تستجلب عليّ غضبه وسخطه. لم يعد امامي سوى الهروب. الهروب الى افكاري وخيالاتي. استخدمها عجينة لاخلق منها اشيائي الخاصة، الجميلة، المثيرة للشهوة، فاحاورها او اضاجعها او احطمها. ومراقبة البالغين ومخادعهم وخلواتهم، كما كان يجري مع عمي وخالتي في حوش دارنا، واحدة من تلك النزوات التي علقت بي منذ البلوغ.

محل لطيف صغير وضيق، يصلح فيه المذياعات العاطلة، ويشتري القديمة منها. ملئ بانواع غريبة من المذياعات، تتكوم في كل ركن وزاوية كهربائية، تعمل بالبطارية، صغيرة، كبيرة، يحتفظ لطيف بقسم منها كديكور وزينة للمحل. اظهر مايبين منها للداخل من فرجة الباب، ذلك المذياع المرصوف على الرف. مستطيل من الخشب، تحتل سماعته الجزء الاعلى من جرمه، فيما يحتل مؤشره ذو الابرة النحيفة المستلقي على لوحة الارقام الجزء الاسفل منه. لوحة المحطات تضاء بمصباح اخضر صغير كرأس الدبوس يتوهج في الليل كأنه قمير معلق في سماء بعيدة. يمتد من المذياع سلك يرتبط ببطارية كبيرة الحجم مركونة جنبه. سألت لطيفا ذات صباح عن السر الذي يجعله يحتفظ بهذا المذياع الكبير الحجم القديم الطراز، الذي لم يعد ينفع في شئ امام التطور الهائل في صناعة المذياعات. قال وهو يضحك بصوت عال جذب انتباه فتاح افندي فاقترب منا ليسمع الحكاية، هو المغرم بسماع الحكايات والنوادر.

تخيل المشهد ومايحمل من طرافة وشذوذ. انا وخالي ندور في

طرقات القرية حفاة لابسين دشداشتين من البوبلين يتآكل حافاتهما شوك الدروب وعاقولها، انا احمل البطارية الضخمة التي ترونها امامكما واسير وراء خالي حامل المذياع. يربط فيما بيننا السلك الطويل. المسافة بيننا يجب ان تظل ثابتة، وصوت المذياع على الحافة الاخيرة من الارتفاع، يجلجل باغاني حضيري ابو عزيز وصديقة الملاية وبنات الريف. الآهات ترددها سماء القرية الصافية وتتموج الالحان بآذان الفلاحين في حقول القت والذرة وعند السواقي. كان اكثر مايهمنا منظر النساء والفتيات وهن ينظرن لنا باستغراب. فالمذياع اول مذياع يدخل القرية. اول مرة يسمع النخيل وفاخته والحقول وبقرها والبيوت وقاطنوها صوت مذياع. خالي يبتسم للمارة المندهشين من المشهد. اقول له هل نبقى دائرين في القرية الى الابد؟ يجيبني اصطبر حتى ترانا ناعسة. وناعسة كانت غائبة ولم نكتشف انها ذهبت الى المطحنة حتى سقوط الظلام، بعد ان امتلات ارجلنا باشواك العاقول وتخدشت سيقاننا من الشوك. العجائز الجالسات امام دورهن كن ينظرن ويسمعن ويعجبن. كيف لبشر مثلنا طوال عراض يعيشون في مستطيل الخشب الضيق ذاك؟من اين لهم الطعام والشراب؟ولم هم ينوحون ويغنون دون وجود عرس او مأتم او ختان؟عشق خالي ناعسة عشر سنوات وفي النهاية نهبها رجل من قرية بعيدة تحت جنح الظلام لان اباها لا يرغب بتزويجها الى خالي. كان هذا المذياع اول مذياع تراه قرية العباسية في حياتها الممتدة قرونا وقرون. كلما انظر اليه اتذكر طفولتي وخالي وناعسة والاصدقاء الذين تشتت بهم السبل. مات خالي بسرطان الدم قبل ثلاث سنين وخلف اربعة بنات وثلاث ابناء.

ظل لطيف، وهو عريف فتي في القوة الجوية، تطوع اليها بعد حصوله على الشهادة المتوسطة، فعشق الاجهزة الكهربائية وافتتح محله في شارع النهر، هو ومحله واحة سرية لم ابح بها للاصدقاء والمعارف.

بواسطة محله كنت البي بعضا من احتياجاتي الجنسية، واطل على مايجري في قاع المدينة الذي لاتكتب عنه الصحف ولا تتداوله الالسن جهارا. كان المحل نقطة جذب للنساء، اقام فيه لطيف طبقة من الخشب الصقت لصقا بالسقف، يربطها بالارضية درج حديدي تتسلقه النساء خفية عن الاعين. يقع خلف ظهر لطيف مباشرة. دأب على اسدال ستار عليه من قماش ينسجم لونه مع لون الجدران. كان صيدنا يكثر ايام الجمع خاصة، وهي ايام نتظاهر فيها بتنظيف المحل وتوضيب حاجاته لابعاد الرقباء والمترصدين. في ذلك الكهف الصغير المعتم سمعت اول مرة بفتاح افندي.

يقع كوخ فتاح افندي في عطفة صغيرة من شارع النهر. كوخه يقدم افضل شاي في بغداد كلها. ورث لقب الافندية عن جد عاصر الحكم العثماني وترك له اضافة الى اللقب الذي يعتز به، بيتا قديما من طراز البيوت البغدادية يطل على دجلة، لايمتلك فتاح افندي النقود الكافية لترميم شبابيكه وشناشيله وكواه لذلك اضطر متوجها الى المقامرة والمراهنة على الخيول، طمعا بضربة الحظ التي لابد ان تأتي يوما.

كوخه يحتوي على بريمز ضخم وسماور عال فضي اللون له شكل القباب العالية ومزخرف بعناية. تنتأ من السماور حنفية صغيرة يسكب منها فتاح افندي الماء المغلي لمن يشرب الشاي الخفيف. وبالقرب من السماور منقلة ملأى بالجمر. تتربع على عرش الجمر قوريات الشاي الصينية ليلا نهارا. كان الدخان ينعقد فوق الرؤوس محملا بعطر الهيل والبخور الذي يدسه فتاح افندي خفية عن الاعين كي يجذب اليه الزبائن. كنت واحدا من زبائنه، ومستمعيه. زبائنه خليط من السكارى والغرباء والمتسكعين واصحاب المحلات والمطاردين سياسيا ونشالة الجيوب والعاهرات والجنود ورجال الامن ولاعبي القمار. وهو يشتغل اشغالا اخرى غير بيع الشاي، لها علاقة بالنساء. لمحته اكثر من مرة

يتعامل مع رجال اثرياء يركبونه سيارات فارهة ثم يتجهون به الى حي الاكراد والميدان والحيدرخانة والارمن. ورغم كل نشاطاته الموجهة لكسب النقود، ففتاح افندي مفلس دائما.

كان من عشاق مراهنات الخيول. وكان يعشق الخيول بحد ذاتها ايضا. يحفظ انواعها كما يحفظ آيات قرآنية. اينما تحدث وفي اي موضوع فلا بد ان يعرج على الصقلاوية وعبيان والحمدانية، وغيرها. عشق الخيول والمراهنة عليها يسريان في جسده سريان الهواء. حدثني مرة فقال:قامرت يوما على بيتي بعد افلاس مهين فخسرته. استدنت دينارا واحدا من مالك الاقرع اشترط علي ان ارجعه له بدينارين فوافقت. كانت الشمس حينها تشوي الوجوه من سخونتها. القير في الشوارع يكاد يذوب تحت الارجل، ولااحد يغامر بالوقوف في العراء الا من ركبتهم جنية المقامرة وامتلكهم عشق الخيول. ربحت الجولة الاولى والثانية والثالثة. قعد لي الحظ على ركبتيه فرحت اربح طوال اسبوع كامل الى ان استرجعت البيت وزيادة. اقمت حفلا لم تشهد له دجلة من مثيل. عرق وخرفان ورز ومشويات وطبالون وزمارون وراقصات استأجرتهن من ملهى ليالي الصفا رقصن للمدعوين حتى طلوع الفجر.

مرة لمحته مارا من امام المحل، وقد شغل في تلك الفترة عاملا مصريا بأجور زهيدة. كنت واقفا بدل لطيف الذي مضى الى الباب الشرقي للقاء شخص وعده بشقة في حي المنصور. سألته عن الاحوال بصوت عال، فماكان منه الا ان انعطف نحوي وراح يقص علي ماجرى له البارحة: الصقلاوية ذات القوائم الطويلة والجيد المرفوع كالرمح والعينين الدعجاوين غلبت رفيقاتها وقطعت المسافة بفترة قياسية. لااراهن عليها لكنني احبها فهي عشيقتي. يمتلكها شيخ من عشائر الرمادي يسمى مطني العواد. ترك ارضه بوارا وجاء الى بغداد من اجلها. لو رأيت الجمهور لنالك العجب. الطحان والمهندس والطالب

والشرطي وشيخ العشيرة والفلاح والمحامي. لاتفرق بين لابس الشروال والافندي، الدشداشة والصاية. كان يوم محشر حقيقيا. كما اخبرتك، فالصقلاوية فاجأت المشاهدين، بينما كانت الحمدانية في المؤخرة، وهي فرس مشهود لها بالركض. لاحظت الجوكي يمسك لجامها ليحد من انطلاقها منذ بداية الشوط، وهذا يعني مؤامرة. ربما لاتعلم ان هناك عصابات ايضا بين مالكي الخيول ومنظمي السباقات. يقال ان الحكومة والمتنفذين فيها يتواطأون مع تلك العصابات. ولتفادي المشاكل يقال ان الحكومة تفكر بمنع السباقات... اي عالم لامألوف يفتحه امامي فتاح افندي، فكرت في تلك الساعة.

ماذا لو توجهت الى هناك يوما، كي اجرب حظي انا الآخر؟

لو ربحت الجائزة الاولى لغادرت البيت دون عودة. اول شئ افعله شراء بيت في حي المنصور. تحيطه حديقة مفروشة بالثيل الانكليزي وتزين الحديقةاشجار النبق. نبق كالذي اتذكره في قريتنا البعيدة قبل ان نرحل عنها. في الكراج المريض اوقف سيارة برازيلية من آخر طراز. ستكون محط انظار جميلات بغداد اجمع. افتح مقهى في شارع مهم كأن يكون الرشيد او المأمون او ابونؤاس. في صدر المقهى اضع تختا من الخشب، افرش عليه فروا غالي الثمن، ثم اجلس لتدخين النارجيلة. سيكون شغلي جمع النقود فقط، اما ماعدا ذلك من امور الموقد وعمل الشاي والقهوة والتنظيف فساتركه للعمال المصريين. الموقد من الرخام الايطالي الذي لاتنال منه النار، عليه خمسة قوريات شاي ملونة بالنقوش النباتية كالعنب والزهور. بجانب الموقد صحن السكر الابيض، وفي المنخفض دكة سيراميك بيضاء تصف عليها الاقداح بمختلف الزخارف والاحجام. على الجدران تتكئ السماورات الفضية والنحاسية ادق فيها المسامير كي لاتقع من اول هبة ريح او عاصفة رملية. وفوق كل شئ لابد ان تكون هناك مرآة مفصصة الاطار. الاطار من خشب، ولايهم ان

يكون صندلا او زانا، المهم ان يحافظ عليه العامل لامعا خاليا من براز الذباب.

احلام لم تتحقق مطلقا. بعد اسابيع من حديث فتاح افندي صدقت الشائعة ومنعوا مراهنات الخيول. كان وقع القرار على فتاح افندي مؤلما وثقيلا. حل عليه وعلى صحبه حلول وباء اسود.

- جاء القرار بعد رفع كثير من الشكاوي والمرائض الى الحكومة. قال لي عبد علي المحامي. لقد تسببت مراهنات الخيول في خراب كثير من العوائل. ادى انتشارها الى الفساد الاجتماعي ومايرافقه من الادمان والخيانات والغش نتيجة الشعور بالعجز والخسارة. قرار جيد من حكومة فاسدة هي الاخرى، لااحد يحبها.

رفعت كثير من رسائل التأييد الى الصحف. نصت على ان القرار نابع من مشاعر الشعب وعواطفه، ويتواءم مع المبادئ النقية والايمان الديني، وينم عن الاتجاهات الصوفية لدى بعض من متنفذي الحكومة، التي اردفت قرار منع المراهنات على الخيول بقرار غلق دور البغاء العلنية ايضا.

لكن هل طلق فتاح افندي وشلته احلام الثراء والمقامرة؟ كانت تلك التساؤلات تراودني حين اكون في البيت او مع المحامي في جلسة خمر، بل وفي جلولاء التي تبعدني مشاغلها عن محل الشاي ولطيف والملجأ وعمي.

وفتاح افندي منشرح مرة حزين اخرى. لم استطع ان استشف مايفكر فيه. يغيب يوما بكامله او يعود الى كوخ الشاي عند الغروب، طلق المحيا حينا معتكره حينا آخر. وبعد شهر من ذبحنا للجمل انا وملازم مأمون، وهروبي من الجيش وتسكعي في بغداد، سألت فتاح افندي ممازحا:

- اراك تغيب كثيرا هذه الايام، مع ان الحكومة اوقفت المراهنات

على الخيول؟

- وما في ذلك، قال، فلتوقفها. اصبحت اراهن على النمل.

- وهل يراهن عاقل على النمل يافتاح افندي؟

- وهل يوجدعاقل في هذا البلد؟منعت الحكومة مراهنات الخيول فماذا يصنع البشر؟المقامرة في دمي، مثل النفس، ثم ان المقامرة على النمل متعة مابعدها متعة. وكلها مخلوقات الله، الخيول والنمل. رغم ان المقارنة بعيدة جدا، فأين الخيول، تلك المخلوقات الجميلة ذوات العيون النسائية والشعر الاملس والقوائم الخيزرانية، من النمل القبيح المنظر الكريه الرائحة الدميم الخلقة والاطراف.

شلة فتاح افندي تتكون من عجام الفران وفتاح افندي وجسين صاحب معمل الخياطة في شارع المأمون ومالك الاقرع، السماك في علاوي الحلة الذي تفوح من ملابسه رائحة السمك، ووجهه يشبه سمكة بنيّ من اعالي الفرات. شلة لايغمض لها جفن اذا لم تراهن على شئ ما وتعبئ رأسها بالخمر.

كلهم في منتصف العمر. تعارفوا في ساحة الخيل قبل عدد لايحصى من السنين.

كانوا يلتقون بمقهى في ساحة الميدان. يشربون الشاي ويدخنون ويناقشون احتمالات الفوز. كان هذا قبل قرار المنع الذي وقع عليهم كالصاعقة. جعلهم ينظرون الى الحكومة بعين الشك والريبة.

دخل مالك الاقرع بعد اسبوع من قرار المنع الى المقهى وكانت نسمات الربيع تهب من الباب المفتوح وتحمل معها شيئا من الامل لم يدرك احد من الشلة مصدره الا بعد حديث مالك. حديثه اليهم بعد ارتشاف كأس الشاي واحراق نصف سيجارة بغداد دفعة واحدة. قال:انحدرت الى ضفاف دجلة بعد بيع السمك صباحا وتنظيف المحل. في جيبي قبضة من الدنانير تنتظر صرفها، على امرأة جميلة او شربة

مع صديق رائق المزاج يعدل من مزاجي الحامض. امواج دجلة تتراقص تحت الجسور وتلصف من بعيد قريبا من اقدام المارة المشغولين بهذه الدنيا الفانية. قادتني قدماي الى منطقة خالية من السكن مزروعة بالبطيخ والرقي وكانت افكاري مشغولة بهذا القانون الجائر الذي حرمنا متعة العمر. القانون الذي لايوافق عليه الا مخنث او رعديد، فسباقات الخيل فروسية ورجولة تعود تقاليدها الى اجدادنا الاوائل ومنهم هارون الرشيد والحجاج الظالم وابو النواس المنكت. في صفنة طويلة في الضفاف الساكنة شاهدت سربا من النمل يفور من تحت هرش بطيخ. ينسرب الى بقعة مسطحة نظيفة كأن كناسا من الاعظمية قضى يومه بالعمل فيها. كان النمل يمشي بانتظام مثل فصيل عسكري. خيط اسود يبحث عن طعامه المكون من حب النفل وبزر البطيخ وقشور الديدان الميتة قرب الشاطئ. فترة طويلة لبثت ارقب النمل. حولي دجلة ينساب رائقا لاتعكر امواهه ريح. البشر بعيدون والجو يبعث على التأمل والاحلام، وسط حقل من الشمام والباميا والسعد الذي لم يستدل عليه رعاة الماشية فجف او كاد. افكاري قلقة والنقود تتراقص في جيبي. عيناي لاتفارقان النمل وسباقه المحموم. لست متأكدا انه يبحث عن غذاء فقط، فالحياة لاتقتصر على البحث عن الغذاء. نمل يتسابق، وثمة من يبغي الفوز. تلك عجيبة اخرى من عجائب هذا الزمان. ثم حلت الفكرة الجهنمية في رأسي. لم لا نحول مراهناتنا الى النمل؟ ماالفرق بين الخيل والنمل، اليس الانسان هو الذي يضع الشروط؟

وعند هذه الفكرة رحت اتخيل اين نضع خط البداية واين نضع خط النهاية ثم وردت اسماؤكم في خاطري، انتم الثقاة والخلان. ليس لنا علاقة بالحكومة وقوانينها منذ اللحظة. انهم لم يذكروا النمل بقرار المنع، وهو ماشجعني على رسم مخطط للعبة.

في اصيل ربيعي غادرت البرودة جوه وسطعت شمسه وراحت فيه

الزنابير تطير من ضفة الى اخرى متنقلة من زهرة الى زهرة على امتداد الحدائق البغدادية المتناثرة حول دجلة انطلقنا الى هناك. امواه دجلة في طريقها الى الصفو. البشر يستحمون لازالة العرق والجنابة. رفوف من الحمام تشق الهواء فوق البيوت والمآذن والعمارات. في داخلي نشوة لاتوصف. سأبتعد عن دخان الباصات وضجيج الباعة واعين الشرطة. سأدخل نفق هذه الرحلة مع صفوة العامة فتاح افندي ومالك الاقرع وعجام الفران وحسين الخياط. لطيف كانت لديه خفارة ولم يستطع مغادرة المعسكر فظل المحل مغلقا. سأبتعد ايضا عن ملفات عبد علي المحامي وتكاياه وجوامعه الاثرية وقوانينه وشرائعه التي كان يستذكرها عن ظهر قلب من شريعة حمورابي التي يحتفظ بها مترجمة بخط انيق واضح حتى دساتير الثورة الفرنسية.

معنا عرق باريا ومازة من الزبيب والفستق والطرشي الكربلائي الذي جلبه الفران ودجاجتان مشويتان ولبن وفواكه في اول وصولها الى الاسواق. لم ينس حسين الخياط جلب الثلج ايضا، لفه في قطعة من الجنفاص كانت ترسم وراءنا اثرا من الماء، في اصيل مفتوح على السكر والمقامرة واللهو.

قال فتاح افندي:

ـ ان مانصرفه على التاكسيات والاكل في ساحة الملعب اكثر تكلفة من

هذا.

ثم تكلم حسين الخياط ايضا ساخرا:

ـ دعهم يضعوا قرار المنع في مؤخراتهم.

قهقه الجميع وسرنا محاذاة النهر نحو الشرق البعيد.

اذان العصر يلمع في سماء بغداد. نسمعه آتيا من اماكن متفرقة. تتجدل الاصوات الجليلة في الآذان ثم ترجع الفضاءات الخالية

والاجراف النهرية صداها لتشكل علينا قبة من التراتيل خارجة عن ايقاع حاضرنا. قباب جوامع ومآذن، تتلالا صفرتها خلل زرقة غامقة كأنها ذهب على طبق من لازورد. تخيلت مياه الشاذروانات تتناثر تلك الساعة في الرحبات الهادئة والظلال من بيوتات الحيدرخانة وخان لاوند والمربعة والدهانة والكولات وباب الاغا والسنك. في مدينة تكتم عنا الكثير ولا تبدي سوى الاليف والمطمئن للاعين والآذان والاحاسيس.

النقل وضعت والكؤوس صفت والخمور سكبت. فتت مالك الاقرع مكعب الثلج وأخذ يسكب العرق. قرب هرش بطيخ خط حسين الخياط خطين للسباق. خط البداية وخط النهاية. ثم امسك الجميع، عداي، بالاصباغ وعيدان القش وتهيئوا للسباق. كان النمل منهمكا بحياته الخاصة لايعرف ماالذي يجري.

جلست على حافة النهر غير مصدق ما اسمع وما أرى.

صاح الفران:الآن. أمتدت الايادي الى الاصباغ. تناولوا بالعيدان قطرات راحوا يعلمون بها النمل المطلوب:النملة المتلكئة خاسرة، والضالة خاسرة، والمنشغلة ببطنها خاسرة، وتلك التي تعود الى هرش البطيخ مرة ثانية خاسرة هي الاخرى. كانت اللعبة تعتمد على الحظ والحس النملي. الحس الذي لايخمنه احد من الشلة. بدوا في عيني مثل اطفال كبار يلهون. اطفال غير داركين لما يجري في البلد. لايدركون شيئا عن الملاجئ التي تبنى أو المدن السفلية تحت بغداد. لايهمهم مايجري، طالما كانت الجيوب معبأة بالدنانير والبطون ملأى والرؤوس عامرة بالخمرة. كنت اشرب واتأمل المدينة بأمتدادها العملاق في الاتجاهات.

كان فتاح افندي يخسر دائما. التهت نملته في الشوط الاول بعود من عيدان الشاطئ. التقت في الثاني بثمرة بطيخ جافة مسودة راحت

تتحسسها بلوامسها وتعض عليها بفكيها، وحين تركتها مالت عن السبيل الممهد الى نواة تمر جعلها حظ فتاح تتتأ هناك كما لو سقطت توا من نخلة غير مرئية. في الشوط الثالث انحدرت في فطر اسود غائر في الطين الحري. حسبتها لن تخرج ابدا، فلربما التهمتها عنكبوت متوارية عن الشمس او ام سليمان برية تزق اطفالها. الا انها ظهرت للعيان بعد ثوان وفي فمها عشبة خضراء. كان فتاح افندي اثناء خسائره يبصق على نملته دون كلل. يتكلم معها كما لو كانت تعقل مايقول. اتهمها بالعهر في مواخير الشاطئ وان والديها لم يشبعاها خبزا وتقوّد على صاحباتها في ساحة الامة. الزيد يتاثر من فمه ولم ينقطع عن عب العرق، اما عيناه فتمتلقان كراهية لجنس النمل اجمع.

كانت نملة عجام الفران هي الرابحة. زق في فمها قطرة عرق جعلها تستقبل المساء بمزاج منشرح مثلنا. واثناء عودتنا الى شارع النهر همس لي فتاح افندي بحزن قائلا:

ـ لقد خسرت ربح اسبوع كامل في كوخ الشاي.

- ٦ -

ظهيرة اليوم ساخنة. العرق يتحدر الى انحناءات الجسد. يسيل فوق الشفاه. نلحس قطراته المالحة ونسرع في عبور القنطرة العالية المنتصبة على ساقية تمتد بين النهر والرمال. ننحدر بعدها في الطريق فنسير بين دفتين، من عاقول وحلفاء. عيوننا نحو بيوت الطين، تتناثر تحت ظلال التين والنخيل يرتفع منها دخان ازرق في سماء زرقاء. لم نهارش الكلاب، وظلت لاطية في ظل حائط او تحت شجرة رمان والسنتها متدلية. كان الهروب جماعيا من القيظ، ولا احد يفكر بالتريث واللعب، في الفسحات المحصورة بين المدرسة الابتدائية ومركز القرية. انصرفنا من المدرسة ببطون خاوية، وشوق الابتعاد عن صرامة المعلمين، ورائحة الجدران العطنة. في قلبي هاجس وعصرة خفيفة لم استشف كنههما.

كان المستنقع الواسع جافا، تغوص فيه اقدامنا غوصها في صوف، وينتشر فيه التلاميذ مثل كلاب ضالة. نجتازه جماعات جماعات تبعا للقرابة والجيرة والصداقة.

لم نفز التوت ذا الثمار الحمر والبيض. لم تتازعنا انفسنا باصطياد اليمام في النخيل. التراب الذي تثيره اقدامنا يرتد بعد لحظات فيترسب

على الرؤوس مغطيا اياها بطحينه الابيض. ابصرت عمي حسان يقطع السعف كأنه يعده لوليمة. استغربت بقاءه يقظا حتى الساعة، هو المعتاد على نومة القيلولة، بعد الطعام. قبل ان اجتاز بيت ابراهيم وبستانه خرجت امونة متجهة الى التنور المثبت قرب الساقية. كان الدخان يتصاعد من فوهته الضيقة. ما ان لمحتني حتى قالت صائحة:

ـ وصل ابوك من الكويت قبل ساعة، عجل لتحصل على شئ من الحلاوة. شاهدت

السيارة التي اوصلته الى البيت قبل ساعتين. لاتتسوني حين توزعون الهدايا.

ـ سأخبر امي بذلك.

ركضت نحو البيت بفتة دون ان اضيف كلمة واحدة، كما لو كان تحتي بساط من الريح. فهاهو ابي اخيرا، ابي الذي كدت ان انسى شكله، بعد فراقه الطويل لنا وسفره الى الكويت. ظننت في احدى الليالي انه قد مات فيها ولا احد يريد ان يخبرني بالحقيقة. بكيت من الحزن وواستني امي قائلة انه سيعود حتما وسيجلب لنا الثياب والماكولات والنقود. سيفاجئنا حضوره في يوم غير متوقع. كنا ننام وقتها انا واخوتي الصغار وامي على تخت واسع من الخشب، وكانت تدور في ذهني افكار كثيرة عن رحلة ابي. اين تقع الكويت، وماذا تعني، ولم رحل اليها ؟ اسئلة ترد وتتوهج في الخيال ثم ترحل تباعا، والاجوبة عليها عصية تتكون كالغيوم ثم تتلاشى ثم تعود بعد ليال مرة اخرى. لابد ان يكون البلد قرية كبيرة على شاطئ بحر، والبحر مياه لايحدها البصر، وفي القرية رجال خشنون يسوقون ابي الى العمل بسياط من الجلد. يحتطب او يقطع الصخور او يحفر الآبار. اتخيل الكويت سفينة عملاقة مثل المرسومة في كتب المدرسة وأخبرنا المعلم انها تستطيع حمل مائة بقرة دفعة واحدة. ابي جالس يجدف فيها مسلوخ الجلد مع

غيره من البحارة السود. لكن رغم تلك الخيالات فأبي يعود دائما الى القرية جارا خلفه كيسا من النقود، يؤكد تلك الخاتمة ماسمعه من احاديث يتبادلها عمي وجدي، ومايتقوله رجال القرية ونساؤها حول الثراء الذي ينتظرنا. وكان مايغيظني من الموضوع تندرات النسوة على امي، وهن يعاكسنها قائلات:ان ابي تزوج امرأة كويتية اشاد لها بيتا على البحر، ولابد ان تكون حاملا الآن والا كيف يصبر الرجل ستة اشهر عن زوجته؟ ثم يرحن يتحدثن عن اطول فترة صرفها الرجال دون مضاجعة والوسائل التي استرددن بواسطتها الحظوة فعادوا الى مضاجعتهن مثل ثيران شبقة. امي لاتفعل شيئا سوى الابتسام. تفرش ابتسامتها المستسلمة على وجهها وتصمت. على ان الم امي كان مخفيا وسط طيات الروح بدراية. يستبطنه المرء ويستشفته عند خلواتها فقط. تجلس على الارض تتكشها بفصن ساعات فلا ترفع رأسها عن رسوماتها واشكالها وخطوطها الطلسمية الا حين تدعى بأسمها او يستفزها صوت. والاهم من ذلك علاقتها بعمي، حيث راحت تتحاشى الانفراد به وترشه بنثار من اللوم في المجالس النسائية فهو السبب وراء سفر ابي الى الكويت.

كان ابي يستعجل دخول عمي الجيش كي يبتعد عن التقولات والاشاعات والبسبسات التي تتطلق عقب كل عرس وختان ومناسبة، حول مغامرات عمي النسائية. فهو لايحترم جيرة اوقرابة او عمرا. تخترق نظراته العطشى للنساء كل حاجز او ستار. الشائع عن عمي ان عينيه تتطلعان الى خالتي، وكان بيتهم قريبا منا، ولكن جشعه لايكتفي بأمراة واحدة. تستثيره كل من لبست الالوان وطلت وجهها بالاصباغ وحكت شفتيها بالورس. يجترئ دون وجل على لمس اليد ومداعبة الارداف والغمز بالعين والحاجب والتفوه بالكلمات الملغزة التي لاتخفى اغراضها على النساء. وليس امام ابي الا ان يراقب ويسمع، ممتلئا

بالقلق والهواجس فعمله الذي يفرض عليه الغياب اياما طويلة عن البيت، لايوفر له مراقبة يومية لعمي. كان يسمع التقولات ويكتم، يرى الالسن تتناوشه من كل الاتجاهات، والفضائح يلتقيها في كل مجلس.

لم يعد ابي يحتمل وقرر ان يثير الامر مع عمي.

ـ اذا كنت بحاجة للنساء فدعني ازوجك اليوم قبل بكره، لم اعد احتمل الشائعات

حولك، والكل يتحدث عن حماقاتك.

كانت ليلة خميس وكنا جلوسا تحت شجرة يوكالبتوس ضخمة تهر علينا مطرا من البعوض. تلك اول مرة ارى ابي مرتعش الشفتين غاضبا على تلك الشاكلة. راح قلبي يدق بعنف خوفا. فوجئ عمي بلهجته القاسية هو الذي كان يظن ان وقاحاته مع النساء ليس له الوقع الضخم بين المعارف. رد على ابي بصوت صاف لا ارتجاف فيه ولا خوف:

ـ ماسمعته لايعدو ان يكون لغو قرية متبطرة لاتجد ماتعمله سوى الحكي.

ـ جد لك عملا تتلهى به عن تلك الحماقات لحين التحاقك بالجيش هل تسمعني؟

ـ اعرف مصلحتي اكثر منك، ولا اريد سماع الكلام الفارغ.

بغضب رد عمي وهو يحدق مباشرة الى عيني ابي. كان جدي ينتحي مكانا بعيدا عنا، مشربه في فمه ويداه لاتكفان عن طرد البعوض. كان يتنصت الى الحوار دون كلام، وكان يخشى عربدات ابي. وابي في الذروة من انفعاله، فهو لم يسمع عمي من قبل يخاطبه بهذه الوقاحة. التفت حواليه بنزق ورأى ابريق الفسيل اقرب جسم مادي اليه. تناوله فجأة وضرب به عمي على راسه. تفاداه بذراعه الايمن ثم ثنى عليه بضربة أخرى اصابته على ظهره. عند هذا الحد حفز جدي من مكانه ووقف حاجزا بينهما ثم جر ابي تحت شجرة اليوكالبتوس كائلا له

الشتائم. ظل عمي واقفا في مكانه مثل ثور متأهب للنطح.

- لولا كونك أخي الاكبر لعجنتك بالارض. تضربني لاجل نساء قرية عاهرات؟

لم يزد حرفا واحدا على قوله. انحنى على حذائه ولبسه ثم توجه الى السدة وغاب في الظلام. الظلام الذي يشبك الاشياء بنسيجه الخفي وتتعالى فيه اصوات الكلاب وعواء الثعالب اللابدة وسط الحقول.

اختفى شهرا كاملا. سمع برحيل ابي الى الكويت، فعاد لابسا خاتمه الاسود باصبعه البنصر. ترى هل يحمل ضغينة لابي في هذه الظهيرة؟

وجدت البيت غاصا بالضيوف.

خالي حزم ونساء القرية ومختارها المحب للولائم وجدي واخوتي. الاطفال يتقافزون في البيت وعند القدور ملوثي الافواه بالحلاوة والسكاكر التي جلبها ابي من الكويت. النساء فرحات لابسات اثوابا مزركشة كأنهن في عرس. الشيوخ يتلمظون بعد شربهم فناجين القهوة المرة التي تسيل احيانا على لحاهم السود وشواربهم المطلية بصبغ الاحذية. حمير مربوطة وخيول تعبث بأمراسها ودراجات هوائية مركونة على الحيطان. جاء الكل لرؤية المعجزة، رؤية الرجل الذي ظنوه ميتا ثم عاد فجأة لاحضان قريته.

شعرت بفرح عميق، ومتعة لامثيل لها، خاصة لتلك الاشياء الغريبة التي جلبها لنا، وقضيت اكثر من ساعة في التعرف عليها والتمييز بينها. اشياء قلما نراها في قريتنا المكتفية بذاتها:احذية تصر بوقع ممتع في الاذن. عنب اسود وتفاح له رائحة نفاذة. حلاوة طحينية وزبيب اصفر وجزر ممتلئ بالعصير الاحمر. لحوم راحت النسوة يشتغلن لاعدادها للضيوف مع الرز البسمتي ذي الرائحة العطرة التي ذكرت امونة انها

تصل لانفها رغم ان بيتها منفصل عن بيتنا بحقل ذرة وبستان نخل وثلاث سواق. الباذنجان قطع والموقد اعد وراحت السنة النيران تتصاعد الى السماء شهباء كلون شعر خالتي. وعلى عجل وضعت القدور على النار. اصبحت بؤرة للوجوه الجائعة المنتظرة بمصارين تقرقر من الجوع واللهفة والاثارة.

وزع الشاي على الحاضرين وتبادل المدخنون اكياس التبغ والسجائر المفلترة وعبوا طاسات عديدة من المياه المثلجة، ثم انصتوا الى قصة ابي وما رآه في الكويت طوال تلك الشهور الستة. الشهور التي شهدت كثيرا من المواليد الجدد والحكايات والاعراس والميتات في قرية تقطن ضفة النهر منذ مئات السنين. وظف براتب عال لاجادته التفاهم بالانجليزية. تعلمها اثناء عمله سائق حفارة في جسر طاووق القريب من كركوك، وقدرته الفائقة على تنفيذ ماتتطلبه الخرائط الهندسية دون ارتكاب اخطاء فادحة. كانوا يدعونه بالعراقي لكونه الوحيد بين السوريين والهنود والايرانيين. وصف لون الرمال والنساء والقيظ في ارض لاتنبت زرعا ولا تعرف نخيلا، والشوارع العريضة ومخطط البرج الذي سيكون منارة للسفن والطائرات وبامكان المرء ان يرى من قمته اهوار الحمار وصحراء النجف وثنايا الظهران ومصابيح المدن الايرانية، اما قصة تعرفه على الضابط هجيج فنالت استحسان الحضور اجمع. اصبح اشبه بالاخ له ووعده ان يقوم بزيارة القرية بأقرب صيف قادم. كان ابي يتكئ على مخدة من الريش، في فمه سيجارة كريفن وامامه قدح شاي. رشفة من هنا ومصة عميقة من هناك وعيناه تتنقلان بين الوجوه تستقرئ وقع مايسرده وما يبرع بوصفه وتفصيله.

بشر من جميع اقطار الارض، يقول. هنود وامريكيون وفلبينيون وانجليز، فلسطينيون وسودانيون وباكستانيون ومن ساحل العاج. الوان بشراتهم وهيئاتهم غريبة. سود موسومون بعلامات القبائل، شعورهم

مفلفلة وشفاههم ضخمة كخصى العجول. صفر ذوو شعور سبطة واسنان قصار ويفوح من ابدانهم الثوم ليل نهار. شقر زرق العيون يتعرون كما خلقتهم امهاتهم رجالا ونساء يتضاحكون ويتغامزون ويحكون بعضهم البعض لادين يردعهم ولا اخلاق. بيض بشعور سود وعيون لوزية يرطنون بلغات لا تفقه، قيل انهم اسبان ويونان وايطال، فسبحان الذي خلق الاجناس وفرقها. بهذا وغيره انقضى النهار بأمتع مايكون ونمنا نوما لم نعرف مثله قبلئذ. لم افق انا الا على تسبيحات ابي في صلاة الفجر. ثم دخلنا يوم الجمعة وابي مستمر في قصصه واحاديثه عن رحلته، وهكذا طوال اسبوع كامل. كل شئ يحدث يثير فيه شهية الكلام، وكل خاطرة تعبر رأسه تذكره بتلك الايام، حتى الروائح والطعوم والالوان، الى ان ظننا ان ابي غاب هذه الفترة لدراسة احوال الناس والمرح وازجاء الوقت لا للعمل وجمع النقود. يرى امرأة ملثمة في طريق الصفصاف جوار بيتنا فيمضي به الخيال الى هناك، الى نساء الخليج وكيف يغطين رؤوسهن ويخفين انوفهن فيبرزن مثل صقور في ليلة معتمة. يسمع كلمة من فم راع فيذكره ذلك بلفظ البدو او الايرانيين حين يتكلمون العربية بعد اختلاطهم مع اهلها عشرات السنين. يرى مسبحة بيد شخص فيمضي الى تعداد انواعها الشهيرة التي صادفها كالبايزهر واليسر وعين الهر والياقوت. أخبرته بشائعة زواجه بأمراة كويتية ففض بالضحك وقال، هؤلاء البدو من يستطيع رؤية نسائهم، انهن ملفوفات بالثياب طول النهار كأنهن سعالي النهر. ومن كثرة ما تكلم لنا عن الاسرار والمعلومات الغريبة التي عاشها والعجائب التي رآها، تركت انا الآخر واجباتي المدرسية وغصت بعالم ابي الخصب بما فيه من احلام وخيالات وعجائب. اتخيل السفن مدنا والبحر غاصا بمراكب الصيد ذوات الحبال وهي تتبختر في موج الخليج عرائس حيةببحارتها الغلاظ لابسي الاقراط. اتخيل امواجا يكللها زبد يخفي الاسماك والاشنات وصناديق

الذهب والكنوز. اتخيل قطعان الابل المحملة بالتمر والشنان والكافور والشاي والقمح، وقطعان الخيل تغير على مضارب البدو لنهب الجمال والنساء، المحار ابيض واسود ومخطط. غواصو اللؤلؤ، القراصنة، جمال هوادجها ذهب وافيال مطلية بالاصباغ مجلوبة من شواطئ افريقيا كان امير البلاد يهديها الى خاصته مع الدارسين والقرنفل والمسك، عدا البنادق والسيوف المطعمة والخناجر المكتوب على قبضاتها آيات قرآنية. كل ذلك كان نثارا من حكايات ابي وقصصه ومشاهدته التي سمع بها او حكاها له الاصدقاء من العمال الذين رافقوه اثناء بناء الميناء العظيم الذي حول الكويت الى دولة عصرية تمد خيوطها الى خلف الخليج وميحطه الازرق. الميناء الذي ما ان رآه ابي في التلفزيون، بعد عشرات السنين حتى تذكر الماضي وتفاصيله واشخاصه. عدا انه هذه المرة، كان مغطى بامواج النفط تسبح فيها نوارس خائفة وتكلكل عليها طبقات من الدخان الاسود حرائق الآبار وغيوم البارود المطعم بالاشعة اليورانيومية. لم يكن ابي يعرف بموتي، وظنني سأعود ما ان تتكشف غبرة الحرب، ويعود الجنود الى بيوتهم كما حصل ذلك في الحروب الاخرى. لم يدرك انه كان واهما وان ثمة امرا قد حصل الا بعد رؤيته لحلمه العجيب، هو المؤمن بالاحلام ودلالاتها.

كان يسبح في المكان نفسه، الذي حفرته كيلته ذات يوم.

الميناء مهجور والعمال رحلوا وهو وحده يسبح في ذلك الخضم الاسود اللزج. النفط يمسك برجليه، يدخل خياشيمه، ويمنعه من التنفس. كانت الحركة عسيرة فكيف يسبح امرئ بمستنقع من النفط؟ راح جسده يغطس رويدا رويدا، الى الاسفل دائما محكوما بقوة اشد من ارادته. يغطس نحو القاع والقاع مقبرة من اشلاء الجنود والشعاب المرجانية والمحار المطبق على الدر وبقايا غواطس السفن والاحراش البحرية التي تتخفى فيها الاخطبوطات والقروش المرعبة التي كان

يخشاها اشد الخشية. فوقه، في السماء الحمراء تتدلى حبال قنب وامراس حديد وهياكل تتراقص، لها شكل طائرات شاذة التكوين. انفجارات وصرخات اعقبتها هدأة عجيبة انجلت بعدها السماء لتصفو وتشف عن روحانية عميقة. سمع صوتا يرد اليه من جميع الجهات، من سواحل الرمل وشوارع المدن واشرعة المراكب وفوهات المدافع، باايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية. فز من نومه وقال لامي بصوت مرتعش:لقد فجعنا فتجملي بالصبر واتكلي على الله، فالموت حق والحياة باطلة.

- ٧ -

طائرات تتوالى موجة اثر موجة. كنت في شاحنة ضخمة لتحميل العتاد تتجه بنا الى ساحة تموز حين بدأ القصف. كان ذلك قبل يوم من موتي و ذكرني القصف بذلك الاصيل الذي كنت راكبا فيه مع الملازم مأمون عائدين من جلولاء. لم يكن رعبا، ذلك الذي استولى علينا جميعا، البشر والسيارات والاطفال والنساء والبقر وفئران المجاري والمسنين الذين لم يروا ليلة بهذا السوء منذ وعوا على الدنيا. لم يكن رعبا ما تسربلت به النخيل والسواقي والابواب والاسلاك الكهربائية واسفلت الشوارع وعيون الدجاج في حقول الدواجن. شلل له سمة الدهشة، والانبهار الطاغي من رؤية الوهج الاحمر اينما ينظر المرء، في ليل العاصمة المترقب السهران.

الطائرات في الهواء مثل حباحب. اطيار نارية قادمة من مجرة اخرى مقابلة للارض. انفجار فجائي في الافق خلف برج الزوراء. بطاريات تفتح نيرانها من اماكن غير مألوفة:من اسطح الجوامع ومآذنها، من تيجان النخيل المطل على دجلة، من خلف اكياس الرمل المقامة في الساحات والتقاطعات وعلى تلال القمامة، من رقاب الجسور وتخوم بغداد وغيطانها ومزارعها. تشكل في السماء حاجز نيران ابيض وهاجا.

اضواء ذات الوان عجيبة تنتمي الى حاضر التكنولوجيا غير المعروفة قبل:اشعاعات نيوترونية لتوجيه القذائف، امواج مغناطيسية لاكتشاف الهدف، اشعة نووية خفيفة لتعطيل الرادارات واعماء شاشات المراقبة وشريكة المكالمات التلفونية، مواد كيمياوية تشظي الحديد عند الانفجار وتهد الكونكريت كي يدمر لاحقا بقذائف خاصة اخرى، امواج حرارية لحرق الاسفلت والكبريت والقضبان المستخدمة في المطارات والاهراء والمخازن الغاصة بالصواريخ والعتاد والقنابل. واحدة من تلك الانفجارات العارمة وجدت نفسي مقذوفا جنب جدار لبيت عتيق. وجدتني امام برج هائل يشرف على سهول ومدن وغيطان. يتألف البرج من اعمدة صخر طوابق طوابق، تتناقص كلما اندفع البرج الى فوق، وهو ينتهي بسقف يظلل مصلى لاديان لم يعد لها وجود في زماننا. اضحيتها بشر وعطورها بخور وثمة رجل واحد يقف في القمة حاملا بلطة سميكة حادة لاصفة. رجل مرعب يقف وسط جثث ضحايا ودماء واشلاء، تتداخل فيمابينها. الرجل دائب على جز الرؤوس وتقطيع الاطراف كان يلقيها ببرود الى الاسفل، لتتساقط مثل مطر ربيعي تحت قدمي.

احدق في البرج واعجب. الفخامة قاتلة والروائح مخدرة والجبروت هائل. الناس يتوالون في صعودهم، يتقاطرون الى القمة كأنهم نمل خارج من جذر متفسخ. يصعدون كي يواجهوا مصيرهم المحتوم. وحول البرج اسواق بضاعتها غريبة كالصندل والمصطكي والدارصيني والورد الاحمر والزعفران والسكر التبرزل والفلفل الابيض والزنجبيل والقرفة والعسل المنزوع الرغوة والأنسون وشحم الحنظل ولحوم البط والدجاج والسمان والسلاحف. موضوعة في جرار واطباق وطسوت وقدور وخزف، يتشممها ويتذوقها ويقلبها رجال يرتدون اعمة وطيلسانات وخوذا. في السوق ايضا عبيد وتجار ملتحون يتبادلون الاخشاب والاردية وكانت الضجة طاغية تحجب ترددات امواج النهر، التي تأتي وتذهب،

تبعا لهبوب الريح القادمة من صحراء العرب ورمال البدو ومراحات الغنم والابل، وراء العمران والخضرة.

تنهال الرؤوس علي فاعمد لجمعها اكواما، وأحشوها دون تنسيق في خروج ضخمة نسيجها من صوف ملون، منقوش. الخروج تتلوث بالدم. تتبقع النقوش باللون الرماني فلا اعود اميز رسمة ماير من فرس، اوراق قت من فراشات. كلما القي رأسا في خرج ما أقف ، تأملا دهشا، من اصرار الرجل على جز الرؤوس. ماله لايكف عن الذبح؟ماله يعشق اطاحة الرؤوس؟ماله يقطن برجه متوحدا غاضبا سادرا في طقوسه دون كلل او ملل؟

طغاة يتناسلون مثل الفطر. في ابراجهم غامضون. ايديهم ملوثة بالدم دائما. ضحايا يتناسلون ابا عن جد. يسيرون الى قمة البرج راسفين بالاغلال والسلاسل. عليهم شرطة شداد غلاظ، يمسكون سياطهم بلذة، لذة السلطة والرهبة والتفرد. كانوا يشكلون حولهم سدا، لايحيدون يمينا ولا شمالا. الى اليمين هاوية فاغرة والى الشمال سياط جائعة. وعيناي لاتفارقان المعارج وطاقاتها واعمدتها. تترصدانا الابواب التي يتسلل منها رهبان وشامانيون ومتنبئون ومنجمون، يرصدون من ذلك العلو الشاهق احوال النجوم وحركة الابراج ودلالات الفلك وحركات المجرات وتساقط الشهب. لاينامون، يتقرون المصائر فيما حولهم من امصار:افق سومر وبابل وآشور والانبار وشهربان والاسكندرية وقلعة كركوك ومفازات جلولاء وتلال حمرين. خاصة لاهية وحشد يغذ الخطى نحو المذبح وبلطة تجز الاعناق.

كان الخدر واضحا في الوجوه. لتلك الاعمدة وظلالها، ولدور العبادة بمذابحها ورازوناتها وبخورها، للاسواق المكتظة بالبضاعة والتجار والعبيد، لكل تلك الابهة، سحر على الناس يشيع الغفلة في الرؤوس والقلوب. لابد انهم يتخيلون ارواحهم قادمة الى الجنة، التي

يقود اليها طريق البرج الملتوي كظهر حلزون. البرج يبدو لعيني غائصا في الفضاء وغبار السماء المتصاعد دوارات دوارات من الارض.

الخروج تتراكم، والرؤس تترى. لم يعد من محل. لم اعد اطيق صبرا على ماأرى. لامغيث لي ولاسمير اصارحه بمخاوفي ورعبي. الهاجرة تنث سمومها ووجهي مترب وعيناي كليلتان. البشر يدورون في الساحات والازقة، بين الاسواق واكداس البضاعة لاهين عني بتجارتهم وطقوسهم وغاياتهم. عيونهم في الارض وقلوبهم ترجف بنوازع الفضة والذهب والمسك والمرجان والياقوت والنساء والعبيد. وفي لحظة تجل خاطفة خيل لي انني ارى ماوراء الجدران، واعرف مايتوارى خلف الحجب. ذلك المارد هو الموت بعينه وتلك الصخور ماهي الا جماجم، اخفى حقيقتها سحر الموت. السحر الذي بلبل الاذهان فماعادت تفرق بين الرخام والجماجم. انكشف السر فوجدته مرعبا. راحت رجلاي تصطكان. لساني ينعقد عن الصراخ و طلب النجدة، وأذا الافق اضواء براقة ودمدمة وظلمة مفضضة تفترش الامكنة حولي.

نيران المدافع ترتفع الى السماء. الانفجارات العلوية تشكل مجرات جديدة صغيرة الحجم، قريبا من اعمدة الكهرباء ورؤوس البشر، الذين خرجوا من بيوتهم خوف انهدامها عليهم. كانت تتقافز فيها ملايين النجيمات لحظية الانطفاء. تخلف في العيون اطيافا عجيبة لاتزول. تسجلها تلافيف المخ، تحفظها طبلة الاذن، تسم البصمات والمسامات بميسمها لتعبر جسر الفناء الى سهب الخلود. المشهد امامي كان يتكرر دون شك في اغلب المدن التي عشت فيها ورأيتها. في الفلوجة وسوق الشيوخ والعمارة والكيارة والبصرة القديمة وبعقوبة الجديدة وساحة ام البروم التي زودت بصحن كهربائي لتقوية البث نحو الكويت وسواحل ايران وصيادي السمك المذعورين من الاساطيل الرمادية وهي تجوب البحر.

لا ادري من اين اتت الشعلة التي احرقت ناقلتنا، امن صاروخ موجه

نحو بناية قريبة ام من شظية قنبلة قنبلت شارعا لاعاقة المرور؟ارتفع اللهب في الفضاء واضاء الشارع والساحة. كانت ظلالي تتراقص على جدار البيت وقد بان فيه شق ضخم خلته لن يصمد له حتى الصباح.

وكعادتها جاءت صفارات الانذار متأخرة. كان دويها المتواصل ينبه الناس، في التفاتة يائسة لم تجد نفعا. عدا انها لم تعد تعني شيئا، فالكم الهائل للقذائف الخطاطة المتعاقبة في مفازة الليل اكبر دليل على بداية فصل كبير لم يكن مفاجئا لنا. وانا الذي منيت نفسي بليلة عاجة بالخمرة والثرثرة مع المحامي انتهيت لاجدني لاطيا الى جدار مشقوق، قرب ساحة تموز. كل رصاصة كانت موجهة الى قلبي، وكل ضوء في السماء احسه خارجا من اعماقي المغلقة على ظلمات. لابد ان يكون عبد علي المحامي في مقهى من مقاهي الرشيد، فكرت انني سأجده حتما مع صحفه واوراقه ورفاقاته العتيقة. سأدعوه انا هذه المرة الى مشرب او حانة لو اتيحت لي الفرصة لترك الشاحنة مع سائقها. لقد قضي الامر الآن. هاهي الشاحنة محترقةوهاهي القنابل تتساقط على رؤوسنا مثل برد.

انفجار هائل يدمر مركز الاتصالات السلكية واللاسلكية. آخر يصيب وزارة الدفاع. انفجار غير منتظم قد يكون ناتجا عن قنبلة حارقة يشعل النار في مصافي الدورة. لهبه المتصاعد يقذف الليل بدوامات مشتعلة من الكرات المتباينة الالوان، ترقص مباني بغداد وشوارعها على ضيائه رقصة الموت والخراب. منشآت ابي غريب تصير عرضة للصواريخ العنقودية لتتوالى بعدها الانفجارات الرعدية المصمة للآذان، والمدينة تتحول شيئا فشيئا الى فرن نحن فيه ارغفة في طريقها الى النضوج.

كان الشارع فارغا، وجماعتي تواروا او اختفوا، وباغتتني رائحة لاذعة اشمها اول مرة في حياتي. في الافق غيمة من دخان ابيض مصدرها على الاغلب عمارة او بناية بعيدة قصفت الليلة، كان منظرها

العملاق يتوضح للعين المجردة اثناء التوهجات الشديدة. لم اشعر بروحي وحيدا كهذه اللحظة. وحيدا يائسا مدحورا. عاجزا عن التفكير او الفعل، وكأن جسدي ساقط في جب من اللاجدوى. وددت لو امتلك جناحين اطير بهما الى السماء لانظر كل ذلك الخراب، اسامر المتوحدين مثلي وامسح عبرات المروعين. وددت لو ان لي جناحين اطير بهما خارج هذه الارض، الى فضاءات ومجرات اكثر سكينة وامانا. المواطنون يسيرون في الشوارع بعيون مرعوبة والدخان يصبغ سماء الشتاء بلون رصاصي. ولم يكن الجو المحيط طبيعيا، فالمحلات التجارية مغلقة عدا بعض اكشاك السجائر.

وراء الدخان والبارود والحرائق تنهض غيوم من الغرب تمشي تائهة في السماء لتشكل اطار مشهد كئيب قلما رؤي قبل:اوراق تتطاير امام المقاهي الفارغة ولافتات تخفق مع نسيمات الريح بعضها مقلوبة على وجهها او ملتوية يصعب قراءة محتوياتها وعيون مارة تحدق في الفراغ بلا امل. تنظر الى الطائرات والغبار والغيوم الكالحة المبشرة بالموت. يلمس فيها عواطف متناقضة عما يجري. عواطف خليطةمن الانكسار والهزيمة، الفرح والتشفي، التوقع والاستسلام. اما تيجان النخيل في الفسحات وعند الحدائق فتسبح في هالات من الغبار المتساقط من الافق.

مسائل دجلة تسافر غير عابئة بالاحداث حولها. لامواهها طعم الجبال الجبسية والكهوف واشجار البلوط. سمك في النهر ورماد على واجهات البيوت. على حين غرة وقع انفجاران هائلان وسط المدينة. اهتزت البيوت واعمدة الكهرباء وتحطم الزجاج في الشبابيك والدكاكين. انقصفت نخلة في الصالحية، وبعثت الضوضاء الخوف في حمامات البر وبنات عرس اللاطيات تحت حلفاية قرب ميدان النمل وتفجرت ماسورة مياه تحت شارع الرشيد. في البعد خيول مغيرة وقع ارجلها يهزم كالرعد. آلاف الخيول قادمة من الغرب، تركض في برية صلدة يشبه

قصفهم وضجيج طائراتهم المختلط بالمقاومات الارضية والصواريخ والرشاشات وقاذفات الار بي جي. كل ذلك جعلنا وكاننا ندور في حلقة مفرغة من تاريخ هذه المدينة. التاريخ الذي يكرر نفسه على مرأى من مياه دجلة ومآذن الجوامع والمعمرين واطواق بيوت الحيدرخانة. . .

طغى الضياء البرتقالي على الاراضي البور وبساتين التفاح والقرى منذ ان مالت الشمس عن السمت فصارت تعشي العيون. كان الباص يتجه بنا نحو بغداد، بعد ان خلفنا جلولاء وراءنا باشجارها الدفلية وجسرها الكونكريتي ومعسكرها، وناقلات الدبابات المتجهة الى جبال حمرين. الحرارة في الباص خانقة. العرق يبللنا. مأمون يجلس الى جانبي تضئ كتفيه نجمتان ذهبيتان كان بعض الجنود معنا ينظرون لهما بوجل واحترام. وهو لايكف عن سرد لقائه بتلك الفتاة الجميلة التي صادفها في الباص ويود الزواج منها. راح يحدثني ايضا عن الحيدرخانة التي نشأ فيها طفلا ولعب في ازقتها المعبأة بالقمامة والذباب. وبسبب سير الباص الرتيب وصوت مأمون المخدر، شعرت بجفني يثقلان وقادتني مسالك النوم عنوة اليها. رايت مدنا ملفعة بالنور وسبحت في بحار دافئة واصطدت سمكا على انهار لاتشبه انهارنا، برفقة مالك الاقرع ولطيف وفتاح افندي وحسين الخياط. كانت وجوههم شقرا ولهم قرون تنتأ من الجانبين. سألتهم اين انا، فقالوا انك في متاهات الشمال وغرائب الجبال. سيقودك نفق الى الخلاص من نفق المدينة ومقاهيها وخيولها ونملها. لايرافقك منا احد فأدخل الارض بسلام ولا تلتفت وراءك. وكانت عتمة وكانت ظلال مستطيلة وبشر خارجون للنزهة تكتظ بهم الشوارع. الطيور تحلق في سماء صافية. قال لي لطيف اكثر من مرة جد لك واسطة لنقلك الى بغداد وعش معنا وتخلص من عناء الذهاب والاياب والتشرد فقلت له انني مرتاح هنا في جلولاء فمأمون صديقي والاجازات متوفرة وأنا احب الاماكن المحيطة

بجلولاء. بيوت شعر وفلاحون ونساء يقفن صيفا لبيع اكياس الرمان وصناديق اليوسف افندي على طول شارع بعقوبة وتلك متعة لاتوصف. سأنهي خدمتي هنا، قلت له، وهي فرصة للاطلاع على معالم الوطن قبل الزواج والاطفال والانصراف الى هموم المعيشة.

راح مأمون يتململ ثم فتح عينيه ومسح العرق من وجهه بمنديل قهوائي كان يعطره على الدوام بماء الكولونيا. لم نلحظ مايريب. الشارع يتوغل في احشاء بغداد. السيارات تسير الهوينى والمارة قليلون والحرارة تنيخ على اليوكالبتوس والاقحوان وسط جزرات الشارع الفسيح. كل شئ يوحي بالاعتيادية عدا الاكتظاظ، الذي راح يزداد، وعويل سيارات الدفاع المدني وهي تنفذ في الزحام متجهة لجهة غير معلومة. فجأة بدأ المارة يتراكضون. وأصوات تشبه المفرقعات أخذت تنفل في الآذان. عرس هو من اعراس المدينة ام حفلة لغجرها؟احتفال بعيد وطني ام انقلاب؟دب التساؤل بيننا. الباص من نوع كوستر ياباني لازال يسير بنا في هذا المساء المشبوح على العمارات المضاءة بالنيونات الملونة، وذرى النخيل واهلة المنائر. المساء الذي كان فاتحة للحروب والموت والتشرد. مساء بغداد المحتفلة بنفض ردائها المنسوج من سنوات طويلة من السكون والانتظار والتوقعات. سيارات تصطف على الجانبين، مظاهر مسلحة تتزايد في الساحات الكبيرة والقواطع السكنية، مدافع مضادة للطائرات، لف كل ذلك عتمة هبطت بغتة على المدينة. وفي غمرة تلك العتمة بدأ الرصاص يضئ السماء، وبدأنا نحن بالبحث عن ملاذ، خاصة وان صوت طائرات لانراها كان يجلجل فوق البيوت والاشجار والسيارات. كنا نسمع قصفا، ونرى شعلات هابطة من فوق الينا، الى ارضنا التي تحولت الى بحر صلد لاستقبال مذنبات العالم الآخر. العالم الجديد علينا، تماما، فمنذ ان فتحت عيني على ضفاف نهرنا واكتحلت بالصباحات وحتى لحظة العتمة هذه، لحظة

اشتعال الآفاق وتبعثر البشر وراء السيارات وخلف الارصفة وعند الانابيب الفليظة المتروكة جنب الشارع، لم اسمع قصفا ولم اشاهد انفجارا. من الآن وصاعدا علي ان اكون سجلا لتدوين تفاصيل هذا المساء الفريد، اول مساء من مساءات الحرب. القصف، فوضى الاشخاص من افراد الشرطة والجيش الشعبي والمخابرات والناس العاديين، دمدمة الطلقات الثخينة المنكتمة في رحم الليل، كل ذلك كان موجها الي، الى احاسيسي وذاكرتي.

خبأت راسي وراء الرصيف. حرارة الاسفلت تسري الى جسدي. العرق يرشح من مساماتي. الموت يشع لي في الظلام. الرصيف اطلب منه الحماية بحذر الكائن المنتظر للموت. كنت اود لو ادفع برأسي بضع انجات الى موطئ اسفل من الرصيف تفاديا للصواريخ المتساقطة. الشظايا كما اخبرني عمي الذي اشترك في حرب٦٧ تتناثر بقوس واسع، وعلى المرء ان يحتفظ برأسه. والقصف يتواصل وبغداد ترتدي حلة نارية لم ترتد مثلها منذ ان وجدت مدورة قبل عشرات القرون.

المنظر كما رأيته حين رفعت رأسي لايصدق:شجرة من نار، اغصانها تتصادم فيما بينها لتلد غصينات أخر، تتلامس اوراقها لتتوهج بالياقوت والدر والقهوة، كله من لهب ومدرجات ضوئية. عبر ثانية من الزمن لاحت في الاعالي شعلة نارية، نجمة هائلة، برتقالة عملاقة، تسير بسرعة خاطفة كما لو كانت قادمة من مجرة أخرى. تتقط على النهر والنخيل والمآذن، تسري بميل وتجر وراءها ذيلا، خلتها ستهوي على هدف قربي، حتى انني احنيت رأسي وواريته تحت الرصيف. جاء الانفجار بعيدا، ولم تلبث شعلة اخرى شبيهة ان تتطلق لكن من الارض هذه المرة، لها الاطياف نفسها والالوان نفسها والعنف نفسه، كانت تلاحق طائرة في السماء لانراها، لكنها هناك، في جهة ما من الارض، تحت نجمة ما من نجوم السماء.

-٨-

كم فـردا من اولئك البـشـر الذين شـهـدوا المـسـاء، لاول حـرب عـشناها، ظل على قـيـد الحـيـاة؟هل ثمـة احـد منهم يطيـر الآن جـواري؟وكيف عـاشوا تلك الحقبة المحصورة بين سقوط اول شعلة مضيئةعلى بغداد والانفجار الرهيب الذي نقلنا الى الفضاء مثل كتيبة من الجراد؟اود ان اسأل بملء فمي ؟ان اهمس وان اصرخ. اتطلع حولي بلهفة. اقترب وابتعد. الكل منشغل عني، لاه بما يراه حوله. ثمة شئ في الافق، عجيب يجذب الابصار ويستولي على الذكريات. انها غيوم من السحر، من الظلال، لانعرف من اين تجئ، ولم تتخذ هيئات عجيبة كتلك. غيوم تتلون باللون الدخاني تارة والقيري تارة اخرى. هل هي سحابات اشباح لوجودنا ام غطاء مهلهل للارض تحتنا؟كانت ترتدي برانس وأهابات لمخلوقات ارضية رأيناها ذات يوم في حديقة حيوانات، في سهب بلقع، في فلم، في هور، في جبل، في مخبأ، دون ان نحلم بلقائها ذات يوم على هذا الشكل:فيل يرفع في الهواء خرطوما، والخرطوم زرافة ذات قرنين يهيمان كاللوامس. عقاب له مخلبان، كل مخلب يمسك ارنبا، والارنبان يرفسان في الهواء. انتبهت الى رفيق قربي كان يلكزني في جنبي لافتا بصري الى تلك المخلوقات العجيبة.

- الم نر هذه المخلوقات قبل دخولنا النفق؟

- اي نفق؟

- الا تذكر؟النفق الذي غادرنا عبره اجسادنا الارضية؟

- اجل اذكر، ووجدنا انفسنا في تلك القرية الجبلية الغاصة بالبغال.

- تلك كانت البداية، بداية الرحلة الى النور.

قبل ان تأخذني الافكار الى بحارها الشاسعة، وحكاياتها المصاغة من احلام وكوابيس وتجارب مريرة وحروب، عاجلني الرفيق مفسرا شارحا مثل معلم فذ:

- انها الآن مخلوقات مثلنا، ارواح دخانية تائهة في الفضاء وتحت شمس لاتغيب. انها تهم بالرجوع الى كينونتها القديمة.

نظرت ثانية الى حيث يشير، الى الطرف الغربي من مسطح الافق، فاذا بي اشاهد بيتا منيفا أشبه بالقصر. يتكون من قباب وسقوف قرميدية ومزاغل ونوافذ، ويحيط بالقصر سياج من الدفلى اوراقها تشبه الزهور، متناسقة عريضة الانتشار. والقصر بكل غرفه وقبابه ومزاغله واشجاره سابح في الهواء، لاشئ وراءه ولاشئ قدامه، لاشئ تحته ولا شئ فوقه، كانه معلق بخيوط وهم ومطوق بأصابع لاترى. لم يلبث الا هنيهة في كينونته القديمة حتى تراخت غرفه فتداخلت، ثم سالت قبابه لتعانق القرميد ويتحول الكل الى خلطة من الدخان. تحسرت على تلك الصورة اللطيفة وقد ذكرتني فخامتها بفخامة الملجأ ومنظره العجيب قبل ان يهال عليه التراب ويصبح حدبة ضخمة، لاتبين منها الا فتحات التهوية. شجرة تين تبرز بغتة في بقعة اخرى، ليست بعيدة. تمد اذرعها ذات اليمين وذات الشمال فشبهتها باصابع عجوز تواجدت على موتها فما بان. اغصانها تتطاول الى الاعلى، الاوراق تهتز وتتأرجح على ايقاع موسيقى لاتسمع، في الجهات تتداح وفي الامداء تمتد. لايطال

امتداداتها بصر. جذورها تنغل في الاسفل، تتشعب، تتشرشح، شعيراتها تتدلى، فأفكر انها قد وصلت الارض دون ريب. وصلت ارضا تسمى سامراء او البصرة او علي الغربي او بدرة او الشامية، باحثة عن رطوبة تبل ظمأها وعن دقيق تراب ينفذ الى انساغها، كي تتخلص من وجودها الصوري المرتسم في اذهاننا. لتثمر تينا يوزع حلاوته على الابناء.

جبال عالية ومنحدرات، انهار وشلالات واشجار، كان منظر واحدة منها شبيها بشجرة العرعر. بغال عملاقة تتماوج بين الجبال. وبيوت تتراكب فوق بعضها البعض، كأنها زقورات اعيد بناءها ثانية. تلك رحلتي، تعيد تشكيل نفسها ايضا. هل قمت بتلك الرحلة حقيقة ام كانت وهما من الاوهام؟ وهما خلقته لي النيران والانفجارات وغيبوبة روحي في تحليقها بين الغيوم. الجبال دخان اسود والسهول السنة من بخار والبغال خطوط برق لايستغرق تلاشيها سوى ثوان. اين توارى وادي الموت اذن؟ اين الدليل والمضيف والمرأة الجميلة؟مالي لا المح طيف البغل المنتحر؟هل عشت كل ذلك في حياة سابقة دون ان اعلم، ام ان رحلتي كابوس هي الاخرى بين كوابيسي المتواصلة؟

اسد ذيله سنور وبوزه فارة وبطنه خروف نائم. حصان له زعانف. فيل يتألف من اسماك. اسد قوائمه قوائم ثور. اسد بابل، اسد آشورذيله ذيل نسر واسنانه محار مجلوب من الخليج. المرجان يتلوى والاسفنج ينخز بعضه بعضا والاسماك تتقافز والرمل يسف كأنه افكار غالية. كل ذلك في البعيد، بعيدا عنا نحن الطائرين بلا جناح الرائين بلا اعين السامعين بلا آذان. يحف بعضنا ببعض مثل جيوش مهزومة لا عمل لنا سوى الحكايات، تدور فينا وندور فيها كالرمل في سفوفه.

هواء من بخار، ذرات بارود، لا زالت عالقة في الفضاء رغم انتهاء المعارك التي دارت ذات يوم في القرنة والاهوار والصحاري وحافات الحقول والجبال. وما أجلي سوى دليل على الهدأة والسكون، بعد

الانفجار العظيم. وهاهي الحياة تعود الى سابق عهدها، تحتنا مباشرة. ها هي تعود لكن دوننا. هناك النهر يجري لمايزل جريانا طليقا يحمل غرينه من الجبال البعيدة. امواجه زختها غيوم تلاشت قبل ايام او اشهر او سنين. من قونية وطوروس، ديار بكر وزاغروس، من قلعة دزه وعين زالة، بطمة وعقرة وباباكركر ومخمور ورانية وراوندوز والزاب الكبير الهارب من بقايا عظام الحيوانات التي استوطنت هناك قبل وصولنا نحن البشر، بحرابنا وسكاكيننا ورماحنا ومقاليعنا ودبابيسنا وخناجرنا واقواسنا ومقاويرنا وصخرياتنا وشومياتنا، التي كانت مقدمة ذكية للحرب التي مت فيها قبل حين. لازال النهر هناك تحتنا يوزع هباته على الابناء من الواح فجل والواح بصل وخس وقت وبرسيم ورشاد حريف الطعم. لازال النخيل يمتص ماءه من ارض السبخ والملح ويمد جذوره تحت البناء العتيق والجوامع والخانات والحمامات وقلاع الحكومة ومستودعات الذخيرة وشاحنتنا التي احترقت وتكايا الدراويش المترددة في ارجائها النداءات والمواجد والاستغاثات. كل شئ على حاله، عدا انني لم اسلم من هذه الحرب كما سلمت في الحروب السابقة.

فبعد سنوات من الحرب انزلني الزيل العسكري، عند رقبة جسر القرنة. اتجه بعدها الى المدينة حاملا قدوره العملاقة، قدور القصعة الفارغة، ولوح لي جاسم، موزع الطعام، بيده الحاملة للسيجارة. كان الدخان ينتشر خلف الزيل مثل خيط من الصوف. تحتي شط العرب بمياهه الداكنة واسماكه وكواسجه. النخيل في القرى النائية ذكّرني بتلك الايام التي قضيناها انا وعمي في العمل هناك. ايام واحداث اوحى لي منظر شط العرب ونخيل القرى المحاذية كما لو عشتها البارحة.

الشارع سيل لاينقطع من السيارات والحافلات والشاحنات العملاقة. سيارات بونتياك انيقة يقودها افندية لاينظرون لي، بيجوات فرنسية لموظفين واطباء ومهندسين. سيارات مرسيدس يمتطيها

عسكريون راجعون من الجبهة. أما سيارات الركاب فتأتي مكتظة بالركاب عادة فأوشكت ان ايأس في الحصول على مقعد فيها. كم تغيرت الشوارع والمدن والبشر، وكم غيرت الحرب من احلام ومشاريع وحيوات!!

لقد درت مع عجلة الحرب في كل اقطار الوطن بعد نقلي من جلولاء. رأيت الجبل والسهل والبحر. أنتقلت من مدينة الى صحراء. من مستنقع الى حقل، تبعا لهبوب الريح وشدة القيظ وزخم التجمعات البشرية المتأهبة للعراك. وضعوني ذات مرة في الخطوط الامامية دون سلاح. لم افهم السر حتى اوحى لي به صديق يعمل في قلم السرية. قال لي انهم يودون الخلاص منك لانك تمقت الحرب. لم يساورني الخوف أو الحزن، فسوف لن ارتكب جريمة قتل على الاقل. انه عزاء كنت اقنع به نفسي كلما ساورتها الشكوك والمخاوف. لاقى موقفي ذاك استحسان عبد علي المحامي، فأعتبرني قديسا وصاحب مبدأ، في الزمن الذي عزت فيه القداسة والمبادئ. درت مع العجلة المملاقة مسلوب الارادة، فاقد القدرة على التفكير الواضح الذي يمكن ان يجد لي مخرجا للخلاص. كنت مشوشا من بشاعة ما رأيت. رأيت انفاقا تفور امتارا في باطن الارض، وحقولا محروقة بالنابالم، وجثثا تحولت طعاما للنمل والافاعي وثعالب البر، وتلالا اصطناعية ملغومة بالديناميت. رأيت اشلاء حيوانات استخدت لتفجير الالغام بعد الفة ملايين السنين مع البشر، ورؤوسا بلا اجساد وايادي بلا اصابع وبطونا بلا احشاء. وفي كثير من الايام تخيلت نفسي ضبعا او ثعلبا متوحشا لامكان له الا الحفر والخرائب والكهوف. زرت رفاقا كثيرين في المستشفيات. دفنت احبة في مقابر جماعية اتخذناها بعد ذالك مزارع للبطيخ والرقي والقثاء والطماطم. بكلام آخر، كنا نتغذى على الجثث مثل الضباع. تشع في ذهني دائما صورة الرصاصة وهي تنفذ في الرأس حارقة صلدة، ثم يبدا بعدها

الانحلال والتمزق والحريق، في الشرايين والخلايا حاملة الذكريات والاحلام والخيالات. جسيم فولاذي بلا عيون، ولا ارجل يرج الجسد المملاق ويقذفه الى لجة الموت. أتخيل الدم ينبثق. الزبد يفور من الفم والرقبة تتلوى كأنها حية هاربة من النار. كم تمنيت لو اعيد الزمن الى الوراء لاجد نفسي مع عمي وحفارته على حافة الشط وسنية وحريجة وايام الزبيروذلك الماضي الذي سحقته الحرب مثلما تسحق ذبابة.

بعد ان أخذ اليأس يدب في جسدي والتعب يسيطر علي، فكرت بالذهاب الى القرنة، او الزبير ربما وقضاء ليلة في فندق الزهراء الذي قطناه انا وعمي قبل سنين. شاحنة ذات مقدمة حمراء تقدمت نحوي ثم مالت عن الطريق قليلا وتوقفت. يدي كانت مرفوعة منذ لحظات دون ان انتبه لها. فاجأني السائق قائلا:

- الى اين تذهب ايها الجندي؟

- الى بغداد طبعا.

- حدي الحلة، ولا مكان لدي في المقدمة، فأذا رغبت بالصعود فعجل.

قذفت جسدي في المؤخرة. لدهشتي، كان بأنتظاري تابوت مغلق، موضوع في زاوية جسد السيارة الواسع. مالي اهرب من الموت ويتبعني، أنا الذي كنت اظنه يتجول في جبهات القتال فقط لفي الحويزة والنفط خانة ومندلي ومشارف الزاب، لايتعداها الى الشوارع وسيارات الحمل الفارغة. تابوت لايمكن التكهن بمحتوياته، الا انه راح يبعث في القشعريرة والرعشة. كان غامضا، غموضه يستجلب للذهن كل رموز الموت البشعة والحكايات المخزية. ورغم غموضه فقد تقدمت نحوه متوجس الخطى وسط الاهتزازات والغبار والخوف. انحنيت عليه. دققت فيه. وجدته فارغا فتنفست الصعداء. اين كان ذلك التابوت قبل مجيئه الى السيارة؟من من الاجساد اتخذه معبرا الى العالم الآخر، عالم الظلمة

والياب والتراب؟مرآه ارجعني الى حوش دارنا وعمي وأبي، في مساء بعيد، بعد انتقالنا الى المدينة. رجع عمي بسيارة جيب دون توقع، فلم يكن الوقت وقت اجازته ولم تكن ليلة خميس على ما اذكر. ترك السائق، وكان لون بشرته سمراء غامقة السمرة في ذلك الجيب وراء مقوده. دخل مباشرة الى غرفة الضيوف، حيث يجلس ابي. استطعت من تلصصي عليهما ان اسمع حوارا لم افقه منه الكثير.

– ذبحوهم، أعدادهم بالآلاف. بعضهم ظلوا ممددين في الشوارع مثل خراف ذبيحة. من قاوم في الشارع قتل فيه، ومن قاوم في المقرات قتل هناك ايضا.

– كفانا الله شرهم، لقد نذرت لمثل هذا اليوم ثورا سأذبحه واوزع لحمه على الفقراء.

– لن تقوم لهم قائمة بعد اليوم، لكن القتلى كثيرون، وأخشى ان يكون فائق وطارق ونايف من بين الضحايا، فهم من النوع الذي يركب رأسه بمثل هذه الظروف.

ومن الجدية المستولية على الحوار شعرت ان امرا جللا قد حدث. لكن من هم الذين ذبحوا في الشوارع، ولماذا جاء عمي على غير موعده، ومن هو فائق ونايف وطارق ؟قام عمي فجأة من مكانه وتناول بطانية جنبه لم التفت لها من قبل. فتح طياتها بتؤدة واخرج منها شيئا لامعا تبين لي انها بندقية. عرضها امام ابي وقال :

– انها رشاشة بورسعيد وجدتها عند جثة من جثث الحرس القومي، دعنا نخبئها في

البيت الى ان تنجلي الامور.

لم يمر سوى يومين على عودة عمي الى المعسكر حين وصلنا خبر مقتل اقربائنا فائق ونايف وطارق. سافرنا الى القرية على عجل. وقفنا ننتظر سيارة ستيشن طويلة كانت تشق طريقها وسط الحقول للوصول

الى شاطئ النهر. لقد هربوهم من طريق ترابي يلتف حول بغداد لذلك لابد من نقلهم عبر النهر. كان الموج عاليا مثل ثيران هائجة. في الافق عاصفة غريبة فسرها الحشد انها علامة على وقوع الكوارث واقتراب يوم القيامة. كان الفضاء معبأ بالعويل والندب والرثاء. نساء، رجال، اطفال، وعلى الموج يتراقص القارب الذي سينقلهم الى الضفة الثانية. توقفت السيارة عند الجرف ولمحت ثلاثة توابيت مفتوحة يغطي خشبها الدم المتخثر الذي تحول الى بقع سود غير مألوفة. ثلاثة شباب في ثلاثة توابيت. العيون مغلقة والوجوه مغبرة تحيطها صفرة موت بشعة المنظر. وتصاعدت رائحة عفنة ظننتها قادمة من طين النهر الحر، او الاطفال الوسخين. شاهدتهم ينقلونهم الى القارب وشاهدت القارب يسير بهم متأرجحا وسط الماء، وكانت قلوبنا وجلة من انقلابه وضياع الجثث. في كل رجة تصعد القلوب الى الحناجر وتتعالى صيحات الدعاء والتكبير. ثلاث مرات عبر القارب النهر حتى استطاع نقل الحشد المرافق للتوابيت. ورغم اني أمضيت مع ابي يومين في المأتم تناولت خلالهما الرز واللحم وشربت قهوة مرة في بيت واسع من الشعر، الا انني لم استطع نسيان مرأى التوابيت، او تلك الرائحة الغريبة، رائحة موت معتق في اجساد منخوبة بالرصاص. خامرني شعور بأن الاجساد كانت عرضة لوابل من الرصاص. لم يبق منها سليما الا الرؤوس. الا ان اشاعة انطلقت بين الاقرباء مفادها ان ملا سلمان الذي قام بغسل الجثث قد اكتشف ان الرؤوس رؤوس شبابنا لكنها مخيطة على اجساد ليست بأجسادهم. لقد فهمت في تلك الايام ماعناه عمي حين قال انهم ذبحوهم كالخراف. لابد انهم كانوا مسلحين بسكاكين طويلة حادة تستطيع فصل الرؤوس عن اجسادها بمثل تلك الطريقة. كانت توابيت تشبه هذا الرابض امامي. مخلفات صخور وتراب ناعم وجص وبقايا حصى استخدم بلا شك لبناء بيت او مصنع او سد. تتخلل تلك المخلفات

الرابض عليها التابوت كمية من بعر الغنم، ففكرت فجأة ان علي ان ادقق بملامح السائق والمرأة الجالسة معه في المقدمة فلربما كانا صديقي عمي. كدت ان امد يدي لاتحسس المنديل المعطر المنزوي في جيب الدشداشة، فأعادتني بدلتي العسكرية ومنظر القرى التي تمر مسرعة الى الخلف الى ما انا عليه. قد مرت سنوات طويلة على ذلك المساء، وسيارة مثل تلك لابد ان تكون انقرضت قبل قيام الحرب بسنوات.

هل يمكن ان يكون التابوت اذا تابوت واحد من معارفي؟صديق قضيت معه اياما من المناكدات على غسل الصحون اوتنظيف الساتر الترابي من الجثث؟في المعسكرات وفي الجبهات، بأنتظار الطلقة القادمة من الشرق تحت جنح ليل اليل. هل هو لواحد ممن كانوا يحمون ظهري في المحمرة وبسيتين وقصر شيرين والفاو ودربندخان واهوار العمارة؟هل هو لشخص شارك معي في حفر نفق كان يقودنا الى طبقات الارض المكونة من حديد وجمشت وعروق ابنوس واحجار زجاج كانت تلتمع مثل اقمار تحت سلطة الضوء، ضوء النجوم، والشعالات الكاشفة للتسلل وضوء الارواح السادرة في تجلياتها الصوفية كي تتعالى قليلا عن ايامها المصنوعة من دم وتوابيت وانكسارات؟

ويمكن ان يكون لقتيل راح ضحية ثأر او مشادة كلامية او امرأة جميلة، اويكون السبب رهانا على نمل جرى في مكان ما من البصرة، فرهانات النمل لاتجري في بغداد فقط كما اخبرني فتاح افندي. صار لها فروع في كل المدن. لم لايكون معارضا سياسيا قادته احلامه الطوباوية لصنع جنة على الارض الى المدينة السرية المدفونة تحت الارض، التي حكى لنا عنها عبد علي المحامي بأسهاب وتفصيل؟المدينة المكتظة كما قال بالزنازين والكلابات والملاقط الكهربائية والمناشير القاطعة والقضبان البلاستيكية التي تصنع خصيصا للدس في المؤخرات. لابد ان يكون صاحبنا قد فشل في اجتياز تلك الاختبارات

ونقل الى اهله في ذلك التابوت النظيف المتربع على الصخور والبعر والحصى. لكن من يثبت لي انه لرجل وليس لامرأة؟خاصة وانه غير ملوث بالدماء السوداء كما كانت توابيت طارق ونايف وفائق؟كانت ميتة نظيفة على الاغلب. سرطان في الثدي، شيخوخة، توقف للقلب من الاجهاد، حادثة سير، عسر ولادة، بعد ساعات من الانتظار في قرية نائية تعتمد في هذه الامور على قابلات طاعنات في السن ليست لهن خبرة الا بالولادات الناجحة التي توفر لهن الشاي والسكر والعدس وشيئا من النقود.

مرة حدثني المحامي قال:اوكلت لي قضية حول شابة غير متزوجة جلبها اخوها الى مستشفى الكرخ الجمهوري بسبب انتفاخ اصاب بطنها، جلب حولها الشكوك والتقولات في محلتها. فحصتها الطبيبة النسائية بسرعة وهمست للاخ، الذي ظنته زوجها، ان امراته حامل، مهنئة اياه بالوليد المنتظر. خرج الاخ الى الممر، واطبق في اول ركن من اركانه على عنق اخته بيدين خشنتين غاضبتين. لم يتركها الا جثة هامدة، تحت انظار المراجعين والاطباء والموظفين. بعد يوم واحد فقط اكتشف الطب الشرعي ان الفتاة تعاني من وجود اكياس مائية في البطن. طلب مني المحامي ان ارافقه ذات يوم الى قاعة المحكمة قرب شارع السراي لسماع مرافعته التي سيدين فيها تقاليد المجتمع العتيقة وفساد السلطة ولاابالية المستشفيات بحياة الفقراء من الناس. رغم كل مغرياته لم ارافقه لانني كنت وقتها اعيش واحدة من فترات هروبي المتكرر، وكان منظر الشرطة والانضباط يثير في غثيانا وخوفا مريعين. لابد ان يكون التابوت لفتاة مثل تلك قضت بسبب غباء طبيبة ولاابالياتها. توصلت لهذا الاستنتاج وأخذت دموعي تتراقص على جفني، حزنا على البراءة القتيلة والجسد الذي مدد على الالواح الباردة. دموع. دموع نسكبها في الفرح والحزن وتظلل ايامنا الطويلة بنات التابوت وحفيدات المذابح المرتكبة

تحت ظلال النخيل. دموع كاذبة، او مخاتلة. دموع يسببها الغبار والبصل والاورام الرمدية. دموع تشبه المطر تتساقط على تابوت فارغ ينتصب امامي. وكان الهواء رطبا وكانت رائحته تشي بالمطر القادم.

تقدمت نحو التابوت ثم جلست قربه. لم يكن بداخلي اي خوف. صار الموت اليفا لدي الفة حياتي الرتيبة واصدقائي الرتيبين وكل مالايمكن الخلاص منه او تغييره. لا اثر لنسالة من القطن عليه وليس في خشبه بقع او دهونات، مما جعلني اشك بانه قد استخدم قبل اليوم.

اتكأت عليه. أرحت تعبي على موته. وكانت السيارة تهدهدني مثل طفل رضيع. الغيوم المسافرة تمر من فضاء السيارة كأنها وعود لاتمسك. النعاس يدب في، ينغل في جفوني ويتسرب الى الاطراف فيشيع فيها ثقله وخدره وطمأنينته. راح الجفن يحن الى الجفن. تكاكأ تعب الايام في روحي، وبدأت اولى القطرات ترتطم بوجهي. كان الهواء يحمل من بعيد، من القرى والحقول والمدن صوت زوبعة وغيوما سودا تصطبغ بها المديات فتتعمق لها الالوان. انها مياه ستأتي من السماء، تبل الجذور وترطب الذرات وسيكون التابوت ملجأ لي. سترا لروحي ومفازة لاحلامي. هاهي الجدران تظللني، وهاهي القطرات تنقر بابي بآلاف الاصابع. ايقاعات موسيقية فائقة الروعة. خدر يتغلغل في روحي. النوم يرشني في سماوات الحلم والمطر والريح والمدن البعيدة.

-٩-

دخلت شارعا، ضيقا، تقوم البيوت على جانبيه. الدكاكين فيه تبيع المخضرات والاقمشة والبهارات. قصدت مكتبة لطيف، وهي تتزوي بين دكانين للمخضّرات. عجبت للمفارقة، اذ كيف تتكبس الكتب بين سلتي تمر او كيسين من اللوبياء او صندوقين للطماطم. ادخلت الصورة الساخرة التي تدور في ذهني شيئا من البهجة على مزاجي، فرحت ابتسم لاعمدة الكهرباء وجذوع النخيل واضواء العصر. وجدت لطيفا بشاربه الاسود الكث يصفف المجلات والجرائد والكتب على الطاولة العريضة التي امامه. كانت تفصل بينه وبين الزبائن، وتضفي عليه مظهر بائع محترف لا عريف في القوة الجوية. فوجئت به يبيع مثل غيره، لا الكتب فقط، بل الباميا والباذنجان والخيار والتمر وقد توزعت باكياس وسلال واكياس على كتف الشارع. ترتفع فوقها اسراب من الزنابير والذباب والنحل. كان رفيف الاجنحة يثير غبرات صغيرة تكتسح الوجوه والكتب وفضاء الشارع.

وجدت لطيفا مهموما قلقا، كمن يتوقع حدوث امر سيزلزل كيانه ويخرب الحياة من حوله. دائم الالتفات كثير التطلع، في المارة والباعة القريبين والافق الممتم فوق البيوت والنخيل والشجر. يترك مابين يديه

من شغل فجأة ليتطلع يمينا او شمالا ثم يعود الى عمله ثانية. انه لايريد ان يؤخذ على حين غرة، لكن ممن؟ انشغلت عنه بقراءة عناوين الصحف والمجلات والكتب، وكانت تتبعثر دون نظام، على الطاولة والحامل الخشبي والارفف: جريدة الجمهورية وحبزبوز وطريق الشعب والثورة والفيحاء والعراق والحياد والاديب المعاصر ونوادر الزمان. كانت عناوين الكتب باذخة توحي بوجود اشعار وقصص وملاحم وادب ساخر واشعار لصوص ونوادر بوابين بأغلفة مجلدة تشعشع بحروف مذهبة او مفضضة محاطة بالزخارف والمنمنمات تغري بالشراء والقراءة.

- هل يمكن مناولتي جريدة الجمهورية؟

ولدهشتي مد لي لطيف بحركة واثقةعلبة صغيرة تحتوي على كبسولات. ادركت انه لم يسمع ماقلته وانه يعيش زمنا لايمت الى الحاضر بصلة. تركت يده ممدودة في الفراغ لحظة فانتبه الى خطئه وأعتذر ثم ارجع العلبة وناولني ماطلبت. الرجل ليس على طبيعته، لقد عهدته متوقد الذهن محبا للنكتة، فماجرى له اليوم؟ لاعجب، فكرت، فالحياة صعبة هذه الايام، وهي تتحول يوما بعد اخر الى غابة خطرة المسالك لايستطيع المرء توقع ماسوف يبرز له فيها.

اخرج كبسولة ووضعها في قدح الشاي ثم راح يحرك السائل بملعقة قصيرة بالكاد تبرز من بين اصابعه. ظلت الملعقة تدور وتدور دون كلل. كانت عيناه مصوبتين الي وكنت اقرأ في فهرست الاديب المعاصراسماء المشاركين:قادر الجمالي، محمود عباس، الهام ابراهيم، سعيد زيارة، علي العقيلي، الياس حنا، محمود ستار جميل، طارق عبد الواحد، الهام ياسر، جمال المحروت، وهم يتوزعون على ابواب الشعر والقصة والمقالة ومتابعات الكتب ورسائل القراء، ولاحظت ان تصميم الغلاف للفنان عبدالله يحيى.

شارع المكتبة كان يتفرع من شارع آخر ينشعب الى شعبتين،

والشعبة الثانية تقع خلف المكتبة، لذلك كانت المكتبة في جزرة وسط شارعين. وبالتقاء تلكما الشعبتين يتكون شارع فسيح فيه عدا الدكاكين المشهورة ببيع الاقمشة، مقاه مكتظة دائما بالبشر. مقهى ام كلثوم، الربيع، جمال عبد الناصر، العشائر، البعث، اسمهان، واخيرا دجلة، المقهى الوحيد الذي ادخل امراة في الخدمة فأصبحت المقهى انجح مقهى في المدينة. صار الرواد يأتون لرؤية المراة لاغير، يعبون الشاي والدارسين والقهوة دون ان يلتفتوا للوقت.

اما الفسحة المقابلة للمكتبة فتشكل فضاء رحبا للعيون.

وقد صارت كراجا للسيارات القديمة وعربات الجر والنقل وبراميل النفط المثبتة على عجلات وتركها اصحابها بعد تهرئ عجلاتها وتآكل حديدها، اذ بادت براميلها وامتلات بالثقوب. الفسحة تكتظ بالحفر والتراب الناعم المتولد من هرس الاحذية الثقيلة للمارة الذين يختصرون طرقهم بالعبور منها. كانت زاويتها تتمحور على نخلة وحيدة عالية بالكاد يرى المرء عذوقها الصفر المهفهفة بين السعف.

فضاء رحب وسط مدينة سائرة نحو المساء، لكنه لايوحي بالطمانينة. وثمة رعب في الهواء. ذكرني بمواقف ماضية عاشتها المدينة. رعب يسري على اجنحة غير مرئية. ليس له ارجل، ليس له اذرع ولاسمات، لكن المرء يحسه في الشقوق وعلى الخانات والحمامات والخرائب. البيوت تشي به، الخشب المنقوش والمسامير والمطارق المشكلة رؤس اسود وافاع واحصنة. تتوء به البوابات في الازقة فيجعل لمظهرها هيئة مرعبة قاتلة. لايمكن لاحد ان يتجاهله لانه يلسع القلب ويقلص الاوتار والجلد والربلات. انه في الهواء وكفى. لا احد يخمن مصدره لكن يمكن تحسسه في عيون البشر وتصرفاتهم القلقة غير المفهومة، كدوران الاصابع في الانوف وارتعاشات الخدود وترهل الشوارب والالتفات الدائب دون سبب كما يفعل لطيف.

- سيهدمون الشارع قريبا وطلبوا منا اخلاء المحل، وكذلك الاخرين، فهم عازمون على شق شارع عريض وعصري التصميم يحمل تقاليدنا في العمارة، سيمتلئ بالمصابيح المصنوعة في اليابان خصيصا له. مصابيح مقببة تشبه قباب الجوامع. لكن اين نذهب؟ عشنا هنا عشرات السنين، ورثنا المحل من ابي وكان يبيع فيه التبغ بانواعه. اتذكر انني اظل اعطس عطاسا متواصلا كلما جلبت له الغداء من البيت. اتذكر عشرات الغرابيل، تغوص في بطون بعضها، واكداس الورق التي نحولها الى تبغ نارجيلة. ظل ابي واحدا من اشهر تباغي السوق، الى ان غزتنا السجائر الاجنبية من ذوات الفلترفما كان منا الا ان حولنا المحل الى مكتبة. الكتب الاسلامية رائجة فالناس التفتوا اخيرا الى دينهم، كتب الحديث والتفسير والفقه والشريعة. بيد ان الارباح ظلت قليلة، فاقترحت اختي ان نبيع الخضر والفواكه مع الصحف والمجلات. كانت فكرة نسائية ناجحة، ثم سارت الامور سيرا حسنا بعدها. . . ذلك هو اخي!

أشار الى شاب نحيل اسمر البشرة قادم من الفسحة التي امامنا. اومأ لنا محييا، حين حاذانا، ثم اتجه الى بداية الزقاق، حيث بوابة من خشب عتيق، ذات درفتين ثقيلتين مطبقتين بالحديد الصدئ، وقد راحت تطلق عواء حادا حين بدا الشاب يدير درفتيها. انها المرة الاولى التي اشاهد فيها زقاقا يغلق ببوابة، فحسبت ان وراء القضية حكاية اجهلها، كأن يكون ثمة امر بالحجر على القاطنين، او ان الزقاق سجن صمم كي يفتح نهارا ويغلق ليلا، دون حراس. اغلق الشاب البوابة باحكام ثم رجع بالخطوات المستعجلة نفسها من حيث اتى دون ان يتوقف معنا. شاهدته يغيب خلف العطفة في نهاية الفسحة.

- لم اغلق اخوك بوابة الزقاق؟ ومن اعطاه الصلاحية لحجر الناس في بيوتهم هكذا؟ هل يعمل مع الحكومة؟

سألت لطيفا بفضول.

- لاتتعجل الحكم. بالعكس انه متذمر منها. هم يهدمون كل شئ بحجة البناء، وهي خدعة لاتنطلي على احد. الحياة لم تبدأمعهم كما يدعون، انها موجودة قبلهم وستظل بعدهم حتى قيام الساعة. كل ما في الحكاية ان اخي مكلف من قبل البلدية بغلق البوابة ليلا، خوفا من اللصوص. هم يملكون مفتاحا ثانيا يمكنهم دخول المحلة ايما وقت يشاؤون. لقد مضى اخي الى مقهى دجلة للعب الدومينو والتطلع الى العاملة. اخي مولع بالسيارات، يعشقها كثيرا، لذلك يشاهد برنامج الرياضة في اسبوع لالشئ الا ليشاهد سباق السيارات. انه خبير بانواعها ومحركاتها ومصانعها، وكثيرا ما طلبه اصحاب معارض السيارات للاستشارة. وهو يعد نفسه لدراسة الميكانيك. لايدخر وقتا لشراء المجلات المتخصصة بالسباقات والمنتوجات الجديدة والحوادث الغريبة المرافقة لها.

- من اين يدخل القاطنون بعد اغلاق البوابة؟

سألته وذهني منصرف عن حديث السيارات الى البوابة الخشبية المدعمة بالفولاذ، التي لاتنتمي الى زمننا هذا، كما لو كانت قد جلبت من عهد المغول او المماليك او العثمانيين. جعلتني احس ان ثمة بدوا كامنون لنا عند اطراف المدينة بانتظار هطول الظلام لاجتياح المدينة. كل شئ يوحي بذلك، العتمة، وتشبح المكان والقلق المسيطر على لطيف والاصوات الهامسة التي نسمعها من البيوت والخرائب والزوايا.

- يلفون السوق من نهايته، ثم عن طريق سوق المرس والحبال فشارع السمكرية، الموحش لكثرة كلابه وخلوه من الاضوية. اصبح القاطنون يؤوبون باكرين الى بيوتهم، بعد انتشار اشاعة عن اختطاف الناس من بيوتهم ليلا وتفشي الرعب في المدينة.

كان المساء ينشر غلالاته فوق البيوت. لاتنفع معه الاضوية المبعثرة في الحارات الشعبية، وهي لاتصنع سوى الظلال المرعبة التي

تضاعف الاساطير والحكايات في الاذهان. مساء يمسح التفاصيل بفرشاة من ظلمة تتكاثف لتصبح لها الجدران وابواب المحلات والاشجار القليلة المنتصبة في الحدائق الداخلية للبيوت عجينة من اوهام وخيالات. يفجها مصباح هنا او نافذة مربعة هناك، شمعة لساهر ترسم حول شقوق في باب او نافذة هالات من النور المختلطة بالظلال. مساء ملئ بالاسرار يحسه القط، والشرطي، واللص المتأهب للانقضاض على بيت او محل.

- لكن الا ترى الشلة بين حين وآخر؟

- اية شلة تقصد؟ لا املك شلة.

- فتاح افندي والفران ومالك الاقرع الذي ربح مراهنات النمل. لم تعد تلتقي بهم اليس كذلك؟ خاصة وان الحرب انهت كثيرا من الصداقات وغيرت احوال البشر.

- عماذا تتكلم؟ انا لا اعرف الاشخاص الذين ذكرتهم. انني رجل حياته تنحصر بين المحل والبيت، وفي الجمعة اؤدي الصلاة في جامع الحيدرخانة.

أوشكت ان اذكره بشارع النهر ولقاءاتنا المتكررة على ضفاف دجلة. اسماء عاهرات محلة الذهب و اللواتي ضاجعناهن في طبقة المحل. الا ان نظرة واحدة الى عينيه الصادقتين جعلتني احجم عن ذلك والتفت الى الشارع والفسحة. ساد بيننا الصمت لحظات. وشعرت فعلا بوقع الرعب في الهواء. الرعب الذي يدفع الانسان الى الهرب والاختباء في مكان آمن. الى اليسار مصباح معلق على وتد كان ينشر نورا واهنا يضئ بقعة من ارضية الشارع عليها قشور رقي واقماع باذنجان وطماطم خائسة. على انعكاسات الاضواء في البرك الآسنة استطعت ان المح فتاة قادمة من العتمة، كانت تتمخطر ناشرة شعرها على صفحتي خديها. في اللحظة نفسها اضاء لطيف مصباح السقف المدلى وسط

المكان ففقع الضوء منسفحا على الاسفلت وعابرا الى الفسحة. وحين لمح الفتاة اخبرني انها اخته. جاءت من المدرسة المسائية فهي تدرّس التاريخ فيها. طالباتها خليط غريب من النساء ربات بيوت، عاملات مستشفيات، كاتبات في البلدية، عاملات في معامل النسيج والخياطة.

- حصلت اختي على خبر شق الشارع من كاتبة طابعة تدرس في صفها. وهي موظفة في البلدية تعمل في دائرة الذاتية. كان موقعها يمكنها من معرفة كل الاوامر الصادرة من الادارة. وبما انها تعرف اين تقيم اختي لذلك نقلت ماعرفته اليها فورا، قبل ان ينتشر الموضوع ويعمم على الاهالي. اخبرت اختي بملاحظة غريبة لم نستطع فهمها، حول مغزى شق الشارع، وتأتي بعد مقدمة حلوة عن ضرورة تحسين وجه المدينةوتسهيل ادخال المياه النقية والكهرباء والمجاري الى الحارات الشعبية. الملاحظة تنص على ان الفائدة من هكذا مشاريع للسيطرة الامنية على الساكنين. معرفة العناوين بدقة والانتماءات السياسية وغيرها من امور تخص امن المدينة. لم افهم الغرض من تلك الملاحظة. فنشاطاتنا ليس لها طابع سياسي، واغلبنا كسبة وعوائل عريقة قطنت المدينة منذ العهد الملكي. عوائل تميل مع هبوب الرياح، وتغني على كل عود. الاكثرية يصومون ويصلون ويؤدون الزكاة، انهم مثلي، من البيت الى الدكان.

- سمعت ان مدير البلدية لديه حاشية من المقاولين يقاسمهم الارباح. يخلق لهم التعهدات حتى من تحت الارض. منذ فترة قصيرة اعاد ردم السدة القريبة من قريتنا بطول خمسين كيلومتر عبر مقاول من خاصته. الكل يدرك ان الفيضانات توقفت من فترة طويلة بعد بناء تركيا لسد اتاتورك. كان آخر فيضان هو الذي حملنا الى النزوح من القرية الى المدينة، في السنة التي زارنا فيها الملازم هجيج الكويتي، الا تذكر؟ لم لايكون توسيع شارعكم واحدا من الاعيب رئيس البلدية؟

دخلت الفتاة بابا واطئا. رأيت ضوءا ينساب من الداخل اشبه بالحليب. اضفى على مارأيت مسحة شبحية او حلمية. وكانت المدينة قد اطبق عليها الصمت فجأة. اختفى المارة وهدأت الحيوانات السائبة ثم انتشرت طمأنينة جديدة علينا.

مد لطيف يده الى زر المصباح واطفاه. غابت ملامحه في ظلام الدكان القيري، اما صوته فلا ادري كيف كان يصلني بهذا الصفاء والوضوح، قال:

- انتهى نهاري وحل ليلي. سأراك غدا لامحالة كي نواصل حديثنا عن المدينة. الكلام لاينتهي والخوف موجود والصحف تأتي كل يوم. عندما تمضي من هنا خذ الجانب الايمن المؤدي الى سوق السمكرية ولا تخف من الكلاب، فهي لاتعض، تنبح فقط، والكلب النباح لايخشى منه. البوابة اغلقت ولم يبق منفذ الى خارج الحارة الا من هناك.

كان الطفل الغر يحوم حولي، سيماؤه لايمكن ان تنسى، فعرفت انه يرغب بالحديث معي، خاصة وانه شعر بالحزن لتجاهلي تجاربه عن العربات والحليب وتحولاته الى فرس النبي. قال لي لدي الان اخبار كثيرة تذكرتها من حياتي الماضية اود ان احدثك عنها. قلت له ليس الان فانا رابض في تابوت وعلي ان اواصل رحلتي فيه الى بغداد. قال لي عن اي تابوت تتكلم، وجودنا هذا لم يعد فيه توابيت، كما لم يعد فيه شئ اسمه الموت. لم يبق لدينا سوى الذكريات.

لقد اختفت الاشكال المدهشة من السماء وخلفت وراءها زرقة لاتحد. الا ان الطفل لما يزل ملتصقا بي يحاول ان يجرني الى احاديثه الساذجة. قلت له الا تريد ان تعرف ماجرى لي في التابوت؟ قال هات حدثنا قصتك ودعنا نعرف شيئا جديدا.

كانت الارض من تحتنا غريبة المنظر، وثمة قمر في جهة ما يشع نورا ابيض ينغل في ثنايا المدن وينعكس على الانهار ويشيع الجذل في

قلوب المتأملين. . . من بقوا احياء بعد العاصفة.

ازحت غطاء التابوت وبانت السماء زرقاء صافية، لاشيّة فيها. توقف المطر منذ فترة طويلة بلا شك، وكانت الريح السلسة تنزلق على وجهي مثل اشرعة حريرية لاترى. واذا بي اسمع صرخة مدوية حولي واشاهد جسدا ما انقذف بغتة خارج السيارة. حسبت الامر وهما لشخص يفيق توا من كابوس او حلم. من يجازف بقذف نفسه من سيارة تسير بسرعة خاطفة ؟

لم تتوقف الصرخة وتلبثت في الهواء. كانت دون شك، صرخة اكبر من فم. صرخة الم ورعب وتفجع. صرخة الرؤية المهولة والخيالات المكتنزة في الذاكرة والروايات الفظيعة عن الجن والشياطين وقيامات الاموات من لحودهم.

قفزت من التابوت نحو مؤخرة السيارة مستطلعا الاهداء المتلاشية لتلك الصرخة.

رأيت رجلا يتلوى على الاسفلت، لاسيماء له الا سيماء القرى، ولا لون له الا لون التراب. كان لابسا دشداشة بيضاء، على جسد نحيل، فوقها سترة سوداء، رثة، وقد تدحرج عقاله على الاسفلت مثل املود. التف يشماغه على جسده التفافة افعى قادمة على ابتلاعه. ما الذي حدث، قلت لروحي. كيف واتته الجرأة على النزول من السيارة هكذا؟ كان يمكن له ان ينبه السائق للوقوف او التمهل في سيره على الاقل. وقفت في المؤخرة اتطلع في سيل السيارات:شاحنات عملاقة، زيلات عسكرية، تراكتورات، ناقلات نفط، شاحنات صغيرة لفلاحين يبيعون محاصيلهم الى مخازن الجمعيات الفلاحية التابعة لوزارة الزراعة. اصابني الذهول وغشاني الاسف. احسست انني دخلت عالم الاجرام من اوسع ابوابه. الم اتسبب بقتل رجل؟ ترى كيف صعد الى السيارة؟ من اي المدن هو والى اين يبغي السفر؟ لماذا لم يخبره السائق بوجود تابوت

على السطح؟ وان ثمة جنديا ينام فيه، لكن من اين للسائق معرفة ذلك، وهو لم يرني ادخل التابوت، ولا تخطر الفكرة في ذهنه؟ جندي يرقد في تابوت وهو حي! جندي و تابوت لابد ان يساويا موتا. وجندي مع تابوت يساويان مقبرة وحربا ومجزرة، ستشكل نكتة فجة لذلك القروي المسكين. فكرت انه يدفع ثمن تخلفه وقلة فهمه لالتباسات زماننا. كيف يقع فريسة لنكتة سمجة مثل هذه:جندي ينهض من تابوت وهو حي!!

هل كان هنالك رجل ام انها اوهامي فقط؟ ولم لايكون مارايته تتمة لمغامرة كبيرة رايتها في حلم او كابوس؟ قررت ان لا اعود الى النوم في التابوت حتى لو امطرت السماء سيولا من الماء.

قطتي. . قطتي. . قطتي.

قطتي صغيرة واسمها نميرة

قطتي. . قطتي. . قطتي. تلعب طول اليوم الى زمان النوم

ذيلها يسلّي وهي لي كظلي

تلعب المهارة كي تصيد فاره

آلاف المرات تكررت تلك الانشودة السمجة في اذني. منذ طلوع الشمس حتى غروبها.

كان ذلك الطفل الغر يرددها بلا انقطاع، بشغف ولذة ونفاجة.

لقد سمعها حديثا من اطفال حارة الزرازير في الفلوجة. كانوا يغنونها وهم ينتظرون دورهم على حنفية المياه حيث شاهد ايضا المباني الساقطة على اهلها، والحفر العميقة التي سببتها القنابل التي استهدفت الجسر ولم تصبه. استرسل في وصف الخراب الذي رآه ومعلومات اخرى عن المدينة، شككت انه استطاع الحصول عليها بهذه الفترة الزمنية القصيرة. ضجرت منه ومن اغنيته الطفولية، وقررت البحث عن مصير ذلك المسكين، بعد كل تلك السنوات. علي ان افك مغاليق السر طالما اصبح لدي القدرة على ذلك. القدرة على رؤية

الماضي بكل هذا الوضوح. الماضي الذي نسج حياتي وشكلها لتنتهي في الملجأ دون غيره.

لقد تبين لي ان الرجل لم يمت بسبب السقطة. بقي حيا بعد ان تدحرج عشرات الامتار خلف سيارتنا، غير ان شاحنة حديد كانت متجهة الى مخازن الصواريخ في الصويرة، فاجأته قبل ان يفيق من هول الصدمة، فمجنته بالارض ولم يتوقف السائق لاستطلاع ماجرى. شاهد سائقها الجسد يتلوى على الاسفلت مثل ريشة سقطت من طائر محلق في الهواء. فوق هذا، أخبر جليسه، وكان مشغولا بالقدح في سيجارة بغداد، بتذمر، ان البشر لم يعد لهم ضمير. ما عادت للإنسان قيمة تذكر، يدعسونه كما يدعسون سيجارة باعقابهم. الجليس لم يفهم مغزى الحديث، واكتفى بهز رأسه موافقا ثم استدار لينظر الى اشجار الاثل والابقار السارحة في المراعي التي اعشوشبت بعد موسم مطير لم يألفه البلد.

كانت السيارات والشاحنات والشفلات وناقلات الجند والزيلات العسكرية تمر على الجسد تباعا دون ان تتوقف. بعض يرى فيقنع نفسه ان ما رآه لايعدو ان يكون وهما بسبب الارهاق. بعض يتردد بين الوقوف ومتابعة السير فيفضل المواصلة خوف ان يتهم بالقضية. ثمة من لايرى الجثة على الاطلاق، واولئك المشغولون بقصص الحرب والمقاولات والتجارة والهروب من البلد والسجن المؤبد، فيحصرون ابصارهم بين مصباحي السيارة لاغير، وعلاقتهم بالحياة من حولهم لاترتبط الا بخيوط واهية من الانتباه.

اوحى المساء للجميع، ان الجثة جثة كلب او ثعلب رام المروق من جانب الطريق الى البستان فلم يواته الحظ. آنئذ، كانت عظام ضايع الجريان، تتداخل فيما بينها. الانسجة تعيش اختلاطا غير مفهوم، وليس بعيدا عن المكان راحت النجوم تتفتح في السماء، واندحرت فلول الشفق

خلف غابات النخيل والمديات الخالية والبيوت. وفي تلك الليلة كان آخر المارقين فوق الجثة، جرار عملاق يسحب وراءه عربة محملة بالتراب. عجلتاه الخلفيتان، مسحتا آخر معلم من معالمه البشرية، بنتوءاتهما المطاطية الثقيلة.

ثم هكذا، نمل اسود وعقبان وقطط برية وضباع وثعالب ودعالج وخنافس حقل سود وبكتريات وفايروسات وذرات رملية كان الهواء يسفها من الغيطان المجاورة، كل ذلك الحشد المرئي وغير المرئي شارك في التهام جثة ضايع الجريان فلم يتخلف في المكان الا قبضة من الشعر ورائحة عفنة ثقيلة. استمرت اسبوعا كاملا تجذب اليها الجوارح والوحش، مع ان اسبوعا كاملا يعد فترة طويلة في ذلك الوقت، امام جوع الضواري التي تعودت على التهام الجثث طوال سني الحرب.

لقد كتب على ضايع الجريان ان لايرى حضرة الحسين، وظل اهله ينتظرونه يوما فيومين فثلاثة، ثم اسبوعا فأسبوعين فثلاثة، الى ان بدأ القلق يدب في قلوب الزوجة والابناء والاقرباء. فالزيارات عادة، لاتستغرق وقتا مثل الذي استغرقته زيارة ضايع، ولابد ان يكون في الامر مايريب.

اوفدت زوجته ابنها الكبير لتسقط اخباره، ومعنى غيابه. كانت تفكر بأنه ربما انسحر بالابهة والقداسة المتجلية في القباب الذهب والمآذن والبشر القادمين من مشارق الارض ومغاربها ورموز القبر المهيب الذي رأته مرة واحدة في حياتها. وربما فضل ملازمة الحضرة بعيدا عن الدنيا وحروبها ومغرياتها. وكانت تعرف فيه ميله الى الآخرة وشغفه بالحديث عن امجاد الائمة واتباعهم، وكثيرا ما انساه ذلك زراعة البطيخ والطماطم وتلقيح النخيل. كان يؤمن ان الحياة قادمة الى نهايتها عاجلا، وأكبر علامة على النهاية هذه الحرب الدائرة بين بلدين مسلمين. أمسلمون ويقتل بعضهم بعضا؟

سؤال ملح كان يقضي الليالي يفكر فيه، مع انه كان يخشى التصريح به لاحد غير العائلة.

سافر الابن الى كربلاء للبحث عن ابيه ضايع. كربلاء مدينة النور والحجيج، وهج ذهبها يعشي البصر، والمعضلة كبيرة. فكيف يسأل عن ابيه في مدينة تجمع الاجناس كلها؟ لاسيما وان أباه لايحمل اية صفة مميزة، لاهو بالغني باذخ الغنى ولا بالفقير المدقع المهترئ الثياب. الدشداشة البيضاء والسترة السوداء واليشماغ والعقال، والزي مثل زي الالاف الماشين هنا في الازقة والحارات وساحة الحضرة.

سأل عنه في الفنادق الشعبية اولا، ففشل في العثور عليه. اتجه الى كشوانية الحضرة، طاف عليهم واحدا بعد آخر. لادليل ولا بصيص نور. ثم العائلات القادمة من باكستان والهند ومصر، الجالسة في الفسحة امام المدخل الرئيسي الى القبر. يعطي الاوصاف والاسم بدقة فلا يقابل الا بالجهل والنكران. شخص مثل هذا لم تطأ رجلاه ارض الحضرة اخبره البعض. بل شك قسم من الكشوانية، بعد الحافه بالسؤال، ان في عقل الشاب لوثة ليست غريبة في ذلك الوقت.

لم يبق امامه سوى الشرطة، مع انه يدرك انهم الجهة الوحيدة التي لن ترشده الى ابيه على الاطلاق. انهم مشغولون بأمور كثيرة تخص امن البلد ووضعه السياسي.

سأله عريف الشرطة عن عمر الوالد واوصافه واسمه وكنيته. طمأنه العريف على ان ضايعا لابد ان يتذكر اهله ويعود. بعد الحاح الشاب وتوسلاته المترافقة مع الدموع، أمله الشرطي بالبحث عنه وسيتصلون بالعائلة بأقرب فرصة، ثم اردف قائلا ان الامر كله ليس بهذه الاهمية، فما قيمة شيخ مهدم الاسنان وسخ الملابس امام زهور الشباب التي يقطفها الموت يوميا على جبهات القتال؟

بعد رجوع الابن خائبا، من كربلاء، شاعت قصة اختفاء ضايع

الجريان بين الاقرباء والمعارف والجيران، ولا تفسير لذلك الاختفاء الا بحدوث معجزة.

شاعت تساؤلات كثيرة، وبدأ الناس يتأملون في حياة ضايع قبل اختفائه.

ان الايمان بالمعجزات ليس نادر الحصول في العالم الارضي. انه جزء من طبيعتهم. فثمة كثير من الاسرار والخفايا العصية على الفهم او التفسير. ثمة ظلال كثيرة في الحياة. وكان ضايع يؤدي الصلاة ولسانه حلو ويؤمن باقتراب النهاية، وتقلقه كثرة التوابيت القادمة من جبهات القتال. وكان شاهدا على موت عشرات الشباب في محلته. فلم لايكون صفيا للاولياء واهل البيت؟

استطعت ان احصي خلال تجوالي في المدن والقرى والاهوار والجبال عشرات من القبور المقدسة، مثل القبر الذي شيّد لضايع. سمعت مئات القصص التي تروي عن الاولياء والقديسين والمشايخ. وهناك مئات اخرى من الحكايات عن الجن والشياطين، يأخذ بعضها شكل النكات والطرائف والمفارقات، لكن ثمة دائما من يصدقها ويؤمن بها. ولعل الشخص الوحيد الذي لا يتطرق اليه الشك حول تلك القصص، وعرفته عن قرب معرفة جيدة، هو خالي حزم. كلما ورد ذكر للجن في مجلس او سيارة قص حكايته الفريدة التي رأى فيها عيانا مخلوقا غير بشري، وهو في هذا المجال يعتبر نفسه خبيرا في عالم الجن والمعجزات. كنت اقول له اسمع ياخالي حزم نحن في عالم الطائرات والساعات اليدوية وعمليات زرع القلب والغوص في البحار، اي بأختصار كل ماله علاقة بالعقل، فكيف تؤمن انت بالخرافات؟ ان حكايتك لاتعدو ان تكون حلما حسبته حقيقة، او وهما تراءى لك في ذلك الفجر، فزمن المعجزات قد ولى ونحن في زمن النور. لكنه لايتزحزح عن قناعته. خلق الله الجن مع ابينا آدم وسيظلون معنا على

هذه الارض حتى يوم القيامة. وما ان تتاح له فرصة لرواية تلك القصة التي سمعتها عشرات المرات، كل مرة بتفاصيل مختلفة، حتى يسكت الجميع بصوته الثخين ويبدأ سرد قصته.

شحمت محرك الكريدر وملات خزانه بالوقود واطلقت له العنان وسرت.

كان الفجرفي اول بزوغه، وهو منظر مألوف اعتدت عليه، والصحراء لايحدها البصر.

أمامي يوم طويل من العمل، أقضيه في تعديل الطريق الذي يربط سامراء بقرية واحد من مسؤولي الحكومة. القرية في بدلن الصحراء والصحراء ملأى بالذئاب واليرابيع والارانب البرية، وكثيرا ما رضدتها تتطلع الي وآلتي بعيون دهشة. اعتقد ان تلك المخلوقات، تسمع للمرة الاولى هدير محرك بهذا العلو. كنت قبل اليوم المح بدوا رحلا بجمالهم يعبرون المفازة نحو الشرق. وتلك المنطقة مشهورة بعقاربها، أما افاعيها فرفيعة صغيرة كثيرة السم. لذلك، ولوجود تلك الضواري حولي، كنت احتفظ بمطرقة ثقيلة جنبي تحسبا من هجومها.

كان علي ان اقص وجه الارض وأساويها كي ينفرش عليها القير لاحقا دون مطبات او اعوجاجات، الامر الذي تطلب مني كثيرا من التركيز. كنت اشتغل مع المقاول حمودي المحمود، وقيل انه صديق لذلك المسؤول، واستطاع الحصول على المقاولة عبر تلك الصداقة.

تقع قرية الشيح في نهاية الطريق، اذ كانت تلوح لي مثل بقعة سوداء. عرفت ان القرية تقوم على بئر جوفي، مما سهل لاهل القرية زراعة النخيل واليوكالبتوس والبطيخ والرقي. مزروعات كنت اعدها غريبة في هذه الصحراء القاحلة. الصحراء التي لاتنبت سوى الرمث والعرفج والرطريط والحاثة.

حين ظهر لي الرجل، كنت قد اكملت تسوية نصف كيلومتر تقريبا.

كان يركب عربة خشبية لها اربع عجلات مطاطية، يجرها حصان احمر منتصب الرقبة ناشر العرف متأهب القوائم مرتفع الاذنين، وساءلت نفسي كيف يخطئ الرجل بربط ذلك الحصان الاصيل على عربة حمل كما لو كان بغلا عاديا لا فرسا اصيلا؟ الا ان الربلات شائعة في المدن والقصبات والارياف فلم استنكر مارأيت.

كان الرجل يسير بالاتجاه نفسه الذي اسير فيه، الاتجاه الموصل الى قرية الشيح.

أختفت الارانب واليرابيع. الذئاب لا اثر لها، وحمرة الصباح تصبغ الافق بلونها الجميل. الرجل مطرق مكب على لجام الحصان. لم تعن له الضجة التي يثيرها المحرك شيئا. وكنت مثله منشغلا بالتعديل والترقيق والدفن. امضي الى الامام عشرات الامتار ثم اعود القهقرى لوضع اللمسة النهائية على الارض. لا اريد لمزاج المهندس ان يعتكر لهفوة اهفوها. والرجل دائما امامي، المسافة بيني وبينه ثابتة، لاتزيد ولا تنقص كما لو كنا مربوطين بحبل متين. عجيب امر هذا الرجل. فكرت. لم اره يمر محاذاتي، ولم امر به انا الآخر، فهل انبثق لي من الرمال؟ هل جاء من شق من شقوق الارض؟ هل صعد من بئر متروكة في فج ما من الفجوج؟ رحت احكم عقلي فيما أرى، ولف قلبي كثير من الهواجس، وقررت ان اطلع على ملمح الرجل وهيئته عن قرب، اتراه مزارعا من القرية ام زائرا جاء يقضي حاجة ثم يعود في المساء الى بيته؟ ليس الرجل بدويا، دون شك، فالبدو لايركبون الربلات، ولايطيقون رائحة البنزين والشحوم والديزل، وهذا الرجل يلازمني مثل ظل. لايريد ان يسبقني ولا يدعني اسبقه، فماكان مني الا ان ضغطت على دواسة السرعة ورفعت سكينة القص واتجهت نحوه.

لاتصدقون ماحدث.

لم استطع اللحاق به. حصانه سبق كريدري، مع انه ظل على الوتيرة

نفسها من المشي. لم اشاهد غبارا خلف حوافر الحصان، وعرفه لم تهتز شعرة منه. عجيب. اوصلت السرعة الى اقصاها ولايزال يمشي امامي، الرجل في سهومه والحصان على حالته. ازددت غيظا ورعبا، وراودني الشك بأنني ضحية لعبة من الاعيب الجن، وهم كثر في الصحاري والمقابر والخلاءات المهجورة كما تعرفون. والانسان منا يعود في هذه الحالة الى سور القرآن ليدرأ الشر ويطرد الارواح، واول ماقرأت قل اعوذ برب الفلق من شر ماخلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد اذا حسد. لكن اي نوع من الجن هو؟ طيب، ام شرير؟ فكما تعلمون هناك آلاف من الابالسة والجن والشياطين والمردة والغيلان والمخلوقات النارية العائمة في الهواء او الدارجة على الارض. ثم بدأت بيوت القرية الطينية تبين لعيني، وضجة ديوكها وغنمها وبشرها تتناهى الى مسامعي فشعرت بالامان والفرح وايقنت ان الله لفني برحمته وحمايته ولم اصب بأذى. ثم حانت مني التفاتة الى الرجل، وتخيلوا ما رأيت. الحصى والعرفج والتلال الرملية البعيدة والفراغ الرمادي الذي اخذ يسبح باول اشعة الشمس. لقد اختفى الجن مثلما ظهر، بغتة. لم اجد لذلك المخلوق الناري من اثر.

لم اعد اخرج الى العمل قبل طلوع الشمس، منذ ذلك اليوم. ولم اعد تأخر بعد غياب الشمس، لان المساء مراح للشياطين وبيت للجن والمردة. وانا لا اريد لهم ان يلعبوا علي لعبتهم ويأخذوا عقلي، فلي امرأة واطفال وبيت، كما لم يفارق حجاب الجن زندي منذ ذلك الصباح وحتى الآن.

- ١٠ -

كان منظر الرجل وهو يتلوى على الاسفلت يطاردني اثناء الاجازة بالحاح، اما ذكريات الايام التي قضيتها في الجبهة فتمثل امامي كل لحظة من اللحظات، حتى نغصت علي متعة الاجازة بكوابيسها ورعبها وجعلتني اصل الى قرار الهروب بلا ندم او تردد. لم اخبر احدا في البيت بقراري، وحملت في اليوم الاخير من الاجازة حقيبتي الصغيرة التي تضم كل ما هو ضروري لي واتجهت بعد مشادة حامية مع ابي، الى لامكان.

كانت السماء مفتوحة للتشرد. كان الثيل في الساحات العامة يتلامع بقطرات الماء المرشوشة صباحا، وبيوت الموسرين تسبح بفيض من رائحة النيلوفر والورد وشقائق النعمان والبنفسج والاقحوان. تذكرني اثناء جولاني الليلي بينها، بتلك الجنة البعيدة، التي غادرتها. مدرسة القرية وبستان ابراهيم وأيام الفيضان التي اعقبت زيارة الملازم هجيج الكويتي الى القرية. أيام كالشجر وماض لن يرجع. اتخذت قراري وكفى. لن اعود الى الجبهة ولن ارجع الى البيت. فكلمات ابي لم تكف عن الرقص في ذهني كمالو انها عظايات جائعة.

- الأبناء مثله عمروا لهم بيوتا وتزوجوا، وهو يعتاش علي مثل دودة.

يقضي ساعات بين الورق، ويشرب الخمرة، ولا يصلي، لم ابقيه تحت سقفي؟

لم ينقطع عداء ابي لي منذ طفولتي. عداء مجهول كان يملؤني بالحيرة. ينظر شعري الطويل ويلتفت الى الجالسين قائلا انظروا اليه الا يشبه الفتاة ؟ ابتلع الاهانة بحساسية فائقة، انقلبت بعد ذلك الى مقت متبادل. احاول الدفاع عن نفسي بالعجج، لكن كمن يكلم حائطا. يتشبث ابي بقناعاته، هو الذي يعتبر نفسه اذكى البشر على وجه الارض. ترسخت لديه تلك القناعة بعد عودته من الكويت، وزيارة هجيج لنا، حيث نال منا المزيد من الهيبة والاحترام. كيف يعلمه من خرج من صلبه؟ يقول، ويجد خالي حزم وعمي وجدي والاقرباء الحجة دامغة ويدعونني الى اتباع مايسنه لي ابي من سنن وسماع مايقترحه علي من افكار ونصائح. اتأخر قليلا بالعودة الى البيت فأجده واقفا عند الباب، تحت عمود الكهرباء، متربصا، ثائرا، ليبدأ استجوابه الممل. لا املك الا ان احيك كذبة متماسكة له، فأن لم يقبل بها يهوي بالعصا على جسدي دون تمييز. لا احد يتدخل بيننا سوى جدي. عمي أصبح اكثر حذرا معه بعد تلك الليلة التي اعتدى عليه فيها. كنت ادخل غرفة امي واختبئ في الظلام متفكرا بوسيلة ما اتخلص بها من سلطة ابي وكثيرا ما وجدونني نائما في الصباح على الارضية مختنقا بالكوابيس.

كيف استدار ابي ليكون وحشا كاسرا معي، يتلذذ بتعذيبي وضربي والتنكيل بي؟ هل غيرته حقا سفرته الى الكويت، ام ان انتقالنا الى المدينة وخوفه من انزلاقي الى مفاسدها العديدة وراء ذلك ؟ هل حول غضبه نحو عمي الي؟ اسئلة مثل تلك لم تغادر ذهني طوال السنوات المنصرمة. كنت اقول لنفسي لابد من الهرب، والا سيفتك بي في واحدة من غضباته التي لاتنتهي. اهرب من البيت واشتغل في معمل خياطة. اصير صباغا او صانعا في احدى المقهي التي تثير خيالي بمصابيحها

وروادها والعابها. اشتغل مجلدا للكتب او بائعا للصحف. فكرة العمل، كانت تتراجع الى الخلف كلما ازمعت على تنفيذها. أبي لن يتوانى عن البحث عني والعثور علي. سينتقم مني عندها، انتقامه الاكبر.

لم ادرك السبب وراء كره ابي لي الا اليوم.

أمي تصغره بعشر سنوات. كانت في شبابها فتاة جميلة، جلب لها جمالها عددا كبيرا من المعجبين، في قرية تفتقر للجميلات. معجبين من مختلف الاعمار، بينهم متزوجون، تراودهم الاحلام باتخاذها زوجة ثانية لهم. يترصدونها كل يوم. حين تمضي الى الحقول لجلب النفل او القت او الحلفاء الغضة، تجدهم امامها. حين تشارك في الحصاد يلتفون حولها. تمضي لجلب المياه من النهر فتراهم على الضفاف يتسكعون بحجة اصطياد السمك او العبور الى الضفة الثانية. وكانت هي تنظر وتفهم، ثم تضاعف من الاهتمام بنفسها.

بالورس تطلي الشفتين حتى لتصبحا ثمرتي شليك ناضجتين، بعد ان تبذل جهدا فائقا للحصول عليه، اما من دكان زابط المضحي او من الباعة المتجولين على احصنتهم و بغالهم ذوات الخروج.

بالأثمد تكحل رموش عينيها حتى لتصبحا نافذتين معتمتين، لايرى الرائي مايخفي سوادهما، اذ فيهما سحر وجاذبية غير مفهومين.

بأوراق الآس الذهب تزين عصابتها الابريسم الملفوفة بأناقة على ملفعها، و تتمدد ازاحتها الى الوراء لتكشف الصابرين وازلاف الشعر الاحمر الجعد، الذي يتطاير على خديها كريش قطا.

لم يداخلها الشك يوما بجمالها وجاذبيتها، لذلك لم تكن تتحرج من غزل الشباب وملاسنة المتزوجين، حتى امام جدي واخوالي وعمي. ربما كانت تدرك ان ذلك لايمت الى الجد بصلة، ان هو الا عبث ومرح ولهو.

كان ابي ابن عم لها، غير انها لم تفكر به ولا مرة. تأتي صورته مشوشة كما لو انه اخ بعيد، لاتريد الاقتراب منه اكثر مما يجب. ربما

لفارق العمر، وربما لطبيعة الحياة التي تحياها العائلة مع مابها من ذكريات مختلطة. الكل كان يتندر بحمله لها وهي صغيرة، وما كان يجري خلال ذلك من مصادفات غير سعيدة. فوق هذا فأبي ذو منظر مقبض، سحنته سوداء كسحنة الزنوج، وعيناه مدورتان ضيقتان. رفيع الجسد بارز العظام، ليس فيه اية مسحة من جمال او جاذبية. مفتقر للمرح منطو على نفسه سريع الغضب ملتزم بأمور الصلاة والدين. يرد جدي تلك الصفات الى ان زنجيا اسمه زعّال تغل في حلقه درءا للعين، ولاغرابة من انتشار روح الزنوج في جسده. باختصار كان صورة معاكسة لعمي حسان، ذي الوجه الصبوح والعينين الواسعتين والاصابع الجميلة والعظام الممتلئة.

بدأ يعمل منذ ان بلغ الحلم، اما قبل ذلك ففلاح بالارض التي اشتراها جدي واستقر فيها بعد تعبه من حياة الراعي الذي يركض باغنامه وحميره وجدائه خلف كل خضرة وماء. وهو نفسه من اقترح على جدي ان يبدأ حياة العمل ليجلب شيئا من المال، وقد لمس الجفاف الكبير الذي يتراقص في جيوب الفلاحين المعتمدين في حياتهم على قطعة الارض لاغير.

لم تبق مصلحة الا وتعلمها، ولامدينة الا ومر بها، كما دأب على القول في حديثه عن تاريخ حياته. حمالا اشتغل ومكاريا لنقل التراب في حفريات التنقيب عن الكنوز والحضارات القديمة، فمساعدا لسائق سيارة ثم سائق حفارة ثم كريدر ومنه تعلم خالي حزم مهنته، واستقر اخيرا على سياقة الحفارة فأشترى بعد سنين حفارة كتر بلر صار عمي هو سائقها ومدير اعمالها واستقر هو في البيت حارسا علي ومناكدا.

لذلك لم تكن امي تراه كثيرا، فهو دائما وراء لقمة العيش. ان تكلمت معه فبحكم القرابة والالفة والواجب. قلبها لم تدخله عاطفة خاصة تجاهه. وحين اخبرها ابوها بمشروع الزواج، احست انها كمن

يقدم على التهام وجبة من الطين.

لم تكن تكرهه لكنها لم ترغب به زوجا، كما اخبرتني بعد عشرات السنين وابتسامة غامضة تطوق شفتيها دون ان استطع تفسير مغزاها، اهي سخرية ام اسف!

تم الزواج واعقبه الحمل الاول.

لم ترده على الاطلاق. حاولت الخلاص من الطفل بكثير من الوسائل. ففي الشهر الثاني راحت تتط السواقي العريضة عامدة الى السقوط فيها. في الثالث تسلقت نخلة قرب السدة وقذفت جسدها الى الارض، الاان الطفل، ورغم المحاولات المتكررة، ظل عالقا في احشائها مثل قرادة. في الشهر الرابع جلبت صخرة كلسية من بوابة الساقية ووضعتها تحت بطنها ثم راحت تتلوى عليها وتضغط بقوة الا ان ذلك الجنين، الذي هو اختي، لم ينقد لاغراء الموت، وتلبث في بطنها الى النهاية.

كفت عن التجمل والاعتناء بنفسها، بعد موجة من التأملات والتساؤل مع نفسها : أمن اجل هذا التيس استحم وانظف ثيابي؟ أمن اجل هذا العبد المفلفل الشعر كقنفذ اضع الورس والكحل؟ حتى الحمارة لاترضى به زوجا، فكيف لامرأة جميلة مثلي؟

لم تشعر بالود نحوه الى ان بلغت الثلاثين، وانجبت ثلاثة اطفال اصحاء.

وابي، على غلظته وسماجته، يحس ببرودتها نحوه، ونفورها غير المعلن من كونه زوجا لها. كان يتفكر ويتأمل، باحثا عن سبب وجيه يفسر له ذلك. اليست هي اغنى زوجة على الضفاف؟ عندها الثياب الحرير والابريسم وضلوع بنت الريف والقديفة، عدا العصابات الغالية والذهب. اما الطعام فأوفر من طعام كل البيوت المعروفة لها، فلم النفور وقلة الاكتراث. هكذا كان ابي يشاور نفسه. لم يكن يفكر بمظهره او مزاجه او عواطفه هو، فتلك الامور، وكما يعرف الرجال، متطلبات غير ضرورية لفتيات القرى ونسائها. اتجه ذهنه الى ماتقوم به اثناء غيابه

عن البيت. جرب نار الشهوة في جسده، وصلابة ارادته في كبتها كي لاينزلق مثل عمي الى مباءة النساء. وكان يشك ان امرأة تستطيع ان تمتلك ارادة حديدية مثل ارادته.

راح يتشمم ويستفسر بطرق ملتوية تعتمد على فلتات اللسان والحكايات التي تدور عن الحياة اليومية في البيت اثناء غيابه. توصل الى انها كانت تكثر من التحطيب في بساتين النخيل والحشيش من الحقول وملء اواني المياه من السواقي والسرحان بالبقرة في المراعي البعيدة الخالية من البشر والذهاب الى الغنامة الوافدين الى المنطقة كي تجلب بعر الغنم من المراحات وقودا للشتاء وتكثر من الذهاب الى بقالية زابط المضحي للتسوق وهي تقع قريبة من المدرسة الابتدائية. زابط المضحي يبيع السكر والشاي والحلقوم والصابون والبسي كولا والاقلام والدفاتير والرز وحبة الحلوة والشنان وصبغة الاوكسجين للرأس ولصقات اوجاع الظهر والعطور الرخيصة. يبادل بضاعته بالنقود والشعير والقمح والذرة والبيض والدجاج والمضاجعة، كما اشيع عنه. وابي يعرف كل تلك الشائعات. لكن رغم ايمانه بوجود رجل في حياتها، لم يبح لاحد بذلك. اخفى هواجسه في اعمق نقطة من روحه. في بئر عميقة ليس سواه من يستطيع التحديق فيها وقراءة تفاصيلها. كان يتأمل في شكوكه وظنونه وهواجسه بأوقات نادرة، كأن تكون بعد الصلاة حيث يجلس على السجادة محدقا بشروق الشمس الوشيك خلف غابات الصفصاف او وسط شرود طويل في صندوق حفارته خلال عمل ممل لايتطلب منه انتباها عميقا.

كان يقارن ملامحنا بملامحه تعاريج الانف وعرض الفم ونوعية الشعر والعيون وطول الرقبة ونوعية الحواجب. لايبقي جزءا من الجسد الا ويحاول ايجاد جزء شبيه له في جسده او جسد امي. يستعصي عليه عضو من الاعضاء يعتبره نابيا عن الوراثة فيفتش عنه في ملامح رجل

من الاصدقاء والمعارف والجيران ومعلمي المدرسة وزابط المضحي وسائقي سيارات الحمل. يتم ذلك في بحر مطبق من الصمت كنا جميعا نعده دلالة من دلالات الرزانة التي يتحلى بها.

لم تستطع امي ادراك مغزى النظرات النارية التي كان يصبها علي، ولا مقدار الاحتقار الذي يكنه لي انا خاصة. كان كثيرا ما يقول لي بين المزح والجد انني لااشبهه البتة.

لا يرغب بالعيش معي تحت سقف واحد. ولايريد ان يمد يد العون الى شخص لايطيقه. وبما انني اقيض راتبا من الحكومة استطيع العيش به، اذن هو في حل مني، وما علي سوى تدبير اموري كغيري من الجنود. قال لي امامك الحياة فاسبح في بحرها واعتمد على ذراعيك. الانسان الذي لايستطيع ان يؤثث بيتا الافضل له لو يموت. ثم طردني من البيت دون اسف.

قلت لنفسي اذهب الى مقهى البرلمان علك تجد واحدا من المعارف. مضيت الى المقهى. واول من طالعني هناك عبد علي المحامي. تحف به شلة من الشباب القادمين الى بغداد للدراسة. يتوسطهم بشعره الاشيب المصفف الانيق، سبحته بيده وعيناه الحادتان ترقبان الجالسين. تزوج المحامي حديثا بشابة في العشرين تشتغل معلمة في احدى مدارس الرصافة، لذلك لم يكن يغامر بدعوتنا الى البيت، ويفضل الجلوس معنا في المقهى او الحانة. نحن بنظره شباب نزق لايؤتمن، ومع انه لم يبح لاحد منا برأيه هذا الا انني كنت استشفه من نظراته و وجهه، وجه متذوق الادب والموسيقى وعاشق التحفيات والاضرحة والمزارات والشعر القديم.

عرف الجميع انني طردت من البيت، ولم يعد لدي مكان آوي اليه. فما كان من المحامي الا ان جلس قربي وهمس في اذني قائلا:

ـ انت تعرف عنوان مكتبي، اليس كذلك؟

ـ نعم، مابه؟

- استخدمه طيلة تشردك الى ان تستقر على حال. اقض الليل فيه اما النهار فلا اريد

ان اراك هناك، لان لي مراجعاتي الخاصة كما تعرف، هل اتفقنا؟

- اتفقنا.

أستل مفتاحا صغيرا من جيبه وسلمه لي خلسة دون ان يلاحظه الجالسون.

- لاتخبر احدا بذلك، ومكتبي مراقب على اية حال، فكن حذرا.

- اطمئن من هذه الناحية.

كان كل شئ في مكتب عبد علي المحامي جديدا وغريبا علي، انا الملئ بحكايات الموتى ورائحة التوابيت الملوثة بالدم والقيح، المشبع بأصوله الفلاحية وحكايات الجن والخوف.

انه جراب عجائب مثل التي قرأت عنها في الف ليلة وليلة.

فثمة أوان وتحف زجاجية تتوزع داخل المكتبة وعلى الكومدينو، بالوان واشكال غير مألوفة لعيني. ثمار عنب مفصص العناقيد وموز وبرتقال وشليك وليمون كلها من الزجاج. كؤوس وأوان وصلاحيات مرسوم عليها بالحبر او منقوشة بالنساء والزهور. في واجهة المكتبة صفت اوان ودوارق صغيرة افواهها مصبوغة بالاخضر والاصفر، تجاورها كؤوس بأعناق طويلة، فتحاتها اتخذت شكل مناقير طيور وابواز افاع وخراطيم افيال وخطوم تماسيح افريقية هائلة الحجم، ففي افواهها زرافات طويلة العنق عثرت عليها كما خمنت، في بركة بين اشجار السنط موشكة على الجفاف.

دورق مستطيل ضخم، من الزجاج المحبب الذي يشف عن نسيج مؤتلف مع حبيبات حمر او بنفسجية، اشبه بالرمال الخشنة. كتب عناوينها لاتمت بصلة الى المحاماة، كديوان المتنبي واللزوميات ومؤلفات التوحيدي وبخلاء الجاحظ وروايات نجيب محفوظ ودواوين

سعدي يوسف وتنظيرات شاكر حسن آل سعيد عن الفن التشكيلي والحروفية ورواية الرجع البعيد لفؤاد التكرلي والمثنوي لجلال الدين الرومي. الكثير من الكراسات والمعاجم والكتب الحديثة الصدور والمخطوطات المشتراة من مزادات الكتب او المجلوبة من الجوامع العتيقة. شريعة حمورابي مجلدة بجلاد احمر انيق تجاور قوانين الثورة الفرنسية المجهولة المترجم.

عند قاعدة النافذة المطلة على شارع الصالحية، دورق آخر، رسم عليه نمر بنغالي على خلفية صفراء مرقشة بنقاط صفر وحمر ورمادية، جنبه فسقية خضراء مشعة كان فمها مستطيلا. خضرتها مثل لون البحر في نهار مشرق. وفسقية اخرى ناصعة شفافة زجاجها يعكس الضوء منها واليها فتتكون في جزيئاتها اقواس قزح ساحرة، تنقل البصر الى اجواء غير ارضية البتة، وتغيبه ساعة عن ضجة علاوي الحلة ونداءات باعة الدجاج والمخضر وسيارات الشرطة والاسعاف وزمورات الباصات والناقلات. حين يتخلص المرء من السحر ذاك، يعوم بصره ثانية في عالم الكرستالات. كرستالات تؤلف حيوانات واطيار ومخلوقات مؤتلقة:عصافير، فراش، ببغاوات، دببة، بط، سرطانات، ديوك حبشية، كلاب بحر، اوز، قنافذ مدببة الاشواك متأهبة لطعن الفراغ والجيران من بزاقات موضوعة على مرآة زئبقية تعكس الاضواء المسلطة على الكرستال، الذي يعكس هو الآخر تلك الانعكاسات. فتضل العين في متاهة انوار وتراقصات لهب ودوامات اشعة. تقسر الاذهان على التيهان بخدع المحامي التي نصبها دون شك، لزواره واصدقائه ومعجبيه.

وبعيدا عن المتاهة النورية، وشبكة المحامي المنصوبة بأتقان، يوجد ثمة قوس لبوابة عالية. تصميمها لاينتمي الى تصاميم بيوتنا وملاجئنا وحصوننا القديمة. يقف وسط القوس رجل غريب الهيئة، له رأس خنزير يتطلع امامه بطمأنينة مخدرة، وهو ليس من النوع البري

المعروف في أهوارنا وسهوبنا، بل هو ناعم الراس مثل فأرة ضخمة. يلبس معطفا طويلا يصل حافتي حذائيه، وذو لون اسمنتي لايتجاوز طوله العشرين سنتمترا. كيف حصل المحامي على ذلك الخنزير ياترى؟ من اي البقاع جلب القوس والاواني الكرستالية؟ . لقد احاطت تلك الاشياء الغريبة شخصية المحامي بمزيد من الغموض في نظري. لم اكن قبل اليوم اصدق حكايات المحامي وأشاعاته، اما الآن فأظن انني سأتعامل معه بجدية اكبر. فهو يخفي الكثير.

- ١١ -

يقع مكتب عبد على المحامي فوق محل لبيع المخضرات. يصعد اليه بدرج عتيق متآكل الدرجات جنب المحل، سبب كما اخبرني المحامي كثيرا من الحوادث للبدو والنساء الحوامل والارامل السمان ممن كانوا يراجعون المحامي لانجاز قضاياهم. المكتب يفوح بالملفات والقضايا والفضائح اذ جعل المحامي من نفسه الاها عادلا للفلاحين المظلومين والمطلقات اللاتي يطلبن نفقة من ازواجهن والسياسيين القدامى الذين فتكت بهم التحولات الهائلة في البلد ولم تعد حيلهم القديمة بقادرة على انجاز معاملاتهم وزوجات الجنود المفقودين المطالبات بتعويض او ارث. الى ذلك المكتب اتسلل عبر الدرج بعد ان يغلق محل الخضار ابوابه وتختفي حركة المرور من شوارع الصالحية وعلاوي الحلة. يكون تسللي حذرا عادة، فالمنطقة ملغومة بالجيش الشعبي والشرطة السرية والانضباط العسكري، الذين كنت اتجنبهم مثل سم، رغم اني احمل هوية مزورة لطالب جامعي. الاشاعات متواترة والبشر شكاكون. ثمة شئ مرعب في الهواء، يحسه المرء لكنه لايراه، يحسه في واجهات الابنية واللافتات والعتمات التي يقف فيها اشخاص مجهولو الهوية والاختفاءات المتوالية للناس. كل شئ يدعو للحذر

والتوجس وعدم الثقة، وهو ماكأن يدعوني الى ان احاذر حتى في دوسي على مخلفات المحل المتكومة قرب المدخل كقشور الرقي والطماطم الفاسدة والباذنجان. اخبرني المحامي ان صاحب المحل يشتغل لحساب شرطة الامن، لذلك لم يكن يتورع عن رمي مخلفاته في الشارع رغم تحذيرات مفتشي البلدية. وهذا الامر ضاعف ايضا من خوفي وجعلني لا ارجع الى المكان الا بعد ان تطفأ اضواء المحل واحس حاجة للنوم، في وقت متأخر من الليل. مع ان الهوية المزورة التي دبر امرها المحامي كانت تدخل الي شيئا من طمانينة. قال لي المحامي ان امر مساعدتك قضية وطنية طالما تقف ضد هذه الحرب. عد هروبي علامة رفض ومقاومة لايستهان بفعاليتها للسلطة. علامة تبشر بخير. كنت افكر ان المحامي متفائل اكثر من اللازم واعزو ذلك الى سنه الكبير وخبراته العميقة في الحياة. ووجهات نظره هذه تجعلني اقرر أن اكون متفائلا مثله، لكنني كلما رأيت الملجأ ذاك والاستعدادات السرية في الشوارع والحركة غير المفهومة بين الناس اعود الى ايماني السابق من اننا قادمون الى نفق مظلم لايمكن التكهن بمحتوياته او نهايته.

ادخل فتواجهني غرفة واسعة، اتخذها المحامي غرفة انتظار للمراجعين، فيها طاولة عريضة تنتثر عليها مجلات عديدة كالشبكة وفنون والف باء والتراث الشعبي، اضافة الى جرائد يسود اغلبها الى تاريخ قديم يضعها درءا للعيون. تحيط بالطاولة كراس خشبية ليست على هيئة جيدة. من السقف يتدلى مصباح تراكمت على سلكه الاوساخ وبراز الذباب كان يذكرني بالمشنقة كلما وقع عليه بصري.

الجدران مقشرة الطلاء دبت فيها الرطوبة، التي ابتدات من الزوايا وزحفت نحو اجزاء واسعة منها. كان ضوء المصباح يحيل كثيرا من رسومها الى كائنات خرافية وتوابيت وغيلان ورؤوس مقطعة وبشر بذقون ضخمة، وهو ماكان يضطرني الى اطفاء المصباح سريعا بعد

دخولي والتوجه الى النوم والعتمة.

فراشي بطانية عتيقة ومخدة، اطويهما بعد كل ليلة ثم ادسهما تحت احدى الارائك كي لايلاحظهما المراجعون. جلبهما لي المحامي من البيت بعد ان اخبرته انني انام على الاريكة. المكتب غير مبرد، والمروحة الصغيرة العتيقة الطراز المعلقة في واحدة من زوايا الغرفة بالكاد كان هواؤها يصل الي، لذلك كنت اقطر عرقا مثل كيس ملئ بالمياه. وكنت اضطر لفتح الشباك المطل على شارع الصالحية ساعة او ساعتين مع احتفاظي بالنور مطفأ لادع شيئا من برودة الليل تتسرب الى اعضائي.

كان عبد علي المحامي يراجع قضاياه ويلتقي زبائنه في غرفة صغيرة، يلج اليها الناس من غرفة الانتظار عبر باب زجاجي ذي لون اصفر انيق، ولانها غرفته الشخصية فلم اكن ادخلها الا حين يستحكم لدي الفضول لاطل على عالمه السري، ومقتنياته الشخصية. خزائن الكتب والزجاجيات العجيبة والتحفيات. أمتع بصري بتلك الكرستالات الضوئية المشعة التي تنقلني الى عوالم خيالية بعيدا عن الحروب والحرمان والرعب الذي يولد لدي منذ الصباح ويتابعني حتى في احلامي.

كل شئ في المكتب يثير فضولي وخيالاتي. تقع عيناي على الرجل ذي الخطم الخنزيري بمعطفه البشري فأنسبه الى جزر افريقيا واعيش عالم الطيور الصادحة في الغابات المدارية ونداءات القردة المتعلقة باطراف الشجر والحياة البسيطة المنسفحة بين الغابات والانهار. الحياة التي تختلف عن حياتنا ولاتنتسب الى تاريخنا المؤلم. القوقعة الكرستالية الموضوعة على المرآة الزئبقية اجزم انها صنعت في باريس. الضوء والخمرة والحرية. يرتسم في ذهني المحل الذي باعها للمحامي فأمني روحي بنظرة خاطفة له. تتناوشني الاحلام وتنسيني نفسي فلا افيق الا على قرقعة اسلحة الجيش الشعبي والسيارات العسكرية والرعب المنسوج على جسد الليل. تنصب قطرات العرق بعد

نسيان، على شفتي وتنغل في عيني. انني اعيش في عالم خانق لابصيص فيه للنور. عالم نمل ورهانات وقتل، يتجه الى الهاوية. عالمي المحصور بين المكتب والتشرد في شوارع بغداد، ورؤية الاحلام المختلطة بالكوابيس. كل ذلك كان يملؤني بالحسد للمحامي، حسد لحياته الغنية واكتشافاته وحبه للتجوال لغرض المعرفة. كان يقضي اوقات فراغه في المزارات والاضرحة والابنية العتيقة كروح هائمة جاءت من الماضي. يدخل التكايا كأي درويش او متصوف. يتكلم مع السدنة والحراس كواحد من اهل الطريقة. يسجل رحلاته تلك واكتشافاته وملاحظاته في دفاتر وجدتها ذات يوم مكدسة في مكتبته تنتظر طبعها، الا ان البلد مشغول عن مثل هاته الامور كان يقول لي. عليّ ان انتظر زمنا آخر اكثر هدوءا. زمن لن يأتي، اردد لنفسي مجيبا على حيرة المحامي.

قلت له يوما وكنا جلوسا في مشرب شريف وحداد:

- اكتشفت ملجأ عملاقا لايزال البناء فيه متواصلا. قيل انه يقي من الصواريخ والانفجارات النوويةوالقنابل العنقودية والانفجارات الفراغية. في قلب بغداد هل تصدق ذلك؟ الشئ المرعب انه يجذبني اليه دائما. ولااعرف لماذا.

- لقد اكتشفت بلاطة يعود تاريخها الى خلافة المأمون.

شعرت بالحرج من تجاهله لي. صمت برهة ابحث عن السبب. توصلت الى ان المحامي لايرغب بالغوص في ترهات الحاضر كما كان يسميها. انها خالية من النبل ولاتستحق الحديث عنها. اي نبل في الحديث عن ادوات القتل وملحقاتها؟ لكن رغم حرجي ودهشتي من موقفه اثار موضوع البلاطة خيالي وانتظرت ما سيقوله المحامي.

- هل تعلم ماكتب على سطحها؟. . . . تلك هي الحضارة. الحضارة ليست بناء

ملجأ يقي من الانفجارات النووية.

- حدثني عما كتب عليها، لابد ان يكون حكمة من الحكم، فذلك العصر كان عصر
حكمة.

- اسمع: صدح الديك فأسقنا خمرة تجعل الحليم سفيها

المشرب يفوح برائحة العرق المستكي. لايبعد كثيرا عن محل لطيف.

الرائحة تجبه الداخل من الباب، لها وقع موجة لزجة كثيفة ثقيلة جعل منها الصيف غراء يتخلل الجسد والذهن وتلافيف الذاكرة. كانت غيوم الدخان تزيد من سرية المكان وطقوسيته. احسسنا بأنفسنا نجلس في دير نصراني ايام المأمون. الوجوه وجوه خمارين والكلام كلام الغرائب التي يصطادها المسافر في بحر الحياة.

راحت طاولة الخشب تمتلئ بالمقبلات من بينها اللبلبي والخس والسلطة، تتوسطها قنينة عرق سائلها مشعشع بالاضواء الخافتة المتناثرة في الزوايا وعلى الحيطان. وجه المحامي متألق بالحمرة وعيناه مرحتان تجولان في وجوهنا. كان يخرج من حقيبته، بين الفينة والاخرى، تلك البلاطة العجيبة التي حدثني عنها.

قرعنا الكؤوس وشربنا. دبت في رؤسنا ارواح قدمت الى مجلسنا من امكنة لاتخطر على البال. من نافذة نائية في قعر ذلك المشرب كان دجلة يبين رقراقا مثل خيط لازورد.

وضع عبد علي المحامي بلاطته على الطاولة للمرة الاخيرة. انها توحي بالسنين الماضية وتدعو العين الى التأمل والقلب الى البهجة. في مساماتها قطر خمر معتق، وفي حروفها روحانية لاتنتمي لهذا الزمان. فالالف مئذنة تنادي على احبابها، يحيط بها عاشقون ذابوا بنور المحبوب. التركواز فيها سماء كون، تمتد بلا حدود، سرها لايطلع عليه

الا كل من يقدر على حفظه. الخاء في خمرة صدر ضم الله بين جوانحه. النقطة نبت بعد ان تضاءلت امام القدرة، وستظل سابحة الى ان يمد لها سلم او معراج لتعود الى بارئها ومنشئها السابح فوق الحروف والمعاني. الدال دموع عشاق. النون نقطة الوصول. الكاف كأن الزمان وهم على بساط واسع في جنة معرشة الاغصان مسكونة بالحوريات اللائي يظهرن في الاحلام راسمات لبني البشر اقدارهم ومصائرهم.

رتشف المحامي كأسا ثانية صرفا، عجبنا لقدرته على ابتلاعها رغم تقدمه في السن. أعقبها بملعقة جاجيك وسيجارة كاد ان يحولها الى رماد بمصة واحدة. مد يده الى جيبه واخرج ورقة مطوية بعناية. اعتدل في كرسيه ذي المساند وقال:كتبت هذه القصيدة في مدح شلتنا فأسمعوا. قصيدة عمودية تمتدح كل واحد منا مشيدة بمناقبه التي اطلع عليها المحامي فكانت حصتي خمسة ابيات تشيد بشجاعتي في مقارعة الظلم والطغيان وعدم رضوخي للحكومة وقوانينها. لم ينس السخرية من الحرب الدائرة على الحدود الشرقية، وكان ينبغي لها كما المح في بيت جميل، ان تدور على الحدود الغربية. انهى القراءة وجفف عرقه بمنديل ابيض وارجع الورقة الى جيبه ثم بدأ يسهب بالحديث عن حياة البغداديين ايام المأمون وعيناه لاتفارقان تلك البلاطة. كانت تمده بالكلمات وتفتح له ابواب الحكمة. وبذاكرة عجيبة اخذ يحدثنا عن المدارس والخانات واعاجيب التصاميم التي شاهدها او قرا عنها، ولماذا اقيمت ولمن من الحكام والولاة. في ذلك لايكف عن احتساء الخمرة بمزيد من النهم والمتعة، الى ان فاجأنا بمد يده الى الحقيبة. ظننت انه سيخرج بلاطة ثانية او عقدا من اللؤلؤ كانت ترتديه اميرة من الاميرات او رقا كتبت عليه قصيدة من قصائد ابي نواس. بدلا من ذلك اخرج كراسا مطويا بعناية ومزخرف الجلاد ثم قال:ليلتنا هذه ستكون ليلة عباسية فافتحوا عيونكم وركزوا اذهانكم، فذا تاريخنا الذي لاينغي

له ان يضيع. لن تقضي عليه القنابل والصواريخ، انه يختبئ تحت جلودنا. بدأ يقرا من ذلك الكراس راجعا بنا مئات السنين الى الوراء. عند حوران، الوادي، مدينة يقال لها اللجاة، فيها من البنيان مايعجز عنه وصفه العقلاء، دور ودور ودور، كل دار مبنية في الصخر، قطعة منه، وليس في الدار خشبة واحدة، الابواب، الغرف، السقوف، من الصخر المنحوت بأزاميل الجن، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لايلاصقها شئ، وكل دار قلعة حصينة. اذا خاف اهل اللجاة، وكثيرا مايخافون من غزو البدو ومردة الوادي وشياطينه، ينزل كل انسان الى داره بجميع عياله وخيله وغنمه وبقره، فيغلق بابه ويجعل خلفه حصاة بحجم منقار الوزة، فلا يقدر احد على فتح ذلك الباب حتى لو اجتمعت الخليقة كلها.

في مدينة حمص، مدينة اخرى تحت المدينة المسكونة، وهي من عجائب البنيان. فيها بيوت وطرق وحمامات ومياه جارية وبشر، لايعرف عديدهم الا الله سبحانه وتعالى. وقد حار الباحثون والآثاريون في امرها اليوم، فقد وجدوا خبرا عنها في كتب التاريخ لكنهم لم يعثروا على اثر لها اثناء تنقيباتهم. اما كيف وجدت وكيف اختفت فهذا سر لم يصل اليه احد. فما كان مني الا ان قلت له ممازحا وقد راقت لي فكرة المدينة السرية:

ـ استاذ عبد علي هل تعني ان تحت بار شريف وحداد بارا آخر؟ شبيه به يقدم خمرة

من اعناب اخرى ويجلس فيه بشر مثلنا وعلى النسق نفسه؟

ضحك المحامي وانشد:صدح الديك فأسقنا خمرة تجعل الحليم سفيها، ثم غمز ولمز ولوح بذراعيه والتفت يمينا وشمالا الى الجالسين بوجوههم السمر المغلقة على هواجسها ونياتها واغراضها. من هو المتنصت على من، من هو الهارب من الكلام ومن هو المترصد له، لا احد يدري. المحامي لايخاف، لسانه مثل سكين حادة. همس بجدية

قائلا :كلا، لايوجد بار معكوس لبارنا ولكن توجد دهاليز وطرق وممرات وزنازين. ليس تحت البار انما تحت المدينة كلها. لايقدمون لزوارها العرق المستكي ولا الخس ولا النظرات الودودة التي تتوق الى صداقة نزيهة عن الاغراض. مدينة بلا اشجار وزهور، اذ لاتطلع عليها شمس ولا قمر، الاطيار فيها مفقودة، الداخل اليها خائف والخارج منها يائس لايتبقى من احلامه سوى حلم الخلاص. الموت الذي سينقذه من كوابيسه. مثل المدينة المتوارية تحت حمص، تقدم بدلا من العرق سما زعافا يمضي بشاربه الى ملكوت الظلام وارض الغربة في العالم السفلي الذي تحدث عنه اجدادنا البابليون.

عالم لا يرجع منه داخل. بدلا من المزة المرصوفة امامنا كأنها كواكب تضئ دروب المستكي فثران نتنة مقلية بزيت نتن ورز مدود ومرقة تسبح فيها الصراصير. أما المراوح التي تروح لنا وجوهنا وتنشف عرقنا فتستخدم هناك، تحت، لتعليق الزبائن من ارجلهم واياديهم. تدور بهم وتدور حتى يفقدون الاتجاهات. يحسبون الشرق غربا والشمال جنوبا. تتداخل لديهم الاحداث وتتشابه الوجوه ولايبقى لديهم شيئا يخافون منه او عليه. يبوحون بمايعرفون. يتخلون عما يقدسون. يكفرون بحيواتهم السابقة ويروحون يخططون للبدء من جديد. لرسم سيرة لم يكن يعرفونها الا من خلال الحكايات.

افران لحرق البشر، احماض للخلاص من العلامات الفارقات، كلابات لتمزيق الاعضاء، درابيش تغرز في الجنوب والرقاب، اسرة قاسية لمضاجعة النساء والرجال والولدان ملوثة بالبراز والقئ والدم والمني. ينظفها كل اسبوع عمال قرفون، يودعون تلك المدينة بالبصاق واللعنات والتأفف دون بوح. مهنة حقيرة تورطنا بها وصار الفكاك منها صعبا يقولون لارواحهم. لكن اين هو السبيل؟

كنا نصغي ذاهلين. قلبي بدأ يدق بين اضلاعي. تلمست هويتي

المزورة وغشتني خيالات الرعب والسنة كل ايامي السابقة التي عشتها في الجبهات ومعسكرات الجيش وشواطئ دجلة المعفّرة بالنمل والنفل والطين. كان عبد علي المحامي يقودنا بحديثه الى منطقة محرم التكلم فيها او سماع قصصها واخبارها. لم اكن متأكدا هل لعب برأسه السكر ام كان يرغب بالتفريج عما يضغط على روحه. فتلك الامور لم اكن اجرؤ الكلام حولها حتى مع لطيف، رغم اننا كثيرا من اشرنا الى حدوثها بالتورية والالغاز والايماءات البعيدة. الصدور وحدها الكفيلة بكتم الاسرار في وقتنا هذا.

اطبق عبد علي المحامي كراسه الانيق، وارتشف كأسه واعتدل في جلسته. شعرت بالراحة والاطمئنان، فهو لن يزيدنا بالحديث، ولن يتوغل اكثر في دهاليز المدينة المعكوسة التي كنا نخاف حتى من التفكير بها.

علي ان انتقل من مكتب المحامي، انه مكان غير مأمون. المحامي في دائرة الضوء، وربما يجلب له لسانه مشكلة كبيرة يوما ما. سأكون اول ضحية لسقوطه في شرك رجال الامن. لكن اين اذهب؟ هل اخبر لطيفا بقضية هروبي من الجيش؟ هل يمكنني الاعتماد عليه هو العسكري مثلي، الذي سأضع حياته ايضا في كف عفريت. هل اوصي الفران او مالك الاقرع لايجاد غرفة لي في زقاق من ازقة بغداد ؟ هل ارجع الى ابي نادما واضع مصيري بين يديه؟ هل ابحث عن الملازم مأمون بعد هذه الغيبة الطويلة في شوارع الحيدرخانة عله يجد لي مخرجا؟ كانت الاسئلة تتصاعد في رأسي مع ابخرة الخمرة والضجة المصمة والتحديقات التي لايمكن تخمين اغراضها. كنت ارغب بالبقاء في البار الى الابد. ارغب ان لاينتهي هذا الليل ولا تشرق شمس الغد.

أنا قادم على اعداد كتاب مثل هذا، حول المدن العجيبة والمباني التاريخية والخانات والمراقد. هي مهمة تناسب عمري، ولها اهمية كبيرة، فالبلد مشغول بالحروب ولايعير بالا لتلك الامور. يهمه بناء ملجأ اكثر من

ترميم مرقد. الحاضر فقط يمتلك قيمة اما الماضي فها انتم ترونه يختفي شيئا فشيئا عن الاعين والاذهان. انها مهمتنا نحن الجيل القديم فالحاضر اصبح كابوسا لايطاق. اختفت كلمات المحامي وماعدت اسمع منها شيئا. وجدتني اقف على سفح جبل يطاول الغيوم، اكثر ارتفاعا من شجرة الجوز والوادي واجنحة الصقور وظهور البغال. جبل تتكاثر فيه الدفلى والممرات المزهرة بعيون الثعلب وفوقي تتناثر بيوت معلقة بين الصخور، يلفها وشاح خفيف من الضباب. الشبابيك تتوهج بنور غريب، قادم من لامكان، و ثمة انعكاسات باهرة تزيد من بياض البيوت وتجعل لها مرأى مدينة معلقة في رأس الجبل. أي مدينة هذه؟ اي اشجار من عقيق وابواب من حديد وشوارع مرصوفة بالآجر الازرق المزين بابيات من الشعر مكتوبة بالخط الكوفي. كيف اصل الى تلك المدينة، الحلم، ومتى؟ غابة من التعابير الشمعية والايدي الملوحة والافواه المتكلمة. لليل دورة كأس وضجيج دولاب تعذيب. لليل هيئة نفق سيجرني الى عالم المكتب المظلم الساخن، المغلف الجدران بالاشكال الخرافية المرعبة التي لا اعرف متى تنزل من امكنتها لتلتهمني دونما اثر. عرق وقصص تهمز نفسها في فضاء البار، ساعية للهروب الى دجلة بأجنحة من هزائم وتشردات واخفاقات. حيث النهر كسول والضفاف نمل وجنود. قال لي المحامي بعد ان لفظنا الباب الى الليل:

- الى اين تمضي؟

- الى المكتب طبعا. اود ان ارتاح بعد هذه الجلسة الممتعة.

- يوما ما سنجلس هناك سوية لتحدثني عن حياتك، واحدثك عن اشياء لم تسمع

بها قبل اليوم. ساروي لك عن المدينة السرية المتخفية تحتنا. لم تسمعوا سوى نتف من الحكاية، اما الآن فوداعا.

تركني المحامي واتجه صوب الميدان. ودعت الباقين ثم سرت دون هدف في شارع الرشيد. شعرت بجوع مفرط فمضيت الى زقاق جانبي

حيث تقف عربة خشبية حولها صاحبها الى مطعم متحرك بقدم التكة ومعاليق الغنم والكباب. تناولت على ضوء لوكس متوهج اربعة اسياخ من كبدة الغنم. لم اتكلم مع الآكلين وكانوا جلهم من السكارى. فكرت بشرب قدح من الشاي فلاح لي وجه فتاح افندي يومئ لي بالمجئ.

دخلت شارع النهر وسرت قرب الحيطان. كل نامة في الشارع تشعرني بالخوف وكل صوت احسبه موجها الي. بعد عطفة صغيرة رآني فتاح افندي وهتف لي قائلا:

- اين اختفيت، كيف حال جلولاء؟

اوشكت ان اقول له لاتتكلم معي في هذا الموضوع، لكنني احجمت عن ذلك كي لا ابعث الشكوك حولي. كان كوخه مليئا بالسكارى وعمال الليل واصحاب الوجوه المريبة. فضلت ان اجاريه في كلامه فقلت له مبتسما:

- كل شئ بخير، انا في اجازة قصيرة وسأعود غدا. لقد نقلوني الى الاهوار.

- لم ار لطيفا منذ اسبوع، محله ظل مغلقا. اعتقد انهم في حالة انذار ولم يسمحوا له

بالنزول الى بغداد. هل التقيت به ؟

- كلا، لقد قضيت اجازتي في البيت.

- ماذا تعمل في الاهوار؟ هل تصيد البط والوز، ام السمك ؟

قهقه بصوت عال، لم استطع ادراك ما اذا كان يسخر مني ام من الحرب ام يتكلم بجد. فتاح افندي يخلط الجد بالهزل. اردت ان اسأله عن احواله وما اذا كانوا يمضون الى ميدان النمل كسابق العهد، ام انهم وجدوا لهم لعبة جديدة. مرأى فتاح لا يوحي بالطمأنينة. انهيت شايي وودعته. كانت الساعة تقارب الواحدة حين اتجهت الى الجسر، نحو مكتب المحامي.

- ١٢ -

قال لي رجل يدور حولي بصبر نافد:

- اود ان اروي لك قصتي، انني افكر بها منذ خروجنا من النفق. انها تؤلمني واريد شخصا يستمع الي. لم اتجرأ على روايتها عندما كنا احياء. انت تعرف الظروف.

- لاوقت لدي الآن. فيما بعد، أنا افكر به، مشغول بحكايته التي لاتنتهي.

- بمن؟

- ذلك المتواجد بكل الامكنة، مثل سيف مسلط على الرؤوس. ابتعد عني الآن وسوف استمع لك لاحقا. انا الآن محمول على جناح التأملات، الطائرة بي بين الاحياء والمدن. اريد ان ارى كل شئ واسجل كل شئ في ذاكرتي.

كانت حركة المرور كثيفة، عند الساحات، في الانفاق، وسط التقاطعات، وفي الشوارع الرئيسية. مصفحات، ناقلات جند، ناقلات صواريخ عملاقة، مغطاة بالجنفاص للتمويه، عربات تجر مدافع يعتليها جنود ملتحون معفرون بالتراب كانوا يرسمون علامات النصر للنوافذ المفتوحة وتجشآت السكارى وفضاءات الجسور وسعف النخيل.

يرسمونها بآلية كثيرا ماكانت توحي للصبية بصور مضحكة والغاز لايفهمها سواهم. لكنه الوحيد الذي يراها ويفهم مغازيها، فهم مثلي يرونه في كل مكان مروا به. في كل زاوية او زقاق. عند التقاطعات، بأعلى زاوية جسر بعقوبة، يطل من واجهة بناية نقابة المهندسين حيث كان يحير الجالسين بنظراته المسلطة عليهم، ببذلة اسكافي، بحلة رعاة البقر، راكعا على الارض متشقا التراب، باحثا عن سر الخليقة، موحيا لباصريه بتجليات روحية عميقة، مصليا في الحضرات والجوامع والتكيات، رافعا يديه للدعاء. على ظهر حصان ابيض مرتديا زيا بدويا، كرسته الشمس الحارقة المتسلطة على الصحراء من آلاف السنين. يشير ويلوح ويبتسم ويبحلق ويخزر ويبارك ويحيي ويغازل ويهدد ويتوعد ويرجي ويؤمل ويميت ويحيي.

ما الذي ينتابه وهو يتطلع من سطح بناية عالية الى رعيته، نحن، القصابين، البنائين، الجنود، بائعي الشاي، الخبازين، الدفانين، الفجر، المؤذنين، الحمالين، الطائرين بين السماء والارضين، بين الحياة والموت، بين السر والعلن؟

ما الذي ينبت في ذهنه من افكار وهو يحدق الى هذه المدينة المنكوبة؟ الى هذه المدينة الكابوس؟ كابوس كان يسيطر على ملايين البشر. بركان رعب طفى لاشهر حسبناها قرونا. قرون موت تخللتها قنابل منشطرة تلد اخرى، وصواريخ توماهوك ترسل اصواتا لاتحتملها الاذن البشرية. تفجر الدماء من الآذان. توتر الاعصاب. تدفع الى خبل غير مفهوم. كوابيس يصعب البوح بها، تمرأت في هيئة رجال بأبواز ماعزية يهاجمون الناس في الفجر، ورابوتات ترتدي اقنعة خرطومية واقية من الغازات السامة. رجال لا احد يعرف من اين انبثقوا كانوا يمسكون بنادقهم الرشاشة وقاذفات صواريخهم الموجهة الى قبضات الابواب وافران الخبز وانابيب المياه المتكسرة والعيون المتلصصة من

وراء الستائر المسدلة والحمام والسنونو واوراق اليوكالبتوس في الحدائق المهجورة وسعف النخيل المحترق الاطراف من شدة القصف وتنوعه.

أي الكوابيس تتبلج لعينيه، بعد الموت الباذخ الذي انتشر في كل مكان؟ انه لايرانا حتما، ولايحس بنا، نحن الارواح الطائرة في العلى، الناظرة بأسف، لما حل بتلك الارض المباركة اللعينة الخضراء القاحلة. كيف يرانا ونحن نتوارى في الظلمة البلورية الملوثة ببقايا البارود والاشعاعات النووية النازة بالانعكاسات من اضوية مدن شاسعة، هو ابوها. هو من اكتشف لها الزراعة، واخترع لها الصناعة، وابتكر لها الابجدية، وروض لها الانهار، واسس لها الشرائع، وقهر اعداءها، واسس مدنها، ونشر فنونها وآدابها، وأفاء عليها الخير والبركات. هو الذي انشأ جيشا عرمرما بين جيوش العالم، وشق نهرا ثالثا سيحول الصحاري الى جنان ويزيل ملوحة المستنقعات التي يعشش فيها الانوفلس وتفوح منها روائح روث الجاموس. اصلح مجاري المدن، وازال امية العقول، وانقص النخيل فمنع انتشار الظل، درءا لموت الحمضيات والبقول. صارع عباب الفرات بجسده الاسمر وشاربه الكث الدال على الرجولة المفتقدة قبله والتي ستموت بعده. رمى حاسديه باحواض التيزاب، زرع الصحراء الممتدة بين الفلوجة والرطبة بمخازن الاسلحة وملاجئ الطائرات بدلا من خيام البدو المصنوعة من شعر الماعز واباعرهم الملوثة بالجرب. قتل الضب وفرش الطرقات بالاسفلت، وحددها بالارصفة رحمة بالماشين. رفع سيفين هائلين في سماء بغداد وفرش الارض تحتهما بخوذ المقاتلين الذين طفت ارواحهم على رخاوة الضباب. اشعل آبار النفط كي يتسلل الضوء الى فلاحي ابي الخصيب وبدو الجهراء وعاهرات حي الطرب وحفائر الصيادين وكابينات حراس السكك، فمجده الشعب والهه، ثم القاني الى موتي وبعثرني في الاسواق. طيور

وسمك ودجاج وكلاب. اقفاص خشبية مصنوعة باليد، جلبت أقصابها من مستنقعات المحمودية وبلد والكاظمية. اقفاص من صفيح، من خيزران، لعقداء مهزومين وتجار ومضاربين وموظفين كبار لهم علاقة بالسوق السوداء التي تعرض بضاعتها تحت الجسور وعند الحانات وعلى اطراف الازقة. كان الاطفال من افضل مشاهدي سوق الطيور. يمشونه من بدايته الى نهايته في تأمل لاينقطع. ثمة عالم حيواني ضاج زاعق يجدون فيه الحمام. والطاووس، الارانب والدجاج، الدراج والسلاحف. مخلوقات لاتشكو فراق حبيب ولا رعب العيون والتماثيل والصور واللوحات الجبسية المركومة والمعلقة والمدلاة، له وحده. كانت ايديهم تتمسك بألعابهم ونقودهم، النقود الضئيلة التي سيرمونها عند أقرب بقالية من سوق الطيور. تجذبهم الرفوف الغاصة رغم الحصار. شراب برتقال مصنع في فلوريدا، علب سلمون اسكتلندي مدخن، اوعية صلصة المايونيز، صلصة بيرنز، جبنة الشدر، انواع من التوابل ومعلبات السمك كالتونة والسردين، زيتون يوناني من نوع لاماتا، محار بحري معلب، لحم بقري مملح عليه رسمة رأس ثور بقرنين مرعبين. انواع عديدة من الشراب، كوكاكولا، فانتا، ببسي كولا. لااحد يتساءل من اين تصل بضائع مثل تلك الى بلد في حالة حرب مع الجميع. اطفال لايتساءلون، مشغولون برؤية الطيور والدواجن والبشر من نساء ملفوفات بالسواد وجنود متعبين خائفين قلقين من الايام القادمة وكهول مهدمي الاسنان غير حليقي الذقون. لااحد يتساءل، وكانت الفوضى هائلة والغبار يلف كل شئ.

في غفلة مني اقترب الرجل مرة اخرى، في حالة يرثى لها. عيونه أحزان ووجهه اسى، اجنحته لوعات وهلامه قصة القصص التي كان يرويها دائما. لايكف ان اعتمت السماء ولا يسكت ان بدر القمر فوق المدن. انها قصته الوحيدة التي عاش تفاصيلها ويتذكرها بعد عبور

النفق. كان الامر غريبا علينا، فهو لم يحدث الا له. لكنني قلت له قبل ان استمع اليك بأمعان عليك ان تسمع ماحدث لي انا وبلبل حياتي ذات يوم.

البناء الذي ادخلني اليه الشاب بناء منخفضا اسمنتيا لايمكن لاحد ان يخمن مابه الا بعد ان يدخله. لايلفت النظر من الخارج، كأنه بيت ضخم او دائرة حكومية متواضعة، الا ان هذا من الخارج فقط. لابد ان اكون قد مررت به قبل ذهابي مع عمي الى البصرة عشرات المرات، فالشارع مألوف لي والبناية ايضا.

اول ما لفت انتباهي عند الدخول الجو المريب الشائع في الممرات والجدران، اضافة الى الصرخات الخافتة والآهات المكتومة التي خمنت انها تصدر من الاسفل، من الارض، تحت اقدامنا فنال ذلك عجبي واستغرابي، الا انني لم اكن خائفا. لم اخف حتى حين عرفت انني داخل الى بناء لشرطة الامن.

ادخلني الشاب الى غرفة صغيرة فيها طاولة يجلس عليها ضابط بلباس مدني، نظراته الي تحاول ان تجعلني اشعر بالخوف و الذنب، او على الاقل تحاول جري الى بحيرة من الظنون. لم تصدر مني سوى علامات الدهشة، الدهشة من جلبي الى هنا وادخالي الى هذا البناء المقبض ذي الهمسات والاصوات ووقع الاقدام التي لايرى احد مصدرها او الاشخاص الذين تصدر عنهم.

- اسألك سؤالا واحدا واجبني بكل صراحة:لماذا تريد الهرب الى الكويت؟

السؤال فاجأني تماما. وقع علي وقوع حائط خرب، او ضربة غير متوقعة. من اين لهم معرفة نيتي تلك؟ اذ ان فكرة الهروب تلك لم اخبر بها احدا الا صديقي نجما. هو طالب معي في الصف نفسه. كان يبوح لي باسرار قلبه، وبالذات مغامراته العاطفية. كان مستودع اسراري ايضا، حدثته كثيرا عما يمارسه ابي من قسوة، وحيرتي في ايجاد طريقة

ملائمة للخلاص من البيت والفرار الى مكان ما. لم يكن الموضوع على درجة من الاهمية او السرية لذلك بحت له بالفكرة، باعتبار ان لكل انسان الحق في البحث عن لقمة عيشه في اي ارض يشاء. ألم يتركنا ابي ستة اشهر للعيش في الكويت؟ ولم يثر سفره اية مشكلة مع الحكومة وقتها. فلماذا اخشى من الحديث عن مشروعي مع صديقي نجم؟ أما ان مشروعي ذاك كانت له دلائل سياسية فشئ لم يخطر لي على بال البتة.

آمنت حقا، اثناء عبثي بملعقة الشاي، ان الحكومة تمتلك وسائل خارقة في معرفة مايفكر به الناس. كيف عرفوا بفكرة سفري الى الكويت! قلت لنفسي بعد سؤال الضابط الذي صمت بانتظار اجابتي، ان طوق النجاة لي ستكون الصراحة. فما كان مني الا ان نطقت ببرود ودون تردد:

- بسبب ابي.

- نعرف ان اباك اشتغل في الكويت قبل سنوات لكن هذا لايفسر شيئا.

- ابي لم يعد يطيق وجودي في البيت. لااعرف لماذا. ففي احيان كثيرة، وما ان اختلي بنفسي حتى اجدني احب ابي، رغم قسوته واهاناته المتكررة لي والتي لا اعرف سببها. فكرت ان ارحل الى الكويت لاجد لي عملا هناك. ابتعد عن البيت والمدينة. الآن حضرة الضابط ارجو ان لاتخبروا ابي بنيتي. اخاف ان يقتلني. انه يفقد عقله حين يغضب.

- اذا ابتعدت عن السياسة فنعدك اننا لن نخبر اباك. تأكد ان شرطة الامن لاتخل بوعدها. انس ماعشته اليوم ولاتخبر احدا. فالامرالتباس لا اكثر.

لم اعلم وقتها ان سبب كره ابي لي شكه بأمي وانه كان يقارن ملامحي بملامح الرجال في القرية. لم اخبره انني كنت اخشى ان اصطدم بأبي في فورة غضب لا استطيع السيطرة عليه، فأرتكب حماقة اندم عليها طوال عمري، وأنني كنت اقضي ساعات طوال في البحث عن

مخرج يجنبني لحظة الاصطدام تلك. أما لماذا انبعثت الكويت في ذهني كقبس من نار فشئ لم ادركه حتى هذه اللحظة. لا اعرف الباعث الذي جلبها لتداعيات اوهامي. لاتظن انني لااعرف كلمة باعث كالطفل الذي مر بنا توا. اغلب الظن ان الباعث هو اسم هجيج الكويتي، وقد جاء سهوا في جلسة ليلية في حوش دارنا.

نعم. الكويت. ثم عبادان والاهواز والبصرة والقطيف والطائف.

صحراء من رمث وجمال وسراب وحرارة، صحراء يقطنها البدو القادمون الى انقراض فخم. نفط وغاز وكبريت وفيروز وفوسفات. بلور ومحار وطين وحصى.

من اي المعادن سبك الصائغ خاتم عمي؟ ومن اي الصخور الغالية فصه الساحر؟

كربلاء، النجف، الزبير بجسرها الرابط بين صحرائين. قال لي عمي يوما ونحن نمر بها، انظر الى بيوتها الطينية ونسائها السمر وهبوبها السموم. فنظرت وتعجبت. اشنان وحبق وبطم وحبة خضراء وحنظل يتفجر في افجاج نائية بعيدة عن المدن. حنظل يمد جذوره الى جثث متحللة، مدفونة في اعماق الارض. عشرات من تماثيل الجنود كانت تنتصب على ضفة شط العرب، الايدي تشير الى الشرق، الى الخطر القادم من مخلفات قصور الشيخ خزعل، شيخ المحمرة المقتول. أياد تؤشر الى النخيل المقطوع الرؤوس وقد اطاحت به قنابل الهاون وصواريخ هوك وطائرات الفانتوم التي كانت تذيع من قمراتها تراتيل ساحرة للشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد.

قوارب مبقورة الاحشاء تترسب في قاع شط العرب يظنها الرائي عفاريت انبعثت مرة من قماقمها وكادت ان تبرز للاحياء بأشكالها المرعبة لولا ان عاجلها طلسم دفنها ثانية في القاع. بين الاشن والغرين، بين السلمون والجري والقطان. وكثيرا ما رأيتهم يهجمون، من الشرق

ولم اكن املك بندقية. وضعوني في المقدمة وقالوا دافع عن نفسك، نحن لانثق بك، وكان علي ان اشترك في موت لم اختره. قال لي لطيف لايعقل ان تصل الامور لهذا الحد. . . انهم يرغبون التخلص منك ياصديقي. آلاف المصابيح تضئ في الليل. تتغامز في الظلمة وتحرق السواد كلما ازدادوا اقترابا. كانوا يتجهون نحونا بنية القتل وهم يصيحون الله اكبر فلم يكن امامنا من خيار الا ان نكبر مثلهم كي لايتوهموا انهم على حق. ضجة اكبر من صيوان الاذن، السماء نافورة اصوات، الليل يضخم الضجة فتتعالى وتتعالى حتى نظن اننا في يوم الحشر. انفجارات، مدافع، انسحاقات اجساد، تمزق اجساد، تشظي اجساد، انهيارات واغماءات وتقيئات وهذيانات، يحسب المرء نفسه لها في مستشفى للمجانين.

ماعادت الكويت مشروعا للسفر. اصبحت غير آمنة هي الاخرى، فلم افكر بها. كانت قريبة مني، كنت ارى اضواء مدنها وجزرها في الليل. لكنني لم اعد افكر بالهروب اليها.

السيارات المحملة بالعتاد تتفجر امام العين لتصبح مثل لعبة اطفال. اغلفة قذائف باحجام مختلفة كان المقاتلون يأخذونها الى بيوتهم لتصبح مزهريات توضع فيها زهور التيولب والورد لغرف الضيوف والشبابيك. تراكتورات، شفلات، بلدوزرات، تنكرات مياه، ساتبات. كان القتلى يتكدسون طبقات طبقات في ثلاجات طويلة وكان الموت يسرح عليهم هانئا مطمئنا. أي الطرق تقود المسافر الى الاحلام، واي الطرق تقوده الى جنة الموت؟ عظام سمك وتمر وأعشاب بحرية مقذوفة الى شطآن مقفرة وخنازير برية تملا الاهوار بصخبها مهددة اعواد البردي والسمك والقرويات المكحلات العيون بأنيابها المرعبة الشبيهة بسنكيات العسكر. لقد كتب لي ان اجتاز ذلك وانا اتأرجح بين المتناقضات طوال تلك الحياة الحمى. أتأرجح بين الفطنة والغباوة

النصيحة والغش الوفاء والغدر. الحب والبغض البخل والجود الانس والوحشة. الجبن والشجاعة القناعة والحرص السخط والرضا الصبر والجزع. الطمع واليأس العلم والجهل اللذة والالم التواضع والتكبر، في حياة كأنها حمى واحلام كأنها كوابيس.

- ١٣ -

زوجتي معلمة في مدرسة الفيحاء للبنات. كانت حاملا في شهرها الثالث، قال الرجل بصوت حزين ووجه معتم من الالم والتفكر الطويل. جاءت شرطة الامن الى بيتنا في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. اقتادوها معهم دون ان يسمحوا لي بمرافقتها. ادخلوها الى قصر ضخم مضاء جيدا، يحيط به سياج عال، ويحرس بابه العريض عشرات من الجنود المدججين بالاسلحة. قالت ايضا كان ثمة دبابات ومدرعات تقف عند زوايا ذلك القصر وفي التقاطعات المؤدية اليه. حسبت ان في الامر خطأ ما فأنا لم ارتكب جرما يستحق الخطف او التحقيق او الاعتقال.

ادخلوني الى ممر نزلنا اليه عبر درج كهربائي. سرنا سيرا خفيفا على حزام ناقل لايسمع له صوت، وعلى حين غرة قفز مرافقي عن الحزام وجرني معه فأذا نحن واقفان ازاء باب انفتح دون ضجيج. دفعني الى الداخل. كان المكان صامتا صمت قبر. لا احد يدخل ولا احد يخرج. لاشمس ثمة ولا ريح. لافضاء ولا طيور. الاضوية شاحبة تحيل الاشياء الصلدة عجينة ضخمة تستولي على الاحاسيس.

وجدت نفسي في زنزانة. زنزانة عارية الجدران فيها سرير صغير القيت عليه بطانية، ولم يكن من حي سواي في الغرفة. ومنذ اللحظة

التي وجدتني فيها بذلك العالم السفلي فقدت الاحساس بتعاقب الايام. اصبح الكون ضياء شاحبا انام على ذبذباته واستيقظ على غمراته. لاتربطني بالارض فوقنا سوى الذكريات واصوات المحققين والسجانين.

لقد رأت الكثير في ذلك المكان المدفون تحت مدينتنا.

رأت الكلابات الماسكة لارجل الضحايا كي تكشف عن اعضائهم فيخصون او ينكحون او ترض العظام منهم او تقشر عنهم الجلود. رأت القناني الزجاجية وهي تدس في المؤخرات والارحام. اشكال عديدة واغراض شتى. رأت الوجوه التي تتلذذ برؤية الالم وتطرب للصراخ. خيزرانات وسياط ومناشير تنشر العظام والايدي والبطون. رأت مغاور وكهوفا، سيارات ورافعات واحواضا واصص زهور ومطابخ وحمامات وساحات، كل ذلك تحت الارض، هل تصدق؟

كانت تتكلم بعد الخروج من المعتقل، وأنا ارتجف. احسست بعيني تنفتحان فجأة بعد ظلام سنوات عمري الماضية. فتحت لي دروبا وخبرات لم تتح لي من قبل، انا المعلم البسيط الذي كانت حياته تنحصر بين البيت والمدرسة، همه ان يعود الى بيته ليجد وجبة شهية وزوجة تدبر شؤونه المنزلية. لو لم تكن زوجتي لكذبت ما قصت علي من قصص، فهي المرة الاولى التي اسمع بها عن وجود عالم آخر غير الذي نراه يوميا، عالم يختلف عن شوارعنا ومحلاتنا وبشرنا وشمسنا.

حاولت الوصول الى حقيقة مافعلوه بها اثناء الاسابيع التي قضتها تحت الارض. لكن بلا جدوى. لاشئ تقول، ثم تنطلق من محجريها نظرة مريعة تمسح الاشياء حولها بلاابالية ويأس. كانت براءتها شى لا يشك فيه. اما هي نفسها فراحت تنغلق مثل محارة. تنغلق بعيدا عن حياتنا الرخية المسالمة. كثيرا ما وجدتها واقفة في شباك غرفة الضيوف محدقة الى الحديقة، تهيم مع اليوكالبتوس والاشعة المنعكسة عليها. هل كانت تعلم ماستؤول اليه الاحداث بعد تلك التجربة؟ اخبرنا الطبيب بعد

فترة قصيرة من خروجها ان الطفل الذي تحمله في احشائها يعاني من وجود بؤرة مائية في الدماغ. وقع الخبر عليها وقوع صخرة ثقيلة لايحتمل ثقلها جسد بشري. لم يخبرنا الطبيب عن سبب تلك البؤرة ولم حدث الامر. لكنني كنت اقدر السبب بحدس غير مفهوم. كان يرعبني في صياغته بكلمات واضحة ومحددة. واظن ان زوجتي ادركت السبب ايضا وان لم تلمح به.

كنت اجدها تبكي وحيدة خلف الابواب المغلقة، تحت اليوكالبتوس، عند طباخ الغاز، امام المرآة. تناجي نفسها وتقرعها. تعابير القنوط في وجنتيها. تلوم الله لانه خلقها في هذا الزمن، المكرس للشك والعذاب والموت. ليلا وبعد ان تهجع الشوارع من ضجة السيارات ويسود السكون على الخليقة ونطفئ الضوء للنوم، اسمعها تنهنه خلسة تحت الغطاء، لاتريد ان يشاركها العذاب احد. لايمكن ان يكون هذا الالم بسبب مولود لم نر حتى وجهه ولم نسمع كركراته بعد، كنت اقول لنفسي.

ان ما اقصه عليك لايعدو ان يكون حكاية عتيقة حدثت قبل وصولنا الى هنا وانتهائنا هذه النهاية الغريبة. لكنني لايمكن الا ان اكون صريحا معك، ولتشهد علي تلك النجيمات المتوهجة في الارض لا في السماء، المتحركة بمعل بني البشر الذين يظنون انهم باقون هناك الى الابد. طالما نجوا من تلك المذبحة. لايحس بالالم الا من يعيشه بكل جوارحه. الا من تَشبعت خلاياه بكل صنوف اليأس والقلق والخوف. رغم اني لم افقد الامل كلية، وقلت لروحي انها غمامة ستمر سريعا، وتصبح ذكرى بعيدة. لم يتم هذا، فقد هيمنت عليّ الحادثة ولفتني بدوامتها. رافقتني طوال رحلتنا. عبرت معي برزخ الموت مصفاة مقطرة واضحة حتى ملني البشر من تكرارها. لم افقد الامل رغم تأكيدات الطبيب ان لا امل للطفل بالعيش. والكارثة التي اضافها لنا الطبيب وحصدت كل امل من صدر زوجتي ان الطفل حتى لو تغلب على قوى الموت وعاش فسيكون معوق

الذهن بسبب تلك العاهة. نحن البشر مصنوعون من توقعات وطموحات وانتظارات لولاها لمتنا من الضجر و لاصبحت الحياة فارغة لاتستحق ان يعيشها الانسان. مادمت حيا فلن اكف عن الايمان بشفاء الطفل وعيشه قلت لزوجتي. لعل معجزة تحصل وتقلب الامور في صالحنا.

زوجتي كفت منذ امد بعيد عن الرجاء. صار همها ان يموت الطفل بدلا من ان يحيا، فموته افضل من بقائه معوقا طوال حياته. تصلي وتدعو وتقرأ الآيات القرآنية كي ينقذ الله الطفل من مصيره المرعب. كل ذلك كان ينطلق من قلب كسير ضعيف عرض للتجربة مع متجبرين لاتعرف الرحمة طريقها الى قلوبهم. المرات القليلة التي يفور في داخلها الامل حين تحس بحركة الجنين. تذهب الى مخاطبته كما لو كان مخلوقا يفقه مايقال. ثم ترتكس الى وحدتها بعد يوم من انقطاع الحركة، فيعود كل شئ الى سابق عهده، بكاء ويأس وادعية.

وجهها شحب، نظراتها زاغت، شهيتها انقطعت، حركتها بطأت وراحت الدوائر السود ترتسم حول عينيها السوداوين الجميلتين. ارى ولا انطق. الكلام قاحل والايام استحالت الى سلسلة من الكوابيس المفزعة التي كانت تخض رأس زوجتي دون انقطاع.

عينات مريعة من الكوابيس.

احواض ماء مفلطحة يسبح فيها سمك مختلف الاحجام، يجلس عليها رجال غلاظ اشداء يمسكون كلاّبات من الحديد. يأتي الزبون فيؤشر على سمكة ثم ينتظر. يبادر واحد من ماسكي الكلابات الى غرزها في ظهر تلك السمكة بضربة محكمة لاتخطئ. عيناه تظهران اعتزازا لايحد لبراعته في التسديد. قريبا من تلك الاحواض كوانين مجمرة تعتليها اسياخ سرعان ما ينظف السمك من احشائه ويوضع على تلك الاسياخ. بين تقليب وتحريك وابعاد عن النار ثم تقريب منها تنضج تلك الاسماك وتتحول امام عيني زوجتي الى اطفال محروقين بالسن

متدلية واقحاف بيض لاصفة. يتحول الاكلون الى ضباع اسنانها طويلة يقطر منها الدم والسوائل، فتستفيق صارخة من نومها مرتعدة الجسد ناشفة الريق. تركض سريعا الى الماء. لايعود اليها روعها الا حين تعب كاسا او كأسين. تهمد في الفراش جنبي منتظرة كابوسا آخر كانت متأكدة انه سيأتي لامحالة.

في حضنها طفل يكركر ويضحك، يعابث من حوله بوجه مشرق. يدخل الى قلبها الفرح، لكن ليس طويلا، اذ سرعان ما ينقلب ذلك الحلم اللطيف الى جثام مرة اخرى. يرق جلده ويشف جسده حتى يصير مثل فقاعة مائية محشوة بالهواء. تتملى في الجسد، ترى الاحشاء، المعدة الثخينة، القلب النابض، الرئة المتقلصة وهي تدخل الهواء اليها وتخرجه بانتظام عجيب. الامعاء تصعد وتنزل، ترى حركة الدم، الخلايا، البصيلات، منابت الشعر، التلافيف الدماغية وهي تلقي اوامرها وتحرك ذلك الجسد الشفيف الدال على اعجوبة يقف لها اعظم الحكماء دهشا عاجزا. فم صغير ينفتح كفم سلحفاة يطلق صوت ماما ماما بخفوت وتوسل. وهي تنظر وترى لكنها لاتستطيع تحريك اعضائها. ثمة شلل كامل يلفها. ثمة رعب ينبعث من اعمق اعماقها، من غابة سوداء لاتعرف تفاصيلها.

هذا وغيره لم ينقطع عن زيارتها منذ خروجها من المدينة السفلى. كأنهم حكموا عليها بالعيش في علبة، لكنها ليست علبة من جدران صلدة ولكن من كوابيس ورؤى وخيالات.

- لقد سمعت عن المدينة السفلية قبل اليوم. لم اكن اظنها بمثل هذا السوء.

- هل حدثك عنها قريب لك ام صديق زارها هو الآخر؟

- حدثني عنها المحامي عبد علي، هل سمعت به؟

- كلا، غير ان الانسان لايستطيع اخذ صورة واضحة عنها الا اذا

عاش هناك. كما ان اغلب الخارجين احياء لايودون الحديث عنها، زوجتي لم تخبر احدا سواي. حتى زميلاتها في المدرسة اخبرتهن انها كانت مسافرة.

حكموا عليها حكما قاسيا. حولوها الى انسانة تكره النوم. ترجع متعبة من المدرسة، تكنس، تطبخ، تتسوق، تنظم اثاث البيت، تشتغل في حديقتنا الصغيرة، كل ذلك كي تنسي جسدها حاجته الى النوم. رأيتها اكثر الاحيان تغسل وجهها عديدا من المرات لتطرد عنها النعاس. اقبل عليها سائلا، لم كل هذا القلق، والشرود، والتعب؟ الطفل، تقول مجيبة، هو سبب ذلك، الا انني كنت اشك في اجابتها. لم تبح لي ولا مرة واحدة عما فعلوه بها اثناء الاعتقال. كنت احترم اعراضها عن الامر، وربما كنت اخاف ان اواجه بحقيقة مرعبة فلا الحف في اسئلتي وارضى بما تلمح به فقط.

ثم حدث ما كان متوقعا. ساحت مياه الولادة من رحمها في الشهر الثامن. حدث في ليلة كالحة السواد، غاب عنها القمر وضربت الاشباح طوقها على المدينة والنهر والبساتين القريبة. هل استجيبت دعواتها ؟ نقلتها في العاشرة مساء الى المستشفى. مستشفى الحلة المركزي. كان اختبارا قاسيا. لي ولها.

ادخلوها غرفة معتمة، ثم حضرت ممرضة لتشرف على الولادة. جلبت معها طبقا نحاسيا للطفل وشراشف ومناشف ومشدات واوعية بلاستيكية واجهزة لقياس ضغط الدم ونبضات القلب. مكثت انا ناظرا بريبة، فلا شئ يتم بغتة، وكل شئ يحتاج الى زمن مناسب لحصوله. كانت زوجتي تتأوه وتصرخ كلما هاجمتها نوبة الولادة. تلك الحياة الفانية التي فارقناها ام العبر والدروس، كل مايجري فيها له معنى، هل تصدق لو قلت لك ان الورقة، حتى الورقة في سقوطها المتكرر كل خريف ملأى بالعبر والمعاني لمن له عينان ليبصر وقلب ليفكر؟

نوبات والم وصراخ ينطلق من غابة الصبر الكثة التي دأبت على رعايتها منذ الطفولة. لم تكن تظهر مشاعرها الحقيقية. كانت تخاف البشر وتشك في نواياهم. صراخها يرج الممرات ويشتت العتمة. يتلوى بعد انطلاقه من الفم ليقتحم الباحة الخارجية للمستشفى كي يصل الى الدعالج المتخفية في الحلفاء والصراصير والثعابين المتخفية في الغيطان. كل الجسد يشارك في وليمة الالم تلك. العينان تجحظان. الاصابع تتقلص وتتبسط. الرجلان ترفسان الهواء بعدائية مفرطة. التنفس يضيق ويتحول الى معاناة لاتحتمل. ما ان تهدأ لحظة حتى يعاودها التشنج. وجه الممرضة حجري التعابير، لقد رأت حالات كثيرة مثل هذه. كانت تغادر الغرفة بعد مراقبة قصيرة، فنظل وحدنا، سابحين في غيمة من ترقب وتساؤلات. هل يعيش الطفل؟ هل ستكون صحته جيدة؟ هل يولد مشوه الخلقة بسبب لااعلمه بعد؟ هل هو ولد ام بنت؟ فيض من التساؤلات، يمر بيننا او في ذهنينا لكن دون اجوبة. لا الجنين يطل ولا الالم يتوقف. طلبت زوجتي من الممرضة ان تجد حلا سريعا لها والا فهي ميتة لامحالة. صارت رئتاها مثل صفيحتين من خشب. كانت تنتظر مني المساعدة، انا المذعور مما ارى، انا الذي صرت اخشى الخروج من البيت بعد احتجازها، لسبب لم نعرفه. قالوا لنا ان التباسا قد حصل، فأسمها مشابه لمعلمة هاربة تشتغل في السياسة. معارضة. وهل لنا طاقة على معارضة احد؟

عادت الممرضة ومعها عدة غريبة:انابيب بلاستيكية، سرنجات، ابر غليظة، حقن، مشدات، حوامل. فهمنا من ايضاحات الممرضة انها ستعطي زوجتي مخدرا في الظهر، فلا تحس بالالم بعدها. كان امتحانا، تعذيبا، مجزرة. جرى ذلك ببرودة اعصاب لم اكن اعرف ان الاطباء والممرضين يمتلكونها.

مدت الممرضة ابرة طويلة تتصل بحقنة تربط الانبوب البلاستيكي

الى كيس صغير وادخلتها في العمود الفقري لزوجتي. نفذت الابرة من بين فقرتين لتطعن الحبل الشوكي وتنفث فيه مخدرها الشال للاعصاب والاحاسيس. كان المفعول سريعا، اذ سكنت زوجتي ولم تعد الآلام ذات تأثير على الجسد. فآمنت ان المخدر مادة الاهية انزلها الله الى الارض لتساعد بني البشر. لتحل الرحمة على قبر مكتشفه.

بعد ذلك السكون قررت ان امدد على السرير الاضافي الموضوع في الغرفة جنب سرير زوجتي. كنت بحاجة للنوم، بعد ليلة من الارهاق والانتظار والضوضاء. جسد زوجتي راح يعمل على لفظ الجنين دون تدخل منها، دون مشاركة للاعصاب والدماغ والعضلات.

لم تمر الا ثوان قليلة حتى انطبقت جفوني وسقطت في النوم.

وجدت نفسي في ساحة معتمة. ممددا على ارضية وسخة يمكن ان تكون محلا لرمي النفايات في مدينة صغيرة او مراحا لدواب في احدى القرى. وربما يكون المكان وقفة لبيع المواشي والاغنام والبقر والجمال بأحدى الاسواق، راودتني تلك التخمينات بسبب النفايات والرائحة الكريهة المنبعثة حولي.

فوجئت قربي بوجود حيوانات ضخمة تقعي على الارض. عيونها واسعة يشيع فيها الرعب. تجتر بصوت مسموع، اشبه بالطحن، او صواعق خريفية في ارض بور. كانت ذيولها تهتز طاردة اسرابا من الذباب يحلق في المكان. خفت ان يكون منظري مشابها لمنظر تلك الدواب، فلم اجرؤ على التملي في جسدي، ورحت انظر الى السماء. بين فترة واخرى راحت تحط على تلك الدواب مخلوقات عملاقة لاهي بالنسور ولا هي بالبزاة، انما طيور غريبة ذوات مخالب ومناقير تشبه السكاكين. تحط لتلتقط واحدة من تلك الدواب ثم تطير بها الى مكان مجهول. كنت اسبح في مياه الرعب، كل قصفة لطائر اكتم انفاسي وانتظر المخالب الحادة التي ستنغرز في جسدي. ولشدة رعبي وخوفي

من ان انتهي في معدة طائر من تلك الطيور العملاقة بدات اصرخ واولول، اشخر واطلق اصواتا عجماء لاتشبه اصوات البشر. العرق يقطر من اطرافي، الرعب يشلني، الموت يحملني بين كفيه. كنت اصارع ذلك الموت محاولا فتح جفوني كي اعود الى الحياة. لاتطاوعني الجفون. احاول ان انهض من السرير فلا يطاوعني جسدي. كلما افتح عيني وارى الاجهزة الغريبة المنصوبة في الغرفة اظنني في الحلم ثانية فأعاود النوم. لم ادر كم استغرقت لحظات الصراع بين الحلم واليقظة. اذ طفرت طفرة شاسعة نقلتني خارج مدار الجثام . خارج الخدر واللاوعي. الفيت روحي تعيش رعبا ثانيا مضرجا بنثيث الوحشة والمفاجأة. كان ذلك المشهد عصيا على النسيان. انطبق في ذاكرتي على تفاصيل غريبة لاتصدق. رغم انني حكيته عشرات المرات، لكنني كل مرة اتذكر منه اشياء جديدة تستحق ان تروى.

رأيت زوجتي فاتحة فخذيها تحتها اناء واسع والممرضة تقف عليه بعينين غريبتي التحديق، ظننتها اول وهلة تحملان العجب من صراخي واصواتي العجماء.

عتمة الغرفة والمشدات الرابطة لجسد زوجتي وخيال الممرضة غير الواضح وذلك الاناء، اناء الرعب الذي وجدت فيه جسدا صغيرا سابحا في سائل لاصف تتراقص فيه عينات من الضوء اشبه بالنجوم. كانت زوجتي تخشى التحديق تحت رجليها. لاتريد ان ترى طفلا برأسين او بعين واحدة. لاتريد مواجهة كائن مشوه من الضرب والبرد والمعاناة الروحية التي عاشتها في المدينة السفلى. تخشى من رؤية ماسوف يقضي على بقية الامل التي آمنت بها مثلي. كنت اشد قوة منها فنظرت. نظرت بدقة من لايريد ان ينسى عنفهم ولايغفر ماعملوه لها. في الغرفة رائحة تشبه رائحة الطلع، تأتي من الطفل الذي قذف توا الى الوجود. كان له فم ورأس ووجه صغير، من اجمل ماتكون الوجوه. جيلي الاول.

خلفتي في الحياة الفانية. صغيري الذي لم اعلم حتى تلك اللحظة، لحظة افاقتي من الكابوس ان كان بنتا او صبيا. المهم ان يعيش ويرى نور ارضنا قلت لنفسي. لا فرق بين البنت والولد. انا من الرجال المتفتحين حينها. كان راقدا في بركة الطلع حين رأيت مثل سراب حركة الشفتين. حركة بطيئة كما لو اريد منها ان تكون اشارة لي. مثل رفيف خفيف لجناح فراشة مقبلة على الموت. لم تستغرق اكثر من طرفة عين. عرفنا ان المولود بنتا. لقد ولدت حية، وأقسم لك الان بعد موتنا الاليم هذا، انها كانت حية ولم تمد لها الممرضة يد المساعدة. لا اعرف حتى اللحظة السبب وراء تصرفها ذاك، ربما استجابة لصلواة زوجتي وربما بتوصية منهم، لكي يضاعفوا عذابنا اكثر. لاريب انك تدرك انهم يعرفون كل شئ. لهم آذانهم الصاغية واعينهم المحدقة وهجسهم الذي يصيب دائما. هجس المتمرس بالظنون السيئة والشك والريبات.

لم اختفت الارتعاشة بغتة؟ لم كانت خائفة من هواء ارضنا؟ وما هي العبرة وراء كل ذلك؟

اسرار غامضة. عقلي صغير على فهمها. كان درسا لي لن انساه.

كتبت الممرضة في تقريرها ان المولود انثى، ماتت بسبب تسمم مجهول لم تتوصل له مختبراتنا لحد الساعة.

سألتني زوجتي عما رأيت قبل ان يسدل الستار على الحادثة فأجبتها ان البنت ولدت ميتة. لكن فمها ظل وسيظل ماثلا امامي، مهما كرت النهارات. كانت الليالي عصيبة علينا بعدها. ففضلنا الانتقال من البيت الى بيت آخر يقع على ضفة الفرات ولايبعد كثيرا عن نادي المعلمين في الحلة. تعرف الحلة اليس كذلك؟ كانت تسمى بابل منذ الاف السنين. اعادوا لها التسمية قبل مدة ولا اعرف السبب. الخراب ظل هو نفسه، ولم يتغير شئ في هذه الحياة الا نحن، بني البشر المجبولين من الفساد.

من حكاياتها التي كنا نتناقلها جيلا بعد جيل، ان السماكين على ضفاف الفرات كان يبنون حفائر في جوف الماء، ثم يضربون عندها بالزمر والطبول والعيدان بأصوات شجية يسمعها السمك تحت الماء فيجتمع الى تلك الحفائر فيصيدونه بالايادي.

وحكى لي جدي ان كان فيها سبع مدائن، كل مدينة فيها اعجوبة.

كان في واحدة من تلك المدن تمثال للارض، اذا التوى على الملك بعض من اهل مملكته، وامتنعوا عن دفع الخراج خرب انهارها عليهم في التمثال، فلا يطيق اهل الارض سد الماء حتى يعتدلوا ويعودوا لطاعته، وما لم يسد الماء في التمثال لايسد في البلد.

وفي الثانية حوض اذا اراد الملك ان يجمع رعيته لطعام اتى كل واحد بما يحب من شراب فيصبه في الحوض فتختلط الاشربة، فكل من سقي من الحوض كان شرابه الذي جاء به.

وفي الثالثة طبل اذا ارادوا ان يعلموا حال الغائب من اهله قرعوه، فان كان حيا سمعوا له صوتا، وان كان ميتا لم يسمعوا له صوتا.

وفي الرابعة مرآة اذا ارادوا ان يعلموا حال الغائب نظروا فيها فيبصروه على اية حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه قربهم.

وفي الخامسة اوزة من نحاس، فاذا دخل الغريب صوتت الاوزة صوتا يسمعه اهل المدينة فيدركون ان بينهم غريب فيحتاطون للامر.

وفي السادسة قاضيان يجلسان على بركة ماء فيأتي الخصمان فيمشي المحق على الماء حتى يجلس الى القاضيين، فيما يقع المبطل في الماء.

وفي السابعة شجرة ضخمة لاتظل الا ساقها، فان جلس تحتها شخص اظلته، الى الف شخص، فاذا زادوا على الالف واحدا جلسوا كلهم في الشمس.

قال لي الرجل:برج بابل بناه النمرود بن كنعان. بريجات معقودة

واسوار فخمة وهناك رواية تقول ان من بناه هو الملك نبوخذنصر كي يسعد زوجته الكردية المتغربة عن بيره مكرون وقرداغ وقنديل وخسته كرد، وعد من عجائب الدنيا شرقا وغربا. ظهر في لوحة رسام مجهول على هيئة مدينة محاطة بسور عظيم له مداخل عديدة، وفي داخل السور شوارع وبيوت وعمران. يتوسط المدينة نهر بابل اذ يشقها نصفين وتحيط بالمدينة قوافل الفلاحين والزوار والسياح والحجاج القادمين اليها من بلاد فارس والروم والهند والصين لتجربة حظهم في التجارة والتنجيم وشراء العبيد. مدينة مربعة مع شوارع مبلطة تتقاطر على بعضها، ويشقها نهر بابل شقين في كل شق معبد للالهة وبيت للملك. قصورها ومعابدها واسوارها مبنية من الطابوق المربع المفخور الذي ينبئ عن ابهة الحكم وثراء الممالك.

قال الرجل:ربى النمرود بن كنعان عشرات النسور، والنسور تعمر عشرات السنين كما تعرف، واراد ان يصعد بها الى السماء توكيدا لعظمته وتجاوزا على رب السماء الذي لم يكن يعترف به حاكما. في كل مرحلة يبدل نسرا، وكان متقلدا سيفه ولابسا درعه، وحاملا نشابه وقوسه بيده. بعد ان اكتملت النسور حملها وجاء الى برج بابل، ويقال ان البرج كان يعانق الغيوم. من سطحه طار الى السماء ممسكا برجلي واحد من النسور.

مثل سهم حلق في السماء فراى السائمة والوحش، الدابة والطائرة، رأى المدن والعشار والطرق والانهار، فداخله السرور وامتلا بالغبطة.

قال للسماء بابل مفتوحة على الجهات يغزوها بنو عيلام وبنواشور وبنو كرد وكل من هب ودب فكيف لي ان اقيم ملكا ببلاد مفتوحة الجهات؟ اجابه الرب تدرع بالاسلحة وكن قويا ولا تنزل بقلبك الرحمة. اسحق العدو وسيطر على مسالك الارض وشعابها، لا تدع انسانا يدخل الى مملكتك دون علمك وسأعطيك الوزة النحاس لذلك. قال له

النمرود:وان جاء العدو من السماء فماذا افعل؟ قال هذا يعني هلاكك، لان مایاتي من السماء رسالتي انا وحدي.

قال الرجل:حين قارب الوصول الى باب السماء او كاد، ارسل الرب له بعوضة كانها قشرة راس، لاتكاد ترى بالعين، فما كان منها الا ان مرقت الى صماخه دون اذن وحسبها في البدء وسخا او غبارا ولم ينتبه الى انها ستكون حتفه، حتف ملك جبار.

عند السماء الثانية ضرب نسره شهاب من نار فخر ميتا كانه بلاطة جافة منذ نوح. تلقفته الارض دون رحمة، وسألته الى اين تبغي الوصول؟ قال الى بابل حيث ملكي وشعبي. قالت بابل بلبلنا لسانها وفرقناها اما وقبائل فلا يفهم بعضهم بعضا.

لم تكف البعوضة عن ازعاجه، حتى ولا لحظة واحدة. ينام فتوقظه بطنينها ودبيبها وقلق روحها. يشرب الخمرة فتنغص عليه لذته. يضاجع محضياته فتشتت ذهنه. صار يحك دون كلل كمصاب بمرض الجذام. طلب من خاصته قائلا:اضربوا رأسي بالايدي عسى ان تسقط تلك البعوضة اللعينة، ففعلوا ولم يفده الامر شيئا. قال لهم اضربوني بنعالكم المصنوعة من جلد الجاموس لانها اثقل واشد وقعا، ففعلوا. وكان نمرود يصيح على الحاشية:انقذوني من اضعف مخلوقات السماء. اعيته الحيلة وطلب من سيافه ان يجرد السيف ويضرب عنقه، وشكى لجلاسه بصوت كسير:الموت خير من مقارعة بعوضة لاتريد ان تستسلم لحاكم. ثم دحرج الجلاد رأسه بأناء من ذهب، لم يزل محفوظا في احدى اساسات البرج كما اخبرني جدي قبل ان يموت بداء الطاعون ايام الملك فيصل الاول.

- ١٤ -

لقد مررت ببابل التي حدثني عنها الرجل يوم مضينا انا وعمي حسان للعمل في البصرة. لم ار برجها ولم ار طابوقها الفخم المربع الذي وصفه لي الرجل، قبل قليل. سألت عمي عن البرج، وكان يستثير الخيال بعد ان رأينا صورته مرارا في كتب الدراسة، فتعجب قائلا:اي برج، لاتوجد هنا ابراج انها خرائب ينعب البوم بين جنباتها. لايدخلها سوى المجانين وسارقي الكنوز.

ساعات وساعات كنت اقضيها جالسا على ضفاف شط العرب. متأملا في المدن التي مررنا بها اثناء رحلتنا من بغداد الى البصرة.

وعلى بعد امتار مني فقط كان عمي حسان يوجه حفارته من كابينة القيادة لافتضاض الارض ومراكمة التراب على حافة شط العرب. ضجيج الحفارة يملا المكان وينسدل على مياه الشط مع الغبار والحرارة الخانقة. وفي الاعالي يشبح صقر مرفرفا بجناحيه ومنقاره متجه الى الماء. سماء عميقة الزرقة فيها غبار ناعم يتصاعد من كيلة عمي. يسيح فوق النخيل والقرى ويتبدد فوق المدن والسهول والحيوات الارضية. كان الصقر يبحث عن فريسة كما فكرت، انه جائع مثل جوعي الى النساء والبرودة التي تشيع في النشاط، لكن هل تراه يجدها ياترى؟

في طيات الماء او تحت الجرف او بين التفافات الشنبلان والسعد والحلفاء؟ امض الى حقول الشلب قلت له. ابحث عن فريستك عند رقبة جسر القرنة، فثمة تتناثر كما رايت هذا الصباح، الديدان القشرية والسلابيح والضفادع الصغيرة. مالك ترف بجناحيك على الشركة وحفارة عمي وبيت حريجة المتواري تحت سعف النخيل؟

لابد ان ابي يفكر الان انني جالس خلف العتلات اساعد عمي. لايدري باسترخائي الابدي الذي اقضيه على شط العرب مدليا رجليّ في الماء حالما باطياف المستقبل الغامضة واضعا خططي للهروب من حفارة عمي والضياع في الزبير والبصرة القديمة والقرنة. باحثا عن شئ ما، لا اعرف ما كنهه. كل ما اعرفه وانا متأكد منه انني لا اريد ان اصبح سائق حفارة. ليس لدي اية همة لتعلم هذه المهنة القائمة على الزيوت والحبال والمرس والدهونات والغبار ورؤية النساء الحطابات الملفعات او رؤية الجن في الافجار كما جرى لخالي حزم. ابغي الانطلاق بلا قيود وأوامر والتزامات. لاشئ. تأتي المياه من جسر القرنة ثم تسافر نحو الخليج مثل ارواح لامرئية. تسكن هناك حيث المحار والصخور المغطاة بالاشن. القوارب تمر من امامي محملة بالمخضرات او البضائع، يوجهها رجال لايفترون عن الغناء، يحس المرء لرؤيتهم كما لو كان يقف على هذه الحافة قبل الاف السنين، حينما كان السومريون يمخرون عباب الموج للتجارة وتصريف شؤونهم. من بين غنائهم الحزين كنت احس انهم يتطلعون الى الضفاف بغرابة، المكائن والرافعات والحفارات والروائح الغازية للانوف في عالم يبدو جديدا عليهم لم يتآلفوا معه بعد. ماذا لو كنت واحدا منهم، احمل فالتي وخنجري واضيع مع القارب في متاهات القصب والبردي. بعيدا عن المدن وعمي وابي وكتب الدراسة. بعيدا عن الشوارع والساحات الضاجة باشرطة التسجيل واللافتات والصور والشعارات التي لم اتعاطف معها يوما في حياتي؟

يظن ابي انني سأتعلم سياقة الحفارة واصبح سائقا مثله ذات يوم، ولا يعرف انني لااطيق حتى الوقوف جنب عمي لافك سر تلك العتلات التي تحرك هذه الالة المملاقة. وافقت على اقتراحه بالمجئ الى البصرة ومرافقة عمي لا لشئ الا للخلاص منه ومن البيت. ولكى ارى بشرا ومدنا وشوارع جديدة علي. امي قالت سافر مع عمك وشاهد ارض الله الواسعة، الم يسافر ابوك الى الكويت ويعود بالنقود والحكايات الشيقة؟ فلماذا تخاف انت السفر؟ ومن دون حرج اضافت يقولون ان نساء البصرة حلوات فعسى ان تجد مايشبعك هناك. ولا يخفى على امي اهتمامي بالنساء وتلصصي على الفتيات من سطح بيتنا او ملاحقتهن وهن يخرجن من مدارسهن. وكانت رحلتي هذه اول رحلة اتوجه فيها الى الجنوب.

كانت اجسادنا تتحشر في التاكسي مثل سردين. خلّفنا ألحلة وراءنا وتغير الجو. زهمة الهواء بدت واضحة وانخفاض الارض راح يرتسم في الافاق. اهوار وطيور وزقورات وبشر سمر بشعور مفلفلة. سأدخل ارض السومريين بعرباتهم وخيولهم وعبيدهم العراة الا من انطقة الجلد. اناشيد المسبحين للالهة لاتزال ترفرف على السهول والارض المرقشة بالملح وحوافر جياد الغزاة.

عمي نائم يقطر العرق من وجهه المدور ورقبته الغليظة التي تشبه قرمة شجرة توت. كانت تبرز من قبة قميصه. عجبت كيف تسقط النساء في حبائله وهو يمتلك رقبة غليظة مثل هذه. رؤية خاتمه الاسود المطوق بالذهب، الراقد مثل تميمة في اصبعه ازالت تعجبي. فيه السر والقوة، وفي فصه تتخبى الرجولة. الاصابع تشهد على الانسان يوم القيامة قال جدي. لكن كيف لتلك الاصابع ان تسجل كل ما ارتكبه عمي من مآثم وهي لا تمتلك دفترا ولا قلما؟ لابد ان تكون بصماتها رقائق تحوي قصص النساء والملامسات الخفية للارداف والبطون والافخاذ. وجدت ذات يوم خاتما يشبهه تماما. في سوق الجمعة القريب من بيتنا،

عند بائع اعور كان يبيع الخواتم والقلائد الفضية والجناجل والمعاضد النسائية. كدت اطير من الفرح. سوف اضاجع اية امراة اشتهيها. اشتريته على الفور، ووضعته في اصبعي البنصر كما يفعل عمي. جربته اول مرة على جارتنا السمينة، زوجة معلم المدرسة. كانت جالسة امام بيتها تنظر الى الفسحة وما فيها من بشر قبل الغروب. جلست بمواجهتها ورحت احرك الخاتم وانظر الى وجهها وعينيها، على امل ان تدعوني الى الداخل، بعد ان يعمل السحر عمله. مرت خمس دقائق وهي ذاهلة مما اقوم به، ثم فاجأتني قائلة، لماذا تلعب طول الوقت بخاتمك الزائف؟ امض الى كتبك فالامتحانات على الابواب. خجلت من نفسي وفررت منها راكضا ثم خلعت الخاتم ورميته على المزبلة قرب عمود الكهرباء. لم اعد اجرؤ النظر اليها بعد ذلك. آمنت ان عمي يمتلك قوة سحرية لاتكمن في الخاتم فقط، لكن في اصابعه الغليظة المشعرة التي تنام اللحظة على بطنه كأفاع مائية. يظل عمي رغم رقبته الغليظة اقرب الى روحي من ابي. فهو كثيرا ماكان يخفف من توتر ابي وعدائه لي. يذكره انني من جيل جديد ذي عقلية مختلفة وحسابات لانفهمها نحن الجيل القديم. وكان يشاركني بعضا من نزواتي مثل شرب البيرة وتصيد النساء وعدم الالتزام بالامور الدينية. انا احب عمي حسان.

كل شئ يغيب خلف اطار النافذة، بيوت الطين وارض الملح والنساء والاطفال الذين يتفيأون تحت النخيل لابسين اسمالا و ينظرون الى السيارات بفرح. الكل يحتمي من الحرارة، وكأن الارض تتنفس الوهج والسخونة، وكأن المياه ورطوبتها هربت خوفا من الصحاري القريبة والسراب والملح. اشجار صفصاف واثل. طرفاء تتبع البيوت، يقضم السراب اغصانها شيئا فشيئا حتى تتلاشى خارج النافذة. مشهد جديد لعيني. لابد ان اعترف لنفسي بأنه افضل بكثير من الوقوف على سطح بيتنا ومراقبة زوجة المعلم وهي تغسل ممرات بيتهم عارية الفخذين.

ـ جد لنا مطعما ناكل فيه، لقد اهترأت معدتي من الجوع.

تكلم عمي مع السائق بعد استيقاظه مباشرة.

وعمي اضافة لحبه للنساء والسلاح والمال فهو من عشاق الطعام ايضا. الايام التي كان يقضيها معنا اثناء الاجازات اشبه بعيد. تتفنن خالتي فيها باعداد الطعام. دولمة و باجة و مخلمة باللحم ورز مع مرق الدجاج، وهو ياكل بيده اليمنى لابسة الخاتم، ويملا البيت تمطقا ومزمزة وازدرادا، فيفتح الشهية لنا جميعا، حتى ابي الزاهد في الطعام.

اوقف السائق سيارته عند مطعم عتيق على الطريق العام. البناية واسعة مغبرة الطابوق، ذات سقف من الاسبست. داخل المطعم فسحة واسعة تتخللها اعمدة حديدية وتتناثر فيها طاولات مصقولة بأهمال. الارضية كانت زلقة، حيث تمتزج الاوساخ بالمياه المندلقة من الندل والآكلين.

جنود، فلاحون، بدو، مصريون، زنوج، بنغلاديشيون، طلاب، نساء يزينّ انوفهن بالخزامات، عوائل مع اطفال. الجميع ينكبون على وجباتهم واقداحهم المعتكرة الزجاج بسبب المياه الباردة. كانت زنخة حادة تتلوى في المكان. الاهوار لاتبعد كثيرا عنا، قال عمي. سيكون عمي دليلي منذ هذه اللحظة. انه يعرف منطقة الجنوب جيدا، فقد عمل في الرفاعي والعمارة والبصرة والشامية وغيرها من المدن. ويبدو انني مقبل على معرفة اشياء لم اعرفها قبلئذ. البحر، الميناء، الهور، الشركة، السمك المجفف، الخنزير البري، الشيوخ، السبخ، وكل ذلك العالم السابح في الفقر والشمس والرطوبة. اشياء جديدة على عيني واحاسيسي. فكرت انني اعيد رحلة ابي الى الكويت لكن هذه المرة بشكل مختلف، اذ انني املك الان خزينا من الحكايات والقصص، سواء تلك التي سمعتها من عمي او من ابي او خالي حزم. اصبح البلد صغيرا في السنين الاخيرة. شئ لايمكن الشك به.

لفت نظري صاحب المطعم. كان يجلس خلف طاولة زرقاء متآكلة الطلاء. امامه صلاحية ماء شفافة الزجاج، يطفو على مائها ثلج ذو رغوة، مرآها كان يشيع العطش في الناظرين. جنبها كاس نحاسي مفلطح الفم مزخرف بورق عنب يوحي بأنه موروث عن مشايخ العهد الملكي او مستلب من قوافل التجارة التي كانت تدخل البضائع الى الشمال عن طريق ميناء البصرة.

وجه الرجل احمر ملبد بالعرق. لاحظته يكرع من كأس النحاس دون توقف. يفرغ فيعبئه تحت الطاولة من اناء لايرى. يصب عليه قليلا من الماء المثلج، ولا تعنيه امور الداخلين الى المطعم او الخارجين منه، الا حين يستلم النقود. حتى هذه لاحظت انه يستلمها بكسل فيضعها في صينية من النحاس ايضا. يحدق بكسل الى الطريق العام، والى البشر، وكأنه يعيش في جرمه الضخم. لايعنيه من الحياة اي شئ، لانحن ولا العمال المصريين ولا النساء البدويات الموشومات الوجوه ولا الزلق المتفشي في المطعم.

- يبدو ان صاحب المطعم سكران. انه بالكاد يرفع جفونه.

قلت لعمي وانا ارى الدلالات واضحة. دلالات السكارى التي كثيرا ما لاحظتها على الشرطي الكردي الذي يسكن في طرف الفسحة مقابل بيتنا. اشيع عنه انه يظل معلقا على سطحهم يشرب من ابريق عرق حتى يؤذن الفجر.

- ليس السكر عيبا في الرجل، مادام يحافظ على اتزانه. ولايسئ الى الناس. من الان

وصاعدا سترى كثيرا من الامور غير المألوفة، ما تقع عليه عيناك وتسمعه اذناك

لاتذكره لاحد.

الحرارة جعلت للطعام رائحة نفاذة تدور في فضاء المطعم. العامل

المصري صف على طاولتنا اطباق الرز والباذنجان المطبوخ مع قطع اللحم الصغيرة واقراص الخبز وماعون فيه بقدونس وبصل ومخلل واناء مياه مثلجة وسماق وملاعق نظيفة. لم اجد شهية للطعام. تناولت جزءا يسيرا من وجبتي واكتفيت كعادتي بعب كؤوس المياه. عمي راح يلتهم الاطباق طبقا بعد طبق. انها نقودنا كان يردد على مسامعي. اتى على كل ماموجود على الطاولة بمافيه البصل. ثم اوصى العامل على قدحين من الشاي الاسود مع سكر كثير. فهمت لماذا يمتلك عمي سحرا خاصا على النساء. الاكولون كما يقول جدي لديهم طاقة هائلة على المضاجعة. فهم يرومون اخراج مايتجمع في اجسادهم من حرارة. يكمن السر اذن في تلك الشهية العارمة للطعام التي يمتلكها عمي. قررت مع نفسي ان اقسر نفسي على تناول طعام كثير في المستقبل، ولا يهم ان اصبت بالتخمة.

ـ سأخرج لتنسم الهواء وسأنتظرك عند الباب.

قلت لعمي واتجهت الى الشمس والريح والفضاء الشاسع، خارج البناية.

غرب صحراوي مرمل، ملئ بالجمال والمشائر والبدو الذين كانوا يوما كابوسا حقيقيا لهذه الاصقاع. بنادقهم وسيوفهم وخناجرهم وعيونهم الطامعة بذهب المدن وخيراتها. مساحات شاسعة، كانت مسرحا مثاليا للمعارك والطراد والغارات. سيارات تمر وشارع يسري وأفق لانهائي. كل ذلك امام مطعم معبأ بالبشر والمشاغل والمشاريع. للعجلات على الاسفلت نواح غريب في هذه الساعات من بعد الظهيرة. باصات خشب ولوريات حمل فارغة وشاحنات تقطر خلفها شاحنات، وسيارات خاصة فخمة. بدا الشارع وكأنه قطعة من حياتنا الضاجة بالمتناقضات.

في مكان ما، لا اراه لكنني اخمن اتجاهه تمتد الاهوار التي حدثني عنها عمي. تلك المسطحات المائية المكتظة بالجاموس والاسماك والبردي. عوامات مبنية من القصب تحمل اكواخا للمعدان والشيوخ

والفلاحين. تزينها صور الائمة والمرايا العتيقة ومساجد الصلاة المزخرفة بالاصباغ. ثمة ابلام ومشاحيف. بط وفالات وخنازير ذوات انياب معقوفة. شيوخ دين عمائمهم خضر يتنقلون بمشاحيفهم بحثا عن النساء العواقر والرجال الممسوسين. ادواتهم حجب وبخور وطاسات يرون بها الحظ ومسابح. رؤوسهم تتسع لمئات الحكايات عن شيوخ الزمن الغابر. آل بلاسم وآل المريبي وفتلة وشيوخ المحمرة. نعم، كل ذلك يقع في الشرق. اخبرني عمي ولم اعرف اهو هازل ام جاد انه سوف يأخذني برحلة الى هور الحمار كي نصيد البط والخضيري. ربما ذكر ذلك من اجل اغرائي للمجئ معه الى البصرة ليس غير.

استأنفنا المسير واغمضت عيني على السفرة الموعودة. ابحرت في المسطحات المائية والمشاحيف والنساء ولحى الشيوخ الغابرين. افقت وسط ساحة ضاجة بالبشر والاضواء، هواؤها خانق بسبب الرطوبة، قال عمي اننا الآن في الزبير. هناك فندق الزهراء الذي سيكون محل اقامتنا. اشار الى بناية من طابقين تشرف على الساحة، وكان الامر اشبه بحلم. . .

في الاسبوع الذي اعقب رجوع ابي من الكويت، اخبرنا بالتفصيل عن قصة لقائه مع صديقه هجيج الكويتي. كان في الاصل بصراوي من مدينة الزبير بالتحديد، وهو يحمل ملامح ابناء المدينة بوضوح. هاجر الى هناك طمعا بالثروة والجاه، فارتبط بالشرطة، ولانه يجيد القراءة والكتابة تدرج بالرتب سريعا حتى صار ضابطا. اقرباؤه لمايزالوا في الزبير وهم يزورونه بين الحين والآخر. قدم لابي خدمة كبيرة في الاقامة وايجاد محل للسكن، ولكي يرد له ابي الجميل دعاه لقضاء شهر في القرية. كان ذلك قبل الفيضان بقليل، وكانت القرية عامرة بالفاكهة والنخيل والبيوت والمزارع.

وصل المدينة صباحا وسأل عن اسم قريتنا فيها فلم يدله احد. قيل

له لانعرف قرية بهذا الاسم، وعرفنا فيما بعد، انه حرف اللفظ قليلا بسبب ارتباكه او نسيانه، الامر الذي جعله يقضي يوما كاملا في المدينة. داخله اليأس من العثور على شخص يدله عليها. راح يسأل عن اسم ابي وجدي والعشيرة التي ننتمي اليها. في النهاية وجد ضالته قرب كراج العشائر. صادف رجلا يعرفنا و يعرفه هو ايضا. سمع حكايته من ابي، بل وذكر لهجيج تفاصيل عنه لم يخطر له ان رجلا لم يلتقه يوما يعرفها.

ـ لولا انشغالي بمحاكمة حول ارض غدا لاخذتك الى هناك. ساصف لك الطريق وحاول ان تتبع الوصف. خذ الشارع الذي يركب السدة واتبعه. اعبر الجسر والتف الى اليمين. سر مقدار ساعة الى ان تلتقيك شجرة نبق ضخمة معمرة. قف هناك وسوف ترى منحدرا الى اليسار. انزل منه، وستجد القرية امامك.

بيتكم لاتخطئه العين، قال لنا حين وصل القرية. كان ابي قد اعطاه صورة كاملة عنه، واجهته الصخرية وبابه الازرق واشجار اليوكالبتوس المخيمة عليه، حتى انه قال لزوجته حال وصوله شجرة النبق، هذا هو البيت. وكان صادقا في تخمينه. لايعرف هجيج البيت فقط، بل عمي ايضا ومغامراته مع النساء وما جرى له مع ابي وكيف ضربه بأبريق الماء وشاعر القرية الذي يؤلف القصائد من دون قلم ويبعثها الى ابنه في جبل قنديل.

هجيج رجل طويل نحيف يرتدي دشداشة بيضاء من غير ياقة، اسمر البشرة حاد النظرات يدخن سجائر كريفن بلذة وافراط. الدخان لي مثل الهواء اذا لم استنشقه اموت، كان يردد. لاحظت انه يخرج الدخان من منخريه بسرعة هائلة حتى تحولت لثته الى قطعة من الجير. اقام اسبوعا في القرية. وكانت القرية عامرة بالتين والعنب والنارنج واللوبياء والرقي وبكل انواع المخضرات والتمور، في ارض بكر ترفد ماءها من النهر وتعيش بسلام تحت الاشعة المسائية الساحرة. خبز

وافر ووجوه طليقة دعت هجيجا لان يقول لابي، بعد يوم واحد من وصوله، انه لم ير خيرات مثل هذه في حياته. شاهد مساءات ابي الخصيب وعاش وفرة النخيل وتجول في كثير من الحقول لكنه لم ينعم بمرأى سلام مثل هذا. كنت معلقا في قلب شجرة توت توتها احمر حلو في بستان امونة حين نادت علي واخبرتني ان ضيوفا ذوي ابهة وصلوا الى بيتنا. جاؤا بسيارة فارهة وردية اللون تشبه سيارة الملوك. قالت لي تذكرني حين يتم تقسيم العطايا.

عزم ابي وجهاء القرية، ونحر خروفين وطبخ الرز والمرق وزين الرز بالزبيب واللحوم المقلية. فوق الكل وضع الالية المكتنزة بالشحم. وكان خالي حزم يدير المائدة بفخر ويمسك عسيبا ينش به الاطفال الفضوليين مبعدا اياهم عن مجالس الكبار. كان عملي توزيع الماء على الجالسين بطاسات من الفافون وسطل مليء بالماء المثلج. في تلك الليلة اقتنعت ان ابي رجل مهم، وان له الحق في ضربي طالما هو بهذه الاهمية. وكانت ليلة مرعبة حقا. تناوب فيها خالي حزم وهجيج على رواية عشرات القصص عن الجن والشياطين والمردة في الصحاري والبحار والمقابر. كنت اعجب من خروجهم بعد سماع تلك القصص لقضاء حاجاتهم في غابة النخيل. يؤمنون بوجود الجن لكنهم لايخافونهم؟ لابد ان يكون الواحد منهم حاملا خرزة سحرية او عين ذئب تقيه شرورهم.

ضحى كنا نمضي بهما الى النخيل القريب من البيت. نجلس وسط الواح القت المرقش بالفراش. نمد الافرشة ونجلب اللبن والتمر الخستاوي والزبد، اما الشاي الذي لايصبر عليه هجيج اكثر من ساعة فنجلبه مع منقلة جمر معبأة بقواري الشاي وابارق الماء الحار ثم لاتمضي الا دقائق حتى يفوح المكان برائحة الهيل. الفاختات تحوم فوق رؤوسنا منشدات لافراخ في كومة ليف وسط نخلة. فاختات تملا الفضاء بهديلها

الباعث على الحسرات. لا تلبث السجائر ان توضع في الافواه ولا يلبث الدخان من الغوص عميقا في الرئات. حتى جدي يضع مشربه في فمه ويمضي نحو اغماءة شاسعة مع الدخان، يمص ويمص دون كلل، مع انه لم يفارق القرية حتى بلوغه السبعين. النمل يدخل منازله قرب افرشتنا، محملا بقصاصات الشعير واوراق القت واجنحة الفراش، تحت اشعة سائلة تنثها سماء زمردية تشكل فوق قريتنا قبة تشبه تاج شجرة النبق.

يهبط العصر. يخرج الهواء الساخن من القرية مفسحا الفضاء لنفحات لطيفة قادمة من السواقي والاعشاب الطازجة والظلال العميقة للنخيل والاشجار. يقترح ابي على هجيج ان نقوم بجولة في طرقات القرية. يريه المستوصف والمدرسة والمستنقعات التي نصطاد منها الخضيري ودجاج الماء ولاينسى التعريج به على دكان زابط المضحي فيامر لنا بدورة من المرطبات. شابي وميرنده وبيبسي كولا ومشن. نتابع الجولة بعدها نحو شاطئ النهر حيث مطحنة القرية. يتحسر هجيج لانه لم يجلب معه قليلا من الديناميت او الزهر لصيد السمك.

كانت القرية تبدو للرائي من الشط مثل سجادة ملونة، سجادة صاغتها الشبابيك والبيوت والاشجار والطرق. ذلك المنظر اليومي الذي كانت تتبدى فيه، هو الذي جعل هجيج يشعر بالاسف لمغادرتنا عائدا الى الصحراء. كان ينظر ويعجب، يقول لنا نحن مرافقيه، هذه هي الجنة التي ذكرها القرآن ماء وخضراء ووجه حسن. يشير الى وجوهنا غامزا والابتسامة تعلو شفتيه. قال في اليوم الاخير من رحيله، بين الجد والهزل:حين اتقاعد سآتي للعيش هنا. اشتري قطعة ارض واشيد بيتا ثم اصير فلاحا. واحد من فلاحي هذه الجنة.

النساء، خالتي وامي وقريباتنا ونساء الجيران، كن يحطن زوجة هجيج مثل النحل. في البيت، اثناء الخروج الى الحقل. يمضين معها الى الدكان للتفرج على بضائع زابط المضحي. اكثر ما كان يجذبهن فيها

لهجتها الثقيلة غير المفهومة احيانا، وعينيها السوداوين، المؤطرتين بخطين اسودين شاحبين يضفيان على العينين جمالا اخاذا. جيدها اسمر ممتلئ مطوق بالذهب. ذهب بأشكال غير مألوفة:اطواق، قلائد، سلاسل تتدلى نحو بطنها المكور وكانت تلف راسها بطرحة بيضاء تظهر منها شعرات سود مظفورة بعناية. شئ اثار الاستغراب والدهشة والحسد في عيون النساء. فنساء قريتنا يطوقن رؤوسهن بملافع سود تبديهن مثل غربان الزرع. رايت عمي مرة يحوم حول مجلس النسوة متذرعا بطلب ماء او السؤال عن جاهزية الاكل او ايصال رسالة من هجيج الى زوجته. وفي مرة من المرات رصدته جالسا بين نخلتين اثناء خروج النسوة الى الظل، وكان يفرك خاتمه بأصرار غريب.

من جانبها راحت زوجة هجيج تحدث النساء عن انواع السمك وكيف يطبخ ونوع البهارات وكيف يتزوج الرجال والزينات والاعراس. ومع كل حكاية تتسع العيون دهشة، وتسافر الاوهام الى ارض اللؤلؤ والنفط والمحار والرمال. كما لو كانت النسوة عازمات هن ايضا على السفر لاكتشاف المجهول ومشاهدة المدن البعيدة، حتى لو كان ذلك عن طريق الخيال تعويضا لعزلتهن الشاقة في القرية. لاتزال صورة هجيج عالقة بذهني إلى اليوم. رغم مرور اعوام طويلة على تلك الزيارة. ترى هل يتعرف عليّ الان فيما لو قفزت فجأة من الزبير الى الكويت، بعد كل تلك الاعوام؟ هل استطيع التعرف عليه لو صادفته في ساحة الزبير. . . على حين غرة؟

- ١٥ -

كنا نستيقظ فجرا قبل ان يندحر الظلام كلية من زوايا الغرفة والنافذة الضيقة المطلة على المرآب الصغير. نتجمع مع العمال والجنود والباعة في ساحة الزبير. في الساحة تتناثر عربات الطعام التي لم تزل فوانيسها مضاءة لتكشف للمشترين انواع الطعام، لفات البيض والباذنجان المقلي والطماطم وقدور الشوربة العدس والبطاطا الشرائح. كان الباعة يعمدون الى تزيين بضاعتهم برؤوس البصل المقشرة والطماطم وجرزات البقدونس، وهم ينافسون بائعات اللبن الروبة. كن يجلسن على الارض، عارضات طاسات اللبن والارغفة الساخنة الخارجة للتو من الفرن.

عالم الساحة يجعلني احس وكأنني اعيش وسط عالم مسحور، محشو بالغرائب. بشر وحوارات ونداءات وروائح واختلاط كبير بين النسوة والرجال. عالم غريب لايلبث ان يتبعثر ويختفي مع اطلالة الاشعة الاولى لشمس الجنوب. لايبقى سوى اكوام الطماطم الفاسدة والورق الدبق واعقاب المخضرات الفائضة عن صناديق القمامة التي يرتجلها الباعة في اواخر الليل. ويجرفها الكناسون في اوائل الصباح.

من تلك الساحة نتجه انا وعمي الى البصرة. فكرت بالسبب الذي

يجعل عمي يفضل قطع كل هذه المسافة من الزبير الى القرنة مرورا بالبصرة على ايجاد مكان للسكن في منطقة قريبة من العمل. لم اعثر على سبب معقول، ولم اسأل عمي حسان عن ذلك، لئلا يظن انني اثاقل من رحلتنا اليومية تلك. قررت ان انال رضا عمي بأي شكل كان، رضاه الذي سيجلب لي النقود والوقت، اللذين احتاجهما للتسكع في الزبير وتلمس ملامحها. توصلت اثناء تسكعي الى انها كانت، قبل قرن، لايقطنها اكثر من الف نسمة. وكانت بوابة لنجد والحجاز ومحط رحال البدو في الزمن الغابر. زمن الخير كما يصفه جدي، حيث المطر يهمي اغزر والعشب ينمو اكثر كثافة والناس مليئون بالرحمة والسماء اشد زرقة من سماوات هذه الايام المغطاة بالبارود والدخان وغبرة الحفارات. شبهها شاعر بدوي في سالف الزمان بقطع خبز طافية في اناء من المرقة بيوت الطين هي بيوتها، لاتختلف عن مخابئ الجرذان، كي تصد رياح السموم. وجدت الصورة لطيفة وترد الى ذهني كلما توجهنا اليها من البصرة عائدين الى الفندق عصرا. ثمة سر فيها يجعل الناس ينزحون اليها من اماكن بعيدة، لاتفتقر مثلها الى الخضرة والمياه والابهة. زنوج ونساء سود العيون في شفاههن سواد محبب وفي وجوههن سمرة مختلطة بحمرة. فرق هيوة وبزخ وغجر وبدو وهتود وايرانيون وعرب اهوازيون وبقايا عبيد يعتاشون على بيع المرطبات او العمل زيالين في البلدية. معدان يبيعون الحليب والقيمر والجبن للعمال والجنود والمقاولين الذين جذبتهم حمى العمل فحطوا الرحال فيها مثلنا انا وعمي.

في المساء، كان يحلو لي ان اتبادل الحديث مع صاحب الفندق، وهو زبيري يلبس كوفية بيضاء وعقالا ودشداشة، في صالة الفندق. حيث تحتل طاولته الفسحة المقابلة للباب، ويظل جالسا خلفها حتى وقت متأخر من الليل. يحل محله عامل مصري يرتب اغلاق الفندق وفتحه للمتأخرين. ينظف الغرف صباحا ويراقب احوال المسافرين.

كان صاحب الفندق يوجه التلفزيون الى القناة الكويتية دائما.

البرامج العراقية غثيثة كان يقول. جريدة اخبار لاغير، زيارات مسؤولين واستقبال وتوديع واناشيد ودبابات ومظاهرات، عكس التلفزيون الكويتي:اغاني خليجية تذكرنا بأغاني البحارة واناشيد صيادي اللؤلؤ وحداء البدو ومسلسلات عربية حلوة وافلام تخلب العقل. كان يراقب البرامج بشغف. ويحفظ اوقات بثها، ويمتلك عادة التعليق عليها، ولا تخلو تعليقاته من توريات مبطنة عن الاوضاع في البلد.

ـ انك تحب الكويت كثيرا.

سألته ذات ليلة حينما لم يبق احد معنا في الصالة. رغبت التبسط معه في الحديث وتزجية الوقت ومعرفة المزيد من احوال الناس في هذه المدينة.

ـ من لايحبها. مال وحلال وشيوخ وسيارات تسير مثل العفاريت في الشوارع والشوارع نظيفة ومبلطة والاسواق عامرة بالخيرات. هل يمكن ان تقارن بزبيرنا الوسخة هذه؟ ابدا كالفرق بين السماء والارض. هل زرتها في حياتك؟

ـ لم ازرها، مع انني انوي ذلك، لكن لا امتلك جواز سفر. اعرف ضابطا فيها اسمه هجيج. ضابط شرطة زارنا هو وزوجته قبل فترة طويلة، كان صديقا لابي.

ـ زمن الخير ولى، كانت الحياة في الماضي تسلية ومغامرة. ايام كان للمغامرة طعم شهي ولاتقود المرء الى حبل المشنقة. لقد بنيت فندقي هذا من التهريب. اشتغلت سنة كاملة بتهريب الذهب. اعبر صفوان مرتين في الاسبوع. ورجال الجمارك يقولون لي نعرف انك تهرب شيئا لكننا لانستطيع اكتشافه. معاون شرطة شاب عرف انني اهرب الذهب بصبه ارقاما في لوحة السيارة، وكدت ان اخيس في السجن لولا الرشوة. تلك واحدة من مغامراتي. كنت اهرب كل شئ حتى البشر. كنا مجموعة من المهربين نستخدم سيارة بيك آب شوفروليت،

كثيرما جرت بيننا وبين الشرطة مواجهات بالرصاص، قتل فيها مرة واحد من مجموعتنا.

سألته بهمس، وانا اترصد الباب ومداخل الفندق خوف ان يسمعني شخص ما:

- وهل بقي في الزبير مهربون كالايام السالفة؟

لامست عصبا حساسا في روحه. تطلع لي لحظات بصمت وتوجس. بدأت عيناه تلصفان وتتطلعان في الصالة بحذر وقلق ثم همس في اذني بصوت بالكاد وصلني:

- اجل، لكن بسرية كبيرة، فقد اتخذت صبغة سياسية. ادخلوها مثل غيرها من المهن في سراديب الاحزاب والتقولات والنزاعات. هذا يضر بمصلحة الوطن وهذا ينفع، كما تعرف هناك كثير من الناس ناقمين على الاوضاع. لا ادري لماذا، وهم يودون الهروب الى اي مكان.

- هل تعرف اليوم واحدا من اولئك المهربين؟

لم يرد على سؤالي وفكرت انه لايثق بي. قام من مكانه واطفأ التلفزيون واوصى العامل يوسف بتولي مهمة الباب ودفتر الاسماء. جلس على الاريكة قربي وكانت تفوح منه رائحة العرق وخاطبني قائلا:

- هل يهمك ان تعرف دروب المهربين؟

- من باب الفضول لاغير.

- تعال الى غرفتي لنشرب كأس عرق ونتكلم على انفراد.

رغم حاجتي لمعرفة سبل الهروب الى الكويت، والبدء بحياة جديدة هناك، الا ان ثمة شيئا في نظرات الرجل لم يعجبني. احسست بلسعة خفيفة من الخوف في قلبي. حدثتني نفسي بكثير من الظنون حوله. لم لايكون مخبرا ويريد معرفة نواياي؟ ربما يقودني الى غرفته لتسجيل كلامي؟ وقد سمعت قصصا كثيرة عن مثل هذه الامور.

- في ليلة اخرى ربما فعمي ينتظرني الان كي ننام، علينا ان ننهض

باكرا غدا.

لبثت افكر بمشروع الهروب طوال اليوم الثاني. لكن الشئ الغريب ان عمي حسان اعطاني صورة مغايرة للتي عكسها صاحب الفندق عن نفسه. يبدو ان عمي يعرفه معرفة جيدة. اوحى لي من خلال حديثه عنه انه كان مهربا وتاب. والتوبة تعني للحكومة ان الرجل بدأ يتعاون معها، يدلهم على الاشخاص الراغبين بالهرب او يسلمهم لهم بعد رحلة قصيرة خارج الزبير. لذلك رحت اتفادى الانفراد بالرجل ولا البث طويلا في الصالة. اذ جرفتني شؤون العمل مع عمي بعيدا عن الزبير وحياتها.

حصل عمي على عمل الحفر من شركة فرنسية مقرها الرئيسي في بغداد، واعتبر ابي ذلك ضربة من ضربات الحظ. راح يشيد بمناقب عمي اسبوعا كاملا. تناسى له مغامراته النسائية وفضائحه وتخليه عن الواجبات الدينية. وصفه بأنه رجل كل الاوقات. يميل مع الريح اينما مالت، ولاينظر الا الى مايحقق له الربح والوجاهة، رغم انتشار اشاعة لايعرف مصدرها حول تعرف عمي على ممثل الشركة في واحدة من مجالس السكر في شارع ابي نواس. عد ابي الاشاعة مزحة، بل وحذفها من احاديثه حول فوائد العمل مع الشركات الاجنبية. نقود كثيرة وعلاقات مع بلدان اجنبية وسفر على حساب الشركة وتعلم لغة جديدة، ومن يدري ربما يصبح المرء ممثلاللشركة في البلد وذلك مطمح لا يصيبه اي كان.

بدأنا العمل بعد ثلاثة ايام من وصولنا الى البصرة. انتشر الخبر في القرية حال دخول الحفارة الى الموقع. فتوافدت كثير من النسوة الى المكان. حسبت للوهلة الاولى اننا ارتكبنا خطأ ما نحو بيوت القرية ولم ينجل سبب قدومهن الا بعد ان بدأ عمي الحفر.

كن يجمعن العروق المستخرجة من باطن الارض، لاستخدامها وقودا لطبخ الطعام وغلي الحليب والتدفئة في الشتاء. كن بكل

الاعمار:اطفال وعجائز وشابات ومتزوجات وارامل. لمحت من بينهن عددا من الجميلات اللواتي رحن يستثرن مني الخيال. عروق نخيل ميتة منذ اجيال ماضية وعروق شوك واشجار ابيدت لاستصلاح الارض وزرعها بالطماطم والباميا، عروق نحيفة، طويلة، غليظة، متشابكة مع بعضها البعض، عروق نباتات بحرية اوراقها في قاع الشط وجذورها هائمة الى الارض. امامنا، في الضفة الثانية موقع الميناء العسكري او المطار او القاعدة، لست ادري. كان عاجا بالرافعات والحفارات والبشر. شكلت رافعة عمي والسدة الطويلة التي ستكون خزانا للطين ذيلا بسيطا مهملا من ذيوله. حتى مرور بضعة ايام على عملنا لم نكن نعرف بالضبط ما الذي يجري. عمي لديه فكرة غامضة، ولا احد من المراقبين او المهندسين الذين وفدوا الينا مع خرائطهم وتوجيهاتهم يود البوح عن طبيعة المشروع. ثمة فكرة، شائشة لاذهاننا حول تعميق النهر مقابل المشروع. استنتجت منها ان ذلك لتسهيل رسو بواخر ستقدم في المستقبل من الخليج وتفرغ حمولتها من المدافع والدبابات والرادارات والعتاد على الرصيف الذي يتم بناؤه. لم نر الآلة العملاقة التي ستشفط الطيّن من القاع وتلفظه خلف السدة التي ينشئها عمي. ستتغمر بعدها حقول المخضر والنخيل والواح القت الممتدة تحت بصري حتى القرية بفيضان من الطين.

كنت اقضي نهار العمل جالسا على حافة الشط مدليا رجلي في المياه ومفكرا بهموم اصحاب المشاحيف الذين يمرون تباعا واغانيهم لاتنقطع. اقف جوار عمي في كابينة القيادة موهما اياه انني مهتم جدا بتعلم السياقة. والحقيقة انني كنت اتطلع في نساء القرية وماينكشف من سيقانهن البيض اللاصفات او افخاذهن الشبيهة بالقطن. لم يكن لنا اختلاط مع اهالي القرية. كان الرجال والنسوة ينظرون لنا بريبة، وكانت بيوت القرية عبارة عن علب واسعة من الطين، تتزوي بين النخيل ويفصل

فيما بينها اراض سبخة او مزروعة بالبرسيم والقسح والشوك والعاقول. تشقها طرق ضيقة تحولها الى خرائط غريبة التصاميم. لم يبد عمي اي اهتمام بالنساء. الامر الذي اثار استغرابي. حتى انه كان ينزع خاتمه من اصبعه ليضعه امامه على افريز صغير، اكثر الساعات. اجهل تمام الجهل لماذا يقوم بذلك. هل هو تبتل جديد استولى عليه ام حذر من اهل القرية؟ عمي اوصاني بعدم التحرش او التطلع الزائد بالنساء. نحن غرباء، كما قال لي مرة في الفندق، وعلى الغريب ان يكون مهذبا.

الوقت ضحى والسماء صافية. ضجة الشركة كانت تصل من الضفة الثانية الينا حينما اقترب من الحفارة رجل، خمنت انه من اهالي القرية، اذ قدم من جهتها. اومأ مسلما على عمي، ثم اشار له انه يرغب بالحديث اليه. اقتربت منه بتمهل وتفحصته جيدا عن قرب. رجل صغير القامة ضيق العينين حليق اللحية والشارب لولا شعيرات تكاد لاترى تركت تحت الانف. وجهه يدل على وسامة قديمة و يغطي رأسه يشماغ اسمر الخلفية بتزويقات سود اشبه بالسلاسل، ثبته على قحفه بعقال غليظ تتدلى منه شرشوبة على جاكيته الخفيف غير الملائم لضحى ساخن مثل هذا.

نزل عمي من الحفارة وفتح لثامه وصافح الرجل بحرارة.

- قبل كل شئ انتما ضيفاي على الغداء هذا اليوم.

خاطب الرجل عمي بابتسامة مريحة، رفعت الكلفة فيما بيننا واضفت عليه سيماء اليفة.

- بارك الله فيك. هل تسكن في القرية؟

- بيتي هناك وسط بستان النخيل، لايمكن لكما ان تضلا.

رحنا نتأمل القرية وبيوتها، في لحظة من الصمت، ولاحظت الحاطبات يتأملننا بارتياح، فما كان من الرجل الا ان عاود حديثه ولكن باتجاه اخر هذه المرة.

- قبل اشهر قيل لنا ان شركة فرنسية ستبني مطارا هنا. لايعرف الانسان لم تكثر الحكومة هذه الايام من المطارات والموانئ والطرق، كأننا قادمون على حرب.

- هل سيقام مطار هنا ايضا؟

سأل عمي بأندهاش، فضيق الرجل عينيه واشار الى الضفة الثانية الغارقة بوهج الشمس وضوضاء العمل ومويجات الماء المتكسرة على الشنبلان والحلفاء والطين، وقال:

- اليس مايجري في الضفة الثانية بناء مطار؟

- انه ميناء عسكري.

- على اية حال ماعدنا نعرف الصدق من الكذب. الامر لايعنينا مادام يوفر العمل لنا.

لم يستطع عمي اطالة الحديث مع الرجل. مهندسو الشركة يراقبون حركة الحفارة دائما. لايتساهلون بأي تلكؤ يلاحظونه على سير العمل. غادرنا الرجل الى البيت وعاد عمي الى حفارته بعد ان اوصاني بتشحيم المحرك وتجهيز برميل الوقود قبل حلول الظهيرة، وهي اعمال تشكل الازعاج الاكبر لي. ملامسة الحديد الساخن عذاب ورائحة الشحوم والديزل تبعث الغثيان لدي، والاقتراب من جوف تلك الالة الشيطانية التي لاافقه من إجزائها شيئا يشيع في جسدي الخوف والذعر. شعرت بالعطف على عمي وهو يطبخ هناك، في الاحشاء المتحركة، بين النفوط والدواسات والقضبان، سابحا بالعرق ملوثا بالغبار. البصرة نفق معبأ بخمسين درجة مئوية، مطلي الجدران بالبخار الحار والرطوبة واللزوجة. عمي يتعجل انقضاء الوقت. ينظر بين الحين والاخر الى ساعته، او الى الشمس المتلظية فوق رؤوس النخيل واشجار الاثل واليوكالبتوس. القرية تناديه، بظلالها ومياهها الباردة واطايب طعامها ونسائها. انها فرصة للاقتراب من ذلك المكان المغلق على الغرباء من امثالنا. كم اتمنى لو

نجد مكانا نستأجره هنا يوفر علينا مشقة الذهاب الى الزبير والمجئ، في رحلة شاقة تستهلك الروح. لااعرف السر منها ولا الغاية. صحيح انني احب التجول في المدن والتشرد فيها، لكنني امقت الاستيقاظ فجرا. أنا كائن ليلي، نشاطي يبدا كلما ركبت مركب الوقت باتجاه الغروب.

اخرجت برميل الشحم وغرفت بملعقة كبيرة عدة غرفات. ملات المكبس، واغلقت البرميل كي لايدخله الغبار والحشرات وقطرات الماء التي يرشها عمي بين حين واخر على جسده. بتؤدة وحذر توغلت بين عتلات ومسننات ودواليب. الخطأهنا لايمكن اصلاحه. المسننات كثيرة والعتلات الضاغطة والوالجة والدافعة والطاردة تتوزع الكابينة اجمع. بعملها تكاد تشبه جنا لاهيا في مقبرة، يحاول ان يضحك على بني البشر او يروعهم بمقالبه. اذا لم ينتبه المرء لنفسه ويركز على مابين يديه، فيمكنه ان يفقد اصبعا او يدا بكل سهولة، قال لي عمي منبها في اليوم الاول للعمل.

انني لا ارغب بالعيش مشوها بالتاكيد. أصابعي بحاجة الى كثير من الخواتم. لا اريد ان اموت في شبابي بسبب هذه الالة الخبيثة. اريد ان اعيش مثل جدي، الذي شاهد كما اخبرني ركب مدحت باشا، في طفولته البعيدة، متجها ببغاله وخيوله وعرباته نحو اسطنبول. ومن يدري ربما آتي البصرة في السنين القادمة لتقع عيناي على مطار تنطلق منه الطائرات او مرفأ عاج بالسفن العملاقة، في هذه البقعة الرطبة التي اقف فيها محدقا الى النساء وعرق عمي وصقور الفضاء المحلقة فوق شط العرب. . . . من يدري!

اكملت تشحيم المحرك وملات خزان الديزل بالوقود من برميل يقف تحت نخلة محملة بالعذوق. اشرت لعمي الى انني ذاهب الى الماء لترطيب جسدي. الحرارة صارت لاتطاق، وملابسي راحت تلتصق بجسدي من الرطوبة. ماذا تفعل البصرة من دون ماء؟ هذا النفق

الجحيمي المرقش بالنخيل والفقر والغبار. مياه. مياه لآلات الحفر والبقر، مياه لاجسادنا اللزجة، مياه للكواسج والشنبلان والسمك. مياه تنساب تحت الجرف باغراء وود وسكينة. تحمل المراكب والمشاحيف والبشر. فيها السمك والكوسج والمحار والرفوش وقناني البيرة الفارغة. فيها اشواقنا الطائرة وعذاباتنا القادمة.

شلحت ملابسي، وضعتها على صفيحة صدئة يفوص نصفها في النهر. قذفت روحي الى الماء. الاشواق، القرف، الاحلام، المشاريع غير المتحققة بالهرب من هذه الارض، آثار يد ابي على جسدي، كل ذلك ناله البلل، في قفزة مفاجئة الى هذا العالم الساحر. الاشعة تتموج مع الحركات الاهتزازية لسطح الماء، تنفذ الى الاسفل كاشفة الاشن المزرق والاحياء القميئة والاوراق. ذرات الرمل تتلامع لها بالتصاف فضي، يعطي الانطباع ان القاع يتحرك ويتماوج هو الاخر، في رقصة السماء والارض وهما تتوحدان بخيوط النور. اغوص في رخاوة الكتلة الثخينة، اتوسل بالذرات ان تطويني معها. ترحل بي الى المياه الدافئة في الخليج. الى سواحل المحار والبهارات وحكايات النواخذة. الى الجزر والشعاب المرجانية واللؤلؤ. اريد ان ارى تلك الحياة الغائبة تحت شرشف الماء، الموغلة في القدم، الشاهدة على تغير الازمان وموت بني البشر. اغطس وانبق. اغطس مفضلا البقاء هناك مفتح العينين لارقب من مكمني المائي مايجري. عمي يشبه ذراعا ضخما من اذرع تلك الحفارة العجيبة، اراه من تحت الماء يومئ ويصرخ. مشى باهتزاز مضحك نحو الصفيحة الصدئة التي القيت عليها ثيابي. ايقاع لايمل ولا ينقطع، ايقاع المياه والنغمة المنشدة للقصب والبردي وعشب المستنقعات.

- الرجل ينتظرنا، ماذا حصل لك؟ الم تجع؟
- الماء لذيذ ياعمي.
- اعرف، لكن الطعام الذ. هيا الى البيت ولا تضيع وقتنا.

بيت قديم من طابوق اصفر. ذو حجم وسع ولابد انه يضم عددا كبيرا من الغرف، تتفتح دون شك على حوش فسيح، فثمة نخلة عالية ضخمة التاج مكتظة بالعذوق تتسامق من وسط البيت، تعطي انطباعا بانها هي التي تحمل البيت لا الارض الرخوة المزروعة بالثيل والمبقعة بالملح. السعف يتهدل بفعل الحرارة. الهواء لا اثر له. سكون مطلق يتغلغل في بيوت القريةوطرقاتها وبساتينها. منظر البيوت المتباعدة اوحى لي بان البشر هنا يعيشون في عزلة. وحشة لاتطاق تستولي على القاطنين، و في الليل خاصة. أستبعدت فكرة الاقامة فيها، وفضلت البقاء في الزبير حيث الاضواء وسيل البشر والشوارع. البساتين بحر خضرة لاتحده العين، والبيوت تتوارى في طياتها.

ثمة دجاج سارح في محيط البيت وبقرات مربوطة وسط النخيل، وهي ساكنة كأن الحرارة حولتها الى مخلوقات ترابية بلا روح .

محيط ساحة البيت مسور بأسلاك معدنية زرعت على امتدادها اشجار بوكالبتوس غضة وشطوب رمان بوريقات ناعمة وتين لمايزل يلتز على عصي تسندها وتحفظها مستقيمة عالقة في الارض. ساحة مضغوطة التراب، في وسطها شجرة تين يحيط ساقها حوض عال.

اعادت لي ذكرى بيتنا قبل الفيضان، فالشبه كبير بين الساحتين، لولا وجود شجرة يوكالبتوس معمرة في طرف من اطراف هذه الساحة. شعب الشجرة عديدة وملاى باعشاش العصافير والغربان واليمام، بدت مثل بقع زيت على سجادة خضراء. اطفال يتوزعون الساحة ومقدمة البيت كانت عيونهم مندهشة لمجيئنا.

الرجل الكهل الفيناء واقفا في الباب. الابتسامة المرحبة لاتزال ترف على شفتيه، الامر الذي ازال حرجي وشجعني على المشي بخطوات غير مرتبكة. كان يرتدي دشداشة بيضاء نظيفة لكنه الان دون عقال او غطاء رأس.

ـ اعذرونا من المكان، انه عتيق جدا فقد كان ذات يوم قصرا لاحد الشيوخ.

ودون ان ينتظر منا تعليقا قادنا من ايدينا عبر الساحة وادخلنا الى غرفة الضيوف التي تفتح على الساحة بباب ضيق لونه ازرق.

ـ لم يبق اليوم في البلد لاشيوخ ولا ميوخ.

قال عمي ممازحا ونحن نجلس على الفراش، فصمت الرجل. إختفت ابتسامته لحظات ثم ضيق عينيه وحدق في وجه عمي مليا. قال:

ـ كان يملك القرية هذه، ارثا عن ابيه طوال العهد الملكي. انه اليوم رئيسا للجمعيات الفلاحية لارياف القرنة. اصبح مسؤولا كبيرا، فهل تصدق هذا؟ خرج الشيوخ من الباب وعادوا من الرازونة.

اثاث غرفة الضيوف اثاث بسيط. يتكون من باريتين من القصب مدتا بموازاة الشبابيك فرش عليهما بساطان من صوف ملون باشكال هندسية. قرب الباب علق مسجد للصلاة من الخوص عليه زخارف نسائية مارايت مثلها في قريتنا قبل رحيلنا الى المدينة. الطيور والزرافات والاشجار تتداخل فيما بينها وهي حين يواجهها الجالس تبعث فيه شعورا من النسك والارتياح. يقابل المسجد من قعر الغرفة

صورة شعبية لعلي بن ابي طالب راكبا فرسه متقلدا سيفه وتحيط رأسه هالة يميل لونها الى الصفرة. خارج الباب وضع ابريق نحاسي احمر مع اناء مفلطح عليه صابونة لغسل اليد. كان المكان نظيفا رغم بساطة الاثاث والفقر البادي على اهل البيت.

خلافا لتوقعي باننا سنجد البيت مكتظا بالرجال على عادة اهل القرى. لم يشاركنا المجلس الا الرجل وصبي لم يبلغ سن المراهقة. عرفنا انه الابن الاصغر لحريجة.

ينقطع الكلام في الغرفة و تمتلئ اذاننا بضجة العصافير القادمة من النوافذ المفتوحة. رطوبة الشط الخانقة تجعل المرء لايفكر الا بالماء. فكرت ان التطلع من الشبابيك الى النخيل عندما يهطل المطر من اجمل مايكون. حين تبدا الاف المسائل الصغيرة تترشح من السعف الى الجذوع. هذا البيت خلق للشتاء لا للصيف اكدت لنفسي.

بيني وبين عمي وسادتان من الريش. قرقرة بطنه تتردد في اذني. خشيت ان يسمعها الرجل فشعرت بالخجل. حريجة كان مشغولا عنا بحديث طويل عن الشيوخ الذين حكموا هذه النواحي قبل قيام الجمهورية. كان يتحدث حديث العارف المطلع على الاحداث وبواطن الامور. عوائل تمتلك كل شئ، حتى البشر. املاكهم يمشي فيها الفارس اياما قبل ان يصل الى حدودها. عيشة ملوك عاشوا. آل النقيب والسعدون وآل فتلة ومحمد العريبي. لهم سجونهم وجيوشهم وقصورهم واموالهم وكتبتهم وسراكيلهم. علاقتهم مع بغداد كما الاصبع والخاتم. اما الفلاحون فيكدحون منذ الفجر حتى مغيب الشمس ولايجدون في الاخير الا الخبز، خبز الشعير الاسمر الذي لاترضي به حتى الحمير. الويل لمن يرفع صوته او يجار بالشكوى. كانت قصورهم مواخير، نساء وخمور وولائم، لكن الحياة الرخية لاتدوم لاحد. جاء الزعيم وسلب منهم السلطة. سلبها منهم ومن ملوكهم واراح الناس منهم. ووسط حكايات

حريجة التى لاتنتهي عن سالف الايام، وطفولته في ارياف القرنة، همس لي عمي بخفوت:

ـ سيقتلني الجوع، اللعنة على الشيوخ.

بدا الصفار يجلبون الاطباق فبان الارتياح على وجه عمي. رأيت بلعومة يتقلص وينبسط وعيناه تتابعان مايوضع على سفرة الطعام البلاستيكية. رز وباذنجان وسمك مدخن قال حريجة انه اصطاده بغالة من الشط. ريحان وبصل اخضر. خبز باقراص واسعة ورائحة شهية لفت فضاء الغرفة. دخلت امراة شابة تحمل اناء مليئا باللبن فيه قطع من الثلج وكأسا بلوريا يلفت النظر ولا يتناسب مع حياة القرية. القت علينا التحية ولمحت وجه عمي يتوقد حمرة بينما اخذت عيناه تلصفان وهو يخالسها النظرات . جسد طويل ملئ ووجه مضئ على شئ من الاستدارة، يؤطره ملفع ابريسم مثبت بكلاب من الذهب. صدرها حين تنحني لتعديل السفرة او اناء اللبن، يشع بياضا، اما رقبتها فمثل عاج، وقد لاحق عمي ارداقها بنظرات محملة بالشره. كنت وحدي اعرف ما وراءها. بدأ يحرك اصابعه ويفرك يديه وهي علامات استثارته التي اعرفها جيدا. وقد بان عليها الارتباك حين راح حريجة يتكلم عنها:

ـ اختكم سنية زوجة ابني سالم. هذا هو حيدر اصغر ابنائي. سالم جندي مكلف في كركوك، يأتينا مرة كل شهر. لانصدق انه سيتسرح من الجيش، بقي له سنة من الخدمة. الاعمال في البيت كثيرة، كما ان الشركات اليوم مثل النمل يجدها المرء في كل زاوية من البلد.

هل اعجبت سنية عمي منذ هذه اللحظة؟ زوجها غائب، وحريجة يبدو عليه انه يمنح الثقة بسهولة للاخرين والا لما تركها تدخل على ذئب كعمي، وهي فرص تتماشى مع خطط عمي حين يريد البحث عن ضحية. احسست انه يفكر بسنية والا ما تبسط بالحديث هكذا عن الشركة الفرنسية وغنى الحفريات بالعروق و فندق الزهراء الذي

نقطنه. عمي لا يترك مشاريعه للصدفة. يخطط باحكام للايقاع بضحيته. النقود لاتهم، الوقت لايعني شيئا. وقبل ان ننتهي من شرب الشاي الاسود الثقيل نوه عمي لحريجة بحاجة الشركة لمراقب على الحفارة، حسب نص الاتفاق المبرم معها. لذلك عرفت ان سنية قد دخلت في مدار خاتم عمي السحري. انها مسألة وقت لاغير. لكن كيف؟

يده التي داعبت ارداف صاحبة المنديل ماثلة امامي. انها تطوف في خيالي كلما احسست ان عمي قادم على مغامرة جديدة مع امراة. واولى بوادر صدق الظنون، ظنوني، ان عمي سعى لدى الشركة لتوظيف حريجة مراقبا على الحفارة. ثم صار حريجة واحدا من اكبر المدافعين عن الشركة واعمالها. كان يفاخر محدثيه بجودة السمنت ومتانة الحديد وجودة الاصباغ وثبات الدهونات المستخدمة في طلي العوارض والجدران والارصفة. صار عمي منذ ذلك اليوم يذهب الى بيت حريجة في اي وقت يشاء. بل ويتكلم مع سنية دون حرج ويمازحها حول زوجها ومايقوم به من مغامرات في كركوك.

في عصر احد الايام، وبعد ان اغلقنا ابواب الحفارة وسبحنا في شط العرب وارتدينا ملابس نظيفة، توجهنا الى الطريق الموصل الى شارع القرنة. كنت اظن اننا ذاهبون الى الزبير، الا ان عمي فاجأني قائلا:

ـ هل تملك نقودا كافية للرجوع الى الزبير؟

ـ كلا.

ناولني عمي قبضة من الدنانير وقال لي بمرح:

ـ تعال غدا دون استعجال، سوف املا خزان الوقود بنفسي واشحم المحرك. سابقى الليلة في بيت حريجة لان ثمة امورا تخص العمل اود ان احدثه عنها.

ما الذي ينوي عمي القيام به هذه الليلة؟ هل صارت الثمرة ناضجة بمافيه الكفاية للسقوط في سلته؟ ولم الليلة بالذات؟ كانت سنية تأتي

كل يوم تقريبا لاحتطاب العروق من خلف الحفارة، مع غيرها من النساء والصبيان والاطفال، الا انني لم ارها اليوم. كانت تلقي علي التحية كلما صادفتها، لكنني لمحت كثيرا من الاشارات الخفية بينها وبين عمي. اشارات تستخدم فيها الايدي والشعر والايماءات العجولة والاحاديث القصيرة. حلمت كثيرا بسنية انا الاخر، لكنني لم اطمح للتقرب اليها. فاردافها الضخمة وجسدها المنتصب وعيناها السوداوان النديتان بالشهوة تجعل جسدي يغلي بالحرارة والاثارة. انني اعد نفسي صغير السن والتجربة لمغازلتها او الحديث معها، اضافة الى الخجل الذي يستولي علي كلما اقتربت مني.

انني اتخيل الفسحة والليل حين يلف القرية والفراش الوثير الذي سيمد لعمي قرب الاسلاك وشتلات الرمان. سينام عمي تحت الخوص المتهدل من الحرارة، فلا احد يمكنه النوم في الغرف بمثل هذه الايام. لابد ان يبحث الجميع عن نسمة ترطب الجلد وعن خلوة لتخفيف الملابس. سيتعرى عمي، كما كان يفعل ذلك على سطح بيتنا. جسده لايحتمل العرق واللزوجة. سنية تعرف مكانه. الاطفال يخشون الظلام، والعجوز زوجة حريجة تنام باكرا، ولا تفيق من احلامها التي تجري دائما في الاهوار بين القصب والمشاحيف والجاموس. لاتفيق حتى لو قذف الطوب ابو خزامة حممه قربها. شاهدت ذلك الطوب في احدى زياراتها لمرقد الكاظم. انبوبة طويلة متدرجة نحيفة عند الفوهة ضخمة في مكان الحشوة البارودية، شبهته عندما شاهدته امام وزارة الدفاع بفرموق بغل. كان يرتكز على ذراعين من خشب سميك تحملهما عجلتان حديديتان، وقد ربطت العجلتان بامراس غليظة ثبتت في وسادة خرسانية. اخبرها حريجة ان السلطان مراد الرابع ربطه في الارض كي لايفرق نفسه في دجلة، بعد ان رأى الجنود الصفويين يربطون خيولهم في حضرة الامام الاعظم.

سيمضي حريجة للمبيت عند الحفارة. ينام على تلة الطين الرطب بعد ان يفرش عليها مسجدا وحراما عتيقا ثم يغطي نفسه بعباءته الصوف ليتفادى لسعات البق. هكذا كنا نجده يوميا. يغفو كما يقول على ايقاعات السمك واغاني الفلاحين العابرين بمشاحيفهم منتصف الليل نحو البصرة. يحلم بتسريح ابنه سالم من الجيش ليشتغل في الشركة الفرنسية. سنية تتطبخ بنار الشهوة لرجل يبل صدءها ويزيح عن جسدها خزين الخيالات الجنسية وتعب الايام المكرورة المتشابهة، التي تقضيها في الكنس والعجين والاحتطاب وغسل الاطفال. ثلاثة اسابيع، تمتد احيانا الى خمسة لاترى سالما. امرها لايخفى على صياد متمرس كعمي. صياد يرتدي باصبعه خاتما سحريا لايقاوم.

سيركب عمي الليلة لامحالة. الوجه المستسلم يكاد يرتسم لي واضحا، الفنجات لابد ان تكون عالية اعلى من الاصوات والتأوهات التي تطلقها خالتي. ستكتمها حتما، ستخاف من الفضيحة، فالليل ملئ بالعيون. الليل الضاج بالاصوات والاشباح والكائنات المرعبة. الليل الذي كان يشرع حرابه وسكاكينه وخناجره في وجه سنية المترصدة الخائفة. سنية التي كانت تنام على بعد عشرة امتار فقط من فراش عمي.

اليوم فقط، وبعد فورة الاحداث التي انقلب فيها، والبصر الحاد الذي امتلكه لرؤية الماضي رؤية صافية وتامة، في هذا الطيران في فضاء لايحد، فوق المدن التي ترى لكنني لن اعود اليها ابدا، اعرف ان عمي لم يحالفه النجاح تلك الليلة. لهذا السبب قادته خطته مع سنية واصراره على نيلها، الى فقدان ثلاثة اصابع من اصابع يده اليمنى، ليحقق نبوءة جدي البعيدة التي لا ازال اتذكرها ورشحت مع ما رشح من ذكريات من مصفاة ذلك النفق العجيب الذي اجتزناه.

ـ الاصابع تشهد يوم القيامة على صاحبها، تخاطبه امام الله قائلة:لقد زنيت بي وسرقت بي واكلت السحت. انا امسكت جسد المراة

وانا التي عددت النقود الفش.

- ان الله غفور رحيم ياابي.

كانت العجوز وراء ذلك الفشل. فالليلة تلك، كانت الوحيدة التي لم يزرها النوم فيها. ظلت تتردد في رأسها اصوات محركات الشركة في الجانب المقابل، وضجة السيارات المارة في شارع القرنة حين يضخمها الليل ويحولها الى زئير غريب لاينقطع. تتالت على خاطرها افكار مروعة عن الرجل الغريب الذي ينام في بيتهم. قلبها لم يرتح لنظراته. اوهامها جعلت تصوره لصا سيقوم عند انتصاف الليل لسرقة بقرة من بقراتهم او للانقضاض على سنية. لم يطبق لها جفن. اكثر من مرة قامت الى جرة الماء واحتست جرعات منها. مع كل نباح يتصاعد من بعيد تتخيل جسدا ضخما لرجل يتمشى في الساحة. كانت وسيلتها الوحيدة لردعه جعله يحس انها يقظة. يقظة حتى اصغر عضو في جسدها. ظلت تبصق بصوت مرتفع وتتنحنح وتخاطب كائنا ما بكلمات لامعنى لها. عمي يصارع النعاس، يشحذ اسلحة الشهوة ولذائذ جسد سنية، ويمني نفسه بليلة كان ينتظرها منذ تلك الظهيرة التي دعانا فيها حريجة الى الغداء. لافائدة، فالتعب تغلب على اجفان عمي. اقنع نفسه ان سنية ستوقظه حين تحين الفرصة وتبادر بالمجئ الى فراشه.

افاق عمي من غفوة قصيرة ظنها لم تستغرق سوى دقائق، وسمع حريجة يؤدي صلاته، صلاة الفجر المرتسم في تيجان النخيل. كان الهدوء يخيم على الحياة. عرف عمي ان خطة الليلة قد فشلت، وانه لم يكن السبب وراء فشلها. على سنية ان تتصرف بسرعة ان كانت تمتلك مثله نفس الشوق للقائه. وهذا امر لايشك فيه. تبادلا الكلام همسا عنه عدة مرات. لكن كيف ومتى واين.

كانت تعابير عمي وحركاته اليفة لم يطرا عليها اي تغيير يذكر، حتى تجاه حريجة. ظل كعادته يمضي الى البيت ايما وقت شاء، يتكلم مع

سنية ويمازحها كانه واحد من المعارف او الاقرباء. وفي ذات يوم كنت مستلقيا في غرفتنا والمروحة تاز بصوت خافت فوق رأسي والنعاس يحوم حولي، قرع صاحب الفندق الباب ودخل بسيماء مرعوبة. قال لي بنبرات متوترة:

ـ عمك يرقد في مستشفى القرنة، جرت له حادثة بسيطة، يخابروني للتو من المستشفى. لاتقلق انها اصابعه فقط.

الحادثة ليست بسيطة، ولا عمي مرتاحا، فالالم يعتصره رغم المسكنات. كان خاتمه موضوعا على الطاولة القريبة من السرير. فقد عمي ثلاثة اصابع، كما اخبرني الطبيب ولولا بقية من حظ لفقد يده ايضا. كان يمكن له ان يموت نزفا لو لم يأت حريجة بعد ساعة من الحادث وينقله الى المستشفى. الحفارة هي التي اكلت اصابع عمي.

اطفا المحرك في الثانية عشرة، كعادتنا دائما، ومضى الى الجرف وتناول غداءه، المكون من نصف دجاجة مشوية اشتريتها له ليلا، مع الخبز والطرشي ثم شرب قدحين من شاي الترمز. الحرارة حوله لاتحتمل فخلع ملابسه بعد الشاي مباشرة واستحم في الماء. شعر ببرودة خفيفة في اصابعه حسبها اول مرة بسبب الماء. الماء كان ساخنا فالمد في اوجه. شعر بحكة تحت الخاتم فما كان منه الا ان نزعه وارجعه الى الصفيحة الحديدية. عاود الغطس في الماء وكانت شوارع الشركة وبيوتها المؤقتة المصنوعة من الخشب مهجورة منطفئة الحركة. الكل مضى الى الاستراحة، وهم يلتهمون الان طعامهم في الكرفان الطويل المبرد. لم يدخل ذلك المكان سوى مرتين، حين اجرى حسابات الشهرين الماضيين. لم ير نساء شقراوات، ولم يدعه احد الى حفلات ليلية كما كان يأمل. في فضاء القرية لايبين سوى السموم والركود والسعف المسترخي. حتى الغبار توارى في التفافات الشجر والنخيل والاثل. الطرق خالية ايضا والكائنات متوارية في جحورها.

كان خزان الوقود ينتظره. المحرك بحاجة الى الشحم، وهي مهمات كنت اؤديها انا كل يوم وتملؤني بالقرف والتذمر، وكانت اثقل ساعات النهار علي. ملأ الخزان بالوقود وجهز مكبس الشحم وصعد الى الكابينة حيث المفاصل والمسننات الثابتة والركائز المكبسية. ادار المحرك ووضع السرعة في حدودها الدنيا كما كنا نفعل كل يوم. كان عمي منهمكا بتزييت المفاصل حين حانت منه التفاتة الى جهة القرية. رجل غريب الهيئة ملثم الوجه، يسير باتجاهه. حسبه عمي واحدا من الفلاحين يرغب بالنزول الى الشط لصيد السمك او للسباحة. واصل تلطيخ الدواليب والمسننات الدائرة بالشحم ولاحظ ان الرجل يتجه نحوه. مشيته مريبة ولا تتناسب مع ملابسه الرجولية لفلاحي تلك المنطقة. انحنى عمي على برميل الشحم وغرف غرفة كبيرة بيده اليمنى ثم ادخلها بتؤدة وصمت الى الفراغ. الفراغ مسننات عملاقة تطحن الهواء وتنثر الرذاذ حول المحاور الملوثة بالزيت هي الاخرى. في تلك اللحظة الحرجة، غير المحسوبة من قبل عمي، ولم تخطر على ذهنه يوما، ولا تهيأ لمواجهتها، ازال الرجل لثامه واذا هو يقف بمواجهة سنية. عندئذ دارت المسننات على اصابع عمي بلا رحمة. كأنها تنتقم لعروق الارض التي كان عمي يمزقها بشراسة، ولحريجة ولسالم الجندي في كركوك.

في المكان صرخة حادة هائلة خرجت من اعماق عمي. اشاعت في سنية رعبا عميقا، دفعها لخلع اردیتها الرجولية والركض الى القرية. وجدت حريجة نائما في غرفة الضيوف. اخبرته ان امرا ما حدث لحسان. رأته حينما مضت بالبقرة نحو لوح القت، وطلبت منه التوجه سريعا الى هناك. الامر خطير لايحتمل التلكؤ. مضى حريجة راكضا نحو النهر ولحقت به سنية. ظنت ان عمي قتل داخل الحفارة. في جسدها ماتت الشهوات و الاحلام التي عاشتها قبل الظهيرة للوصال مع عمي. تلك التفاصيل لم يبح بها عمي لاحد. حذفها من احاديثه عن

تلك الفترة السوداء من حياته. اما نحن فاعتبرناالحادث تحققا غير مفهوم لنبوءة جدي، لا اكثر ولا اقل. واعتبرته انا خلاصا لي من هجير البصرة ورطوبتها، وروتين الحياة الممل الذي لم اعد اطيقه. بل انني نسيت حتى رغبتي بالهروب الى الكويت. الرياح كانت ضدي، فاستسلمت لمصيري كما يستسلم جمل لذباحيه. ثم دخلت الجيش.

انه الطريق نفسه. قطعناه الاف المرات، بين جلولاء وقره تبه، بين المعسكر ومخازن الحديد والخشب التي تزود الجبهة باحتياجاتها لبناء الملاجئ والمخابئ، بعد ان اخفقت في تعلم سياقة الحفارة. اخبرني ابي انني انسان لافائدة منه. و جاء رسوبي في امتحانات البكلوريا لسنتين متتاليتين انتصارا لاعتقاد ابي وضربة ماحقة لي. هكذا انتهى امري جنديا لا اسم له. كنت رقما من الارقام بين مئات الالاف. في معسكر الحلة، ابقوني ثلاثة اشهر لتعلم الرمي ببندقية الكلاشنكوف، وكان العريف الذي قادنا في تلك الاشهر يستخدمنا لتنظيف ساحات المعسكر من الحلفاء والثيل والنفايات. يقوم بذلك بمتعة وسادية منقطعتي النظير. قالوا لي ان سجلك الامني غير مريح، محاولات للهروب من الوطن. الحديث بأمور ضد الوضع، اللقاء مع اشخاص مشبوهين في معارضتهم للحكومة، من بينهم محام اسمه عبد علي، وغير ذلك الكثير من المآخذ دونت بمحاضر سرية وارسلت الى ضابط امن المعسكر. تم نقلي الى جلولاء حمالا في مخازن قره تبه. وفي هذا المكان التقيت بمأمون الخشالي، الذي كان يعطف علي كثيرا ويعاملني بشئ من الاحترام. حتى انه كان يأخذني معه في سفراته التي يقوم بها

لتفقد المخازن وابنية الجيش التابعة للمعسكر.

في الطريق لاحت لعيني نقطة سوداء. حسبتها طيرا يحلق في السماء، في الافق القريب من الارض. على جانبي سيارة اللاندكروز كراكي وتلال واشجار اثل ويمام. الطيور صارت تتواجد في السهول بكثرة. هاجرت من التلال والجبال هربا من دوي المدافع واصوات الانفجارات والطائرات. الطيور لاتعرف كلمة اسمها الحرب. نحن بني البشر نعرف ذلك. الم ار نذرها قبل اشهر تنهال على المدينة مثل باشقات عملاقة؟ كم اتمنى روحي طيرا بجناحين قويين لاهاجر في السماء الخالية من الشرطة والحدود وجوازات السفر. قال لي لطيف سأجد لك واسطة تنقلك من ذلك المعسكر الى بغداد. لكنه كلام في كلام. والبقاء هنا افضل بكثير من الجبهات الامامية. انني ارغب بالبقاء في بغداد، وان لم يتسن نقلي سأهرب لامحالة. اهرب لاتشرد على هواي. قال ابي انني انسان فاشل في حياته، وقوله فيه شئ من الصحة، اذ لم احقق اي شئ ذي قيمة.

اليوم يوم خميس، وانا احلم بانتهاء النهار لاتحرر من ملابسي العسكرية واسافر الى بغداد. الى لطيف وعبد علي المحامي والفران والشوارع المزدحمة بالنساء والبارات التي توزع خمرتها على الشاربين. كنت معتادا على احتساء قنينتين من البيرة الفريدة في نادي موظفي جلولاء قبل ان انطلق الى بغداد. احب السفر ورأسي منتش بالكحول. اقضي الطريق في تأمل النخيل والقرى والمديات البعيدة. يسافر بي الخيال الى بلدان قصية ومدن سمعت باسمائها وقرأت عنها في الكتب فقط.

- الهجوم على قطعاتنا قادم، الايرانيون يريدون استرجاع قصر شيرين. لن نعطيها لهم، ستمزقهم راجماتنا والصواريخ بعيدة المدى. سنبيدهم ونلوث الجبال بدمائهم.

ملازم مأمون يكلم نفسه. انا اشتهي قدحا من البيرة المثلج.

السائق حسين مشغول بمراقبة الطريق، المتلوي مع التلال وتعرجات السهول. وجوهنا راشحة بالعرق وملوثة بالغبار. افواهنا جافة وطعم السجائر تحول فيها الى علقم. حقول القمح صفر تشبه بحرا من رمل اصفر، لقد كانت قبل شهر خضرا تمرح فيها الزرازير والزاغ. اخبرني السائق حسين ونحن نقف على جسر جلولاء محدقين في السهول الممتدة حتى الجبال، من هناك كانت القوافل تدخل الى العراق. مكاريون وحمالون وتجار ومهربون وباعة العرق سوس الذين كانت اللغة تتكسر على شفاههم تكسر قوالب الثلج تحت المطرقة. كان ذلك هو الامر الوحيد الذي يكشف عن اصولهم. الان لا يمكن حتى للطيور ان تمر في تلك الاصقاع. الارض مزروعة بالالغام والفضاء مرصود. في السهل، في الهواء، في صفرة القمح، اشم رائحة الموت. كنت احسها تنبعث من جسدي ومن انفاس مأمون وتعابير حسين. ثمة نقطة سوداء في الافق، هل هي طائر يحلق وحيدا بمزاج منحرف؟

يطوى الشارع بقيره وحفره واسفلته وسرابه وتلك النقطة ثابتة لاتريم.نقطة المصائر. نقطة التشرد. نقطة الدروب الخفية وهي تسري من مدينة الى مدينة. نقطة البار المكتظ وسكة الحديد ومياه دجلة وملعب النمل. نقطة تتراقص امام العين. تتشقلب مع السراب. تغيب وتختفي، تتضاءل وتكبر، ونحن نسير باتجاهها بسيارتنا اللاندكروز. تزوغ الى اليسار مرة، الى اليمين مرة. تختفي وراء تلة، وتظل بلا هوية. تظل تجذب الانتباه. ليست ثلة فرسان بلا شك، فرسان البدو الذين جلبتهم الحكومة لاستصلاح الارض بعد ان ازيح اهلها الاكراد. ليست ثلة متمردين ببنادقهم البرنو الطويلة الذين يقاتلون لاسترداد ارضهم وتلالهم وفضائهم. السهوب التي تحت ابصارنا كانت مرتعا للمسلحين اخبرني حسين. انه من اهل المنطقة. في ذلك الوقت كان المكاريون يسوقون بغالهم بين البيوت والمراعي لبيع الشاي المهرب والتبغ والصابون

الكرماني والسجاد الكاشاني والبنادق المستخدمة لصيد الكراكي والارانب والزاغ. في ذلك الوقت كانت الليرات العثمانية لم تزل تستخدم جناجل للاطفال وورق الياس حلى للنساء الكرديات يعلقنها على بخانق الرؤوس وكتافيات الثياب المفتوحة عند الثديين. في الهواء خفقات لاسماء وعشائر وطقوس بائدة:لرية، زنكنة، يزيديين، طالبانيين، بيرمانيين، كرويين، سريان، فيلية، بيرقداريين، شهربانيين، جبور. المدافع بعيدة المدى ترش جبال حمرين بالبارود. تتكشف النقطة السوداء بغتة عن بيت من الشعر. بيت ثابت الاركان، مهفهف الحواشي، يخفق بالنسيم، يقوم على اعمدة خشب مثبتة في الارض. قرب البيت شجرة اثل شاسعة التاج، وعلى بعد امتار منها اشجار خروع اضفت على البيت مظهرا قرويا، هي والتنور المنبوت جنبها، والحب المظلل بكوخ من الاغصان والجنفاص.

ـ توقف يا حسين، ودعنا نشرب اللبن من هذا البيت، صار فمي خشبة من العطش.

انعطف حسين نحو البيت. هنالك طريق ترابي ينبت فيه ثيل وعليق جاف داسته الارجل والاظلاف وعجلات السيارات. كما تبرز آثار جرارات وحيوانات ليلية لابد انها كانت تفتش عن فريسة قرب البيت. الغبار يتصاعد خلفنا، يلفنا احيانا بدواماته فتكتسي وجوهنا بطبقة ناعمة منه.

ـ قبل سنة شربت ماء من قربتهم. كان باردا كالثلج. ظننت انهم سيرحلون الى الصحراء ما ان يحل الشتاء. يبدو انهم باقون في مكانهم. اليس من الافضل لهم لو يرحلون الى المدينة؟ ماء وكهرباء وبيوت نظيفة. ماذا لو حدث انزال ايراني هنا؟ كيف يدافع ذلك البدوي عن نفسه؟ وهو لايملك سوى عضوه؟

كان حسين يتكلم بسرعة كعادته. لا ينقطع عن مص سيجارته من

نوع بغداد. لاحظت رغوة بيضاء تتناثر من زاوية فمه. رد عليه مأمون ونحن نقترب من البيت بانفعال:

ـ لا احد يجرؤ على الاقتراب من الحدود. سنبيدهم قبل ان يصلوا الارض.

جمل يريض في الظل. بدوي معصوب الرأس واقف جنبه. البدوي يسن سكينا طويلة على مبرد لونه اسود. الظل تصنعه شجرة اثل، في عمقه رقد على الارض طبر ذو مقبض خشبي، اما حديده اللاصف فاوحى لي بالرعب. طبر للشق والقطع والذبح والفلع، حين تمسكه يد خبيرة بما تقوم به. لم نلق بالا للبدوي ودخلنا سارية البيت المرفوعة. وجدنا امرأة خمرية الوجه تحدق فينا بعينين مستغربتين. اخبرناها بفرضنا فجاءت بطاسة من الفافون فيها لبن.

ـ ماهي حكاية البدوي وجمله؟

سأل الملازم مأمون المرأة بلهجة متعالية. ردت عليه بحياء:

ـ عثر الجمل في خندق وكسرت ساقه. لاشفاء له. اوصى الرجل على قصاب من جلولاء ليذبحه.

جاء البدوي هو الاخر والقى علينا تحية مرتبكة. ناولته المرأة طاسة من اللبن كرعها بسرعة ثم مسح شاربه الصغير ولحيته النافرة تحته. كانت لحيته مدببة من تلك اللحى التي يشتهر بها البدو، عاجله الملازم مأمون بالسؤال، قائلا:

ـ ما الذي جاء بك الى هذه الانحاء ايها البدوي؟

ـ انني ابيع الملح.

ضججنا بالضحك. حدقت الى الجمل الرابض تحت الشجرة، فرأيت عدلين ممتلئين يرقدان قربه. تعجبت من جهالته، يبدو انه لم يسمع بمعامل الملح الحديثة ولا بانقضاء زمن تلك المهنة. ولفضولي الزائد سالته مستطلعا:

ـ من اين تجلب ملحك؟ هل هو خشن ام ناعم؟ ابيض ام اسمر؟

ـ ملحي من اجود الانواع، انه من مملحة قرية الشيح القريبة من سامراء.

تذكرت خالي حزم، وحكايته مع الجني التي جرت في قرية الشيح. بدر الى ذهني ان البدوي ربما لايعدو ان يكون سوى جني ايضا يحاول لعب لعبته معنا، انا ومأمون وحسين والمرأة. قرأت قل اعوذ برب الفلق من شر ماخلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد اذا حسد. حسبت ان البدوي سيختفي حال سماعه هذه الصورة. سيختفي هو وجمله الجريح وملحه ولحيبته بعد ان يرش في وجوهنا قبضة من الغبار على عادة الجن حين يغضبون من بني البشر.

ـ لقد تأخر القصاب، وربما لن يأتي، هل تساعدونني على ذبحه؟

ـ دعونا نجرب.

راقت فكرة البدوي لملازم مأمون، فقادنا نحو الجمل بنشاط وثقة. لم اشاهد من قبل جملا يذبح. ذبحت الكثير من العصافير والزرازير والدجاج في حياتي الا انني لم اجرؤ يوما على ذبح شاة او ثور. كان عمي من بين عائلتنا واقربائنا هو الوحيد البارع في ذلك. لم يكن ابي مولعا في مثل هذه الامور الا عند الحاجة القصوى. كانت المرأة تراقبنا بحذر. عيناها واسمتان متشككتان. السكون يقبع في اغصان الخروع ويمتد نحو الطريق الترابي الذي قدمنا منه. اختفت اصوات المدافع في الجبهة الشرقية. لايسمع الا رغاء الجمل بين لحظة واخرى. رغاء الالم والتوجع ومواجهة الموت. في السماء شمس تسري الى الغروب وظلال التلال راحت تمتد نحو الاعشاب وحقول القمح. في البعيد، كانت اقماع الغبار تتعالى فجأة من الارض، رافعة معها بقايا سنبل وجذاذات من الورق الجاف، تتراقص برهة في السماء قبل ان تختفي.

جلب البدوي حبلا من الخرج وعقر الجمل. تقبل الاخير مصيره

باستسلام وراحة. الالم استولى عليه كلية واخذت عيناه تغيمان وشدقه يتسع. الشجر يعده بالهلاك، اصابع الغبار تعده بالهلاك. الشمال غربة وجبال، الشرق انفجارات وضوضاء، الغرب مدن وقرى وشوارع فسيحة وروائح لايطيقها انفه الذي اعتاد نسائم الصحراء وهجيرها. عيناه تتحركان يمينا وشمالا. تطلبان عونا لاياتي. الرموش منداة بالدمع. الاطياف عشب يابس وحميض وعرعر. احواض مياه مفتوحة. آبار عميقة. كهوف تتحول ليلا الى ملاذ لبنات اوى وجن وحيات رمال وذئاب. اطياف من وجوه ملتحية وشوالات ملح وتمر وخناجر حادة وسيوف وبنادق.

- من منكم اشد قوة من اصحابه؟

سالنا البدوي. تبادلنا النظرات، فتبرع مأمون بالرد:

- اظن انني الاقوى.

ناوله الطبر وقال بصوت مرتعش:

- امسكه جيدا. اقترب من رأسه واجعل روحك تتودد اليه. ثم اضرب بكل ما اوتيت من قوة. سدد جيدا على الراس، وعليك بالتركيز فان اخطأ الحد الرأس ربما نهض الجمل وسبب كارثة. وقبل ان تضرب دعنا نمسك الدابة كلنا للاحتياط.

انخنا باجسادنا على الجمل. انا من الخلف وحسين من قوائمه الامامية المعقورة. مأمون بملابس بيض قصيرة تكشف ساقين طويلتين، مشعرتين، يداه تمسكان المقبض الخشبي بثبات. انهما مرفوعتان الى مافوق الرأس. يدان متأهبتان للقطع. للنطع والاهواء. ملاكان من موت زؤام. عظمتان تحملان النهاية المرة لكائن حي. كانت عيناه مستثارتين، القا وارتعاشات ولذة. فمه الواسع مفتر عن ابتسامة او تكشيرة، فرجات اسنانه تبعث الرعب في روحي. لحظات حرجة. لحظات موت ودم. قلبي يدق. وجهي سابح بالعرق. شفرة مرفوعة في السماء، شفرة ازلية

خالدة. شفرة وعنق مستسلم. شفرة ودماء في الشرايين. شفرة البشاعة والحقد والشبق لرؤية الدماء. شفرة من سنين معلبة. ماالذي يحسه الجمل في هذه اللحظة؟ طبر مرفوع وعزيمة نافذة ووجوه متأهبة وظلال تفذ استطالاتها نحو الغروب حيث التلاشي في نسيج الليل. فكرت باصابع عمي المقطوعة، والتروس الحادة والمسننات الحادة الشفرات، والدماء التي سالت على حافة شط العرب، ووجه عمي السابح بالالم. اوشكت ان اصيح على مامون ان يتوقف، ان يرمي طبره المميت وينهي هذه المذبحة. ثم جاءني صوت مرعب كانفجار قريب:

ـ اضرب.

صرخ البدوي بمامون.

ضربة محكمة، جمجمة مستسلمة.

قره تبه قره تبه قره تبه، تعالى تغريد طائر القبج من وراء بيت الشعر.

قره تبه قره تبه قره تبه، رحت اردد لنفسي وانا انظر ما يحدث امامي. الضربة صخرة. عجينة خرسانية صلبتها اشعة الشمس. ند صوت لاهو بالرغاء ولا هو بالعويل. مكتوم مرعب عميق خارج من الاحشاء. الارجل ترتج والاوصال تتموج. انها الرغبة غير المفهومة بالتشبث في الحياة مهما كانت قاسية.

ـ كرر الضربة.

قال البدوي مرة اخرى، فجاءت الضربة الثانية طائشة واصابت الرقبة بدلا من الرأس. راح الحيوان يرغي ويموج ثم انتفض كي يقبض على فرصته الاخيرة في النجاة. انه بين جزارين لايرحمون. تقطعت الحبال وتحررت القوائم وكانت الرقبة تقطر دما. ارتفعت القوائم عاليا، هوت الى الارض، ثم في رفسة هائلة نهض الجمل كأنه مارد جريح. كان مامون شاهرا الطبر، يصرخ ويستغيث، وكنت لا ازال امسك بالذيل.

- امسكوه، امسكوه قبل ان يهرب.

كانت المرأة ترقب مدهوشة، انزاح النقاب عن وجهها، وانتشرت شعرات سود على صفحتي الخد. هياج راح ينتابني انا ايضا. ثمة شهوة للمشاركة. اقتربت من مأمون وامسكت منه الطبر. تنحى عني جانبا، فلحقت بالجمل الكسيح الذي كان يزحف زحفا للهروب الى الخلاء. في النهاية اقعى على قائمتيه الخلفيتين. عاجلته بضربة، وضعت فيها كل اخفاقاتي وفشلي واذلالي. كل ماعانيته من قهر وعذاب على يد البشر. فججت الجمجمة، وعقر الجسد وتهاوى على الارض. تحت اوراق الخروع الزرقاء التي تختزن بين شراييتها ونسيجها غابات المياه الجوفية والاضواء وبقايا المروج الارضية. الدماء تلوث ملابس مأمون ولحية البدوي وسروالي العسكري. في عيني القروية احاسيس ازمان ماضية بالكاد تتذكرها. دماء بكارة وذبائح للضيوف. كانت عيوننا تتركز على رأس الجمل. فيه شق احمر غائر في العظام. تبين منه عجينة بيضاء وكانت العينان هائمتين في سماء من حنين واستسلام. سماء من طرفاء وعاقول ورطريط وحميض وعرفج. عينان فيهما ماض مويوء بالسلاسل والحبال والاسيجة. النفس يروح ويأتي. الروح تمضي بطيئة الى ممكنها. الاحشاء راحت تسكن وتهمد. كان البدوي يحد سكينه على الرقبة الطويلة الممدة على القش والتراب.

- دعونا نكتم انفاسه.

قال البدوي. وفقنا الى ارواحنا والتعب باد في الوجوه والاعضاء. احسست بالراحة والفراغ والنشوة. لقد انجزنا العمل بخفة غير متوقعة. انها تجربة هائلة سأحدث عنها عبد علي المحامي، كي لايظنني ذلك المسالم الذي يعتقده. لازالت في روحي طبقات غير معروفة من العنف والعدوانية، خزينة تنتظر لحظة الانبثاق.

اقعى البدوي على الرقبة وجعل يحتزها بنشوة. اصطبغت الذرات

الترابية بالسائل اللزج الاحمر الساخن. هواء يدخل دم يخرج بطن ترتفع شخير يتعالى. طيور تنشد وظلال تستطيل. والجبال من الق اشعة ورمان بري. لم تمض سوى لحظات على انجاز العمل حتى احضرت البدوية طستها واوقدت نارها واعلقت تنورها فالوليمة جاهزة والاطايب عما قليل ستصل الفم. دخان يتصاعد في الفضاء. اكمل البدوي احتزاز الرأس وخاطبنا قائلا:

ـ اسلخوه، فالمشترون قادمون. سنأكل نحن الكبد والقلب والرأتين والكلى، اما المخ فلن يضيع منا. المخ الذ ما في الدابة.

خلف التلال والاجراف، على امتداد البصر، شمس تعاقر مغيبها وتنشر ظلالها، ظلال المساء الزاحف على المدن وجبهات الحرب والجنود والاموات.

ـ سيحل الظلام سيدي عما قليل. المعسكر سيغلق ابوابه فدعنا نمضي. الدنيا حروب وانفجارات وقطاع طرق ولا من امان. الجمل نحرناه وسلخنا جلده. دعوا المرأة تمتع نفسها بلحمه اما انا فليس لي رغبة بأكل لحم بعير.

قال لنا العريف حسين فوافقناه على قوله. نظفنا ايدينا وملابسنا من الدم والتراب. الافق احمر. العتمة زاحفة على الارض. يبدو انني لن اشرب البيرة في نادي موظفي جلولاء. لم تعد لي رغبة بذلك. فانا اريد الهروب من هذا المكان باقصى سرعة. اريد الوصول الى بغداد وشوارعها واضوائها وبشرها. ثمة الخمرة والنساء والشلة السعيدة. انهم بانتظاري فاليوم يوم خميس ولابد لنا ان نعد مائدة في بار شريف وحداد. انه طقسنا الذي لايمكننا ان نستغني عنه. لقد وعدنا عبد علي المحامي بقصيدة من قصائده.

- ١٨ -

هاهي بغداد مرة اخرى. بالرغم من كل الدمار الذي حل بها، الكوارث التي لاحقتها، من اول فجر شهد دق اساساتها وحتى هذه اللحظة، تبقى صورة لجمال حزين. على اولئك الذين ينكرون سحرها وجمالها ان يقفوا على النهر، في موقع مراهنات النمل، ويتأملوا فيها. في المآذن والقباب والعمارات والجسور والنخيل اليتيم الناتئ من بين ساحاتها ومنازلها ومزاراتها. رغم جوامعها الالف، لاتشعرني بالقداسة. نعم لاجوامعها ولا بناياتها ولا شوارعها. جمال من دون قداسة. لكن عليهم ان يقفوا على النهر وقت الغروب، ليشاهدوا الامتداد اللانهائي الرشيق لجبهة النهر. تصطف المساجد والمنارات ذات الأجر الازرق لتمسك بخيوط الشمس المائلة. الانعكاسات الضوئية الآتية من جهة الشرق تجعل الالوان تتبدد تدريجيا، في تدرجها من اللون البرتقالي الى اللون القاتم المتقد. في حين ترسم النخيل، من الجهة الغربية صورة ظلية بمواجهة السماء ذات اللون الاصفر الداكن. جمال حزين وقدسية مفتقدة، قررت ان لا اغادرهما بعد اليوم، بعد ان احترقت الشاحنة ونجوت من ذلك الحريق بأعجوبة. لقد خدمني الحظ، لاشك في ذلك. لكن اللحظ لن يكون حاضرا على الدوام. نعم سأبقى هنا، في بغداد

المرتبكة الدائخة المترنحة من الهول المصبوب عليها. جاء الى ذهني اول من جاء، عبد علي المحامي، فقررت ان اذهب الى بيته. منه فقط استطيع ان افقه مايجري لنا. مايدور من مسلسل صعب الفهم، يتلاحق بخطى متسارعة، خطى مدينة تسير الى الخراب.

بدأت اسير بلا امل. الخراب امتد الى روحي ايضا. صار الموت والحياة وجهان لعملة واحدة. لم اعد افتش عن جدار لاحتمي به، من الشظايا والقنابل والصواريخ، سرت منتصب القامة في شوارع بدت لي مقابر. دخان وبارود ووجوه عليها اقنعة للموت، للتأمل، للهزيمة، للترقب. الفوضى اصبحت هي القانون، وقد ادرك الكل ان الهزيمة مؤكدة. الكل يؤمن بذلك، عدا الجبار المتوحد، المتخفي في مكان ما لايعلمه احد. الذي كان يصعد بين الحين والاخر الى سطح بناية لاتجلب النظر، يحدق بيانوراما السقوف، والمآذن واعمدة الدخان والملابس المعلقة كي تجف. انه هو، من اكتشف لها الزراعة واخترع لها الصناعة، ونشر فنونها وآدابها، وصارع عباب الفرات بجسده الاسمر وقتل الضب، واشاد جيشا رابعا بين جيوش العالم، انشأها وقادها الى الخراب، اصلح مفاتنها وجرها الى الهاوية. القاني الى موتي ويعثرني في الاسواق.

موجات من الطائرات، تتوالى عليها، موجة اثر موجة. المواطنون في الشوارع، يسيرون دون ان يعرفوا هل فقدوا الوعي ام ان قوة ما تدفعهم من اكتافهم خارج البيوت. قوة الحياة كي لايدفنوا تحت جدار او سقف مزقته الانفجارات. الجو لم يكن طبيعيا. لم ينتظر منه احد كي يكون طبيعيا. القيامة على الابواب. صرخ خطيب جامع الحيدرخانة غضبا وغيظا. المحلات التجارية مغلقة كلها باستثناء اكشاك السجائر. السماء رمادية ملبدة بالغيوم. نعم انه اكثر الاطر مثالية لمشهد كئيب عرفته المدينة منذ نشوئها مدورة قبل مئات السنين.

انفجاران هائلان زلزلا بغداد من اول حصاة في ابي غريب الى آخر

نقطة تفتيش على طريق بعقوبة. ثمة صوت راعد من الجهة الغربية، يشبه قطيعا من الخيول يتجه الى بيداء في هذه الحياة. زمردة خاتون ترقد تحت منارة طويلة محززة الحافات. النهاية مستدقة. تشبه شجرة تنوب مخروطية الشكل. في الاسطح بحر من الاسرة والفرش والملاءات. شاهدت على سطح قريب وكدت لا اصدق، خروفا يتجول بطمأنينة، يحدق الى ذلك الجنون بعينين ساخرتين. رأيت ديكا روميا ينقر مزبلة غنية بالديدان، امام بيت مفتوح الباب يجلس على عتبته طفل عاري المؤخرة. وثمة لقلق ينتصب على رأس منارة الجامع القريب، كدت اضحك، اذ حسبتني امشي في زمن آخر، زمن الفران ولطيف ومالك الاقرع والمحامي عاشق البلاط والشعر والفتيات الصغيرات.

لم اجد بيته. توارى في مكان ما من هذه المدينة الحزينة، المنكوبة. لايهم، قلت لنفسي. قررت ان اظل ماشيا دونما هدف.

تمت مهاجمة شئ يقع خلف وزارة الخارجية. تتعالى غيوم من الكتل الكثيفة. ثمة دخان يبعد عني مسافة كبيرة. الدخان يطبق علي، يقودني الى مكان آخر، الى عالم آخر عمره عشرات القرون، يعيش في رأسي او في الجوار، حيث المقرنصات وقبضات الابواب وبلاطات القصور البائدة. عشتار روح القمح، جالسة على مقعد ملتحم بالارض، تنبعث من كتفيها السنابل. على شعرها حية ذات رأسين. انها تنظر امامها، الى افق مجهول، وراء الخانات والزقورات والمعابد، وراء قشرة الارض الحاملة بالخمور والمباخر والاضحية. خلفها امراة اخرى اصغر حجما، تطلع من هوة، فوق مرتفع صغير يبدو وكأنه يرتفع بها تدريجيا من عالم الاموات.

عشتار سيدة الخبز والجعة، ام القمح وسيدة السنابل. السنابل تنبعث من كل اجزاء جسدها. في رحمها زرعت ذات يوم حبة حنطة، من تلك الحبة تناسلت حبات. اعطت امثالها قمحا وفاضت على الانسان الضعيف خيراتها. ادخليني الى رحمك ايتها العذراء الحنون. انقذيني

من هذا الموت الباذخ المعرش فوقي من ميناء ام قصر الى جبل بيره مكرون. انا ابنك الضائع بين الرمال والطرق والحرائق. ايتها الالهة، الهة المدن والقرى والقمح والخمور، امنحنيني حرزك منقذا، هبي لي يديك شاطئ امان. ضاعت الموانئ وتناءت اليابسة، وانا بحارك التائه، المنقاد الى مصيره. دليني الى الطريق، الاصدقاء الذين تشردوا، البيوت التي لفظتنا كما تلفظ نواة التمر. قوديني الى مدينتك السابغة، المتعجرفة المنفلشة، العتيقة اعتق من تاريخها تأتي من شرقيها الى باب الطاق، فسوق يحيى، وشارع البردان ودرب الريحان ودرجة يعقوب، طرف الجسرين بين القصرين والزاهر والشماسية وسوق الثلاثاء والزرادين والمأمونية. ان جئت من غربيها فالنجمي والرقة ونهر عيسى وسوق العروس ودرب عون وسوق النحاسين والرفائين، وسوق الحلائين وقرن الصراة وباب البصرة الحربية وشارع دار الرقيق. انهارها كثر، امواهها رقراقة. تتماخر فيها السفن والمراكب والزيابات والطيارات والشذوات والبرمات والحراقات والزلالات والكمندوريات والبالوع والطبطاب والجدي والجاسوس والورحيات والقوارب والخيطيات والجعفريات.

نساؤها من كل صنف ولون: مغنيات، زمارات، طبالات، صناجات، رقاصات، عدادات، ماشطات، حجامات، ساحرات، ضاريات رمل وودع وقارئات فناجين.

في طرقها ذات الاقواس والسراديب المزدحمة بعربات النقل والقوت والاسلحة، يشاهد الانسان الوانا عجيبة واحداثا غريبة:عجلات الجزء الامامي من مدفع ثقيل هدمت سقف احد السراديب. نزلت فيه، لتكشف رأس يهودي مفزوع، فيما بغل من سرية مشاة يمد بوزه في صحن تحمله فتاة مهملة. في الصحن قطع من البطيخ الاحمر سال عصيره على الحافات الخزفية المرقشة باالمعادن الثمينة. طوب ابو

خزامة:كتب على مؤخرته التي شبهته العجوز زوجة حريجة بخصى بغل، عمل كتخداي علي جنود بروه دكاه عالي سنة ١٠٧٤. وترجمته على ذمة عبد علي المحامي، عمل علي الذي هو رئيس الجنود من باب السلطان، والله اعلم. هل قرأت ذلك العجوز زوجة حريجة؟ في زقاق لايخرج متسول فارسي سمين يقف على عتبة احد الدور، يولول، يترحم، يرتل، كل ذلك من اجل التعبير عن جوعه لامة الاسلام. ملاجئها غاصة بالبشر، من كل صنف ولون. انه هروب جماعي من سطح الارض التي احبوها وعاشوا على كتفها آلاف السنين.

عمال وكناسون، حراس وموظفون، جنود هاربون يتسترون تحت اسماء مستعارة وافراد من بقايا الجيش الشعبي. نساء، اطفال، شيوخ، انحدروا كلهم في جوف الارض، رحم الام الذي سيحميهم من هذه الغزوة المباغتة. كانوا يطلبون الامان من الخرسانة والحديد والتراب، علها تبعد عنهم شظايا الحديد والنار والاشعة المميتة. لا ادري كيف وجدتني واحدا من بين ذلك الحشد غير المتجانس، الخائف الطالب للملاذ في عالم الظلمات. وجدتني في ملجأ هائل، مدينة يشبه، واسع الارجاء فسيح الاركان متين الاعمدة، لم اتعرف عليه واتذكره الا بعد ان وارتطي الارض بين غياهبه.

كيف قادتني الشوارع والازقة الى هذا المكان؟ هل هو حدسي الداخلي وقواي غير المفهومة قذفتني الى الملجأ الضخم هذا؟ لم لم اعرج الى محل لطيف او كوخ فتاح افندي؟ لم لم اسافر مع شواطئ دجلة، منحدرا نحو الجنوب فلا اقف الا في مفازة الهور؟ كيف اخترقت حجب الضباب والدخان والبارود، ونفذت سالما رغم كثافة القصف ودقة التصويب؟ اين البيت وخاتم عمي وعيون ابي الساطعة المهددة، التي كانت تتمنى موتي منذ ان نبتت في خيالاته الشكوك؟

بين تفتيشي عن بيت المحامي ودخولي الملجأ غيبوبة لامفهومة،

استولت علي، دوامة اشبه بنقطة، لا ابعاد لها لكنها تفرض حضورها واسبابها. كأن الذاكرة في طريق ممحو تحولت فيه الى صفحة ملساء شفافة لاحروف فيها. لاجمال تذبح ولا اصابع تقطع ولا توابيت تضيع في امواج عاتية. لاشئ من ذلك. هكذا فجأة، وجدت روحي امام رجال مسلحين يحرسون الملجأ. . . ملجأ موتي.

عشرات ! لا. مئات يتمددون في العتمة. عتمة اشباح، عالم سفلي، لاينتمي البتة الى ارضنا، عتمة احلام وطقوس وذعر. لو حدثني عنها المحامي في مشرب شريف وحداد لكذبته، فكيف لبشر بهذا التنوع والعدد ان يحشروا في سرداب معتم مثل هذا. لماذا، ومن اوحى لهم بالتوجه الى هنا؟ الامر مزحة لا غير. من يتخيل حفرة في باطن الارض تحتوي على هذا العدد من البشر؟

كان علي ان اسير على اطراف اصابعي كي لا اعثر في فراش شيخ او امرأة ترضع طفلها او عجوز تلوك خبزا بفم ادرد. المصابيح واهنة، تضئ شيئا من الظلام لكنها تشبح الاجساد. تصنع ظلالا ضخمة على الحيطان. تعملق الموجودات وتوحي بثقل الحرب التي تدور فوقنا. فكرت ان الحرب ليست دشما وسواتر ترابية وجوعا وخيالات مرعبة تتراءى للجنود. هي ايضا، فزع من المجهول ورعب اصم غير مدرك وتوقعات. هذا عدا العجز الذي تشيعه في الانسان. احساسه بانه ضئيل امام ماتمارسه الملايين حوله.

من بين الضجة الخفيفة، المحصورة بين الجدران الخرسانية، بل رغمها، تأتي صفارات الانذار كئيبة بعيدة، لا احد يدرك السبب وراء اطلاقها. الطائرات تغير دون انقطاع وليس ثمة شئ يستحق التحذير منه. لقد صارت الحياة خارج الملجأ دون معنى. غابت عني تماما، كما لو ان مقصا ضخما اجتزها هي وذكرياتها. المخابئ الرملية، الدوي الرهيب لطائرات ب ٥٢، الجوع، المنشورات التي كانت تلقى بالآلاف،

الاوامر التي لم ينفذها احد، هباء تنشره ريح عاتية لا ادرك من اي الجهات تهب. حياتي جزء من هذا المكان فقط. حياتي التي اصبحت بلورة تتكسر فيها اشعة الحاضر، والحاضر عتمة ملجأ. اكتظاظ يزداد دقيقة بعد اخرى. اطفال وصبية، جعلني مرآهم احس بالالم. لاينبغي عليهم ان يموتوا. عليهم ان يواصلوا الحياة، يتزوجوا وينجبوا ويشيخوا.

في زاوية قريبة تجمع عدد من الشيوخ على مذياع صغير يوشوش، الا انه يصدر بين الحين والاخر صوتا مسموعا يذيع اخبارا عن الحرب. كان الاداة الوحيدة التي تربطهم بالمدن البعيدة والبحار الملغومة بالبوارج والجبهات المتأهبة لاجتياح الخصم. شيوخ يقضمون الخبز اليابس والفواكه المجففة. اطفال خدعتهم العتمة فظنوها ليلا فناموا. اولئك الحشد، اولئك الصبية والمقعدون، سوف لن يموتوا كما يموت الجنود. ان ماتوا يموتون جالسين في ابهة الملجأ. سوف لن يعرفوا ما الذي اودى بحياتهم.

انني اقرأ الموت في وجوههم. احسه في قلبي. على شكل رعشات وتهويمات وحدوس.

نعم، كانت الخرائط كلها تشير الى موت جماعي.

ايادٍ غير مرئية قامت بأخراج خرائط الملجأ من ادراجها السرية. نفضت عنها غبار السنين والقتها الى طاولات خبراء محترفين يفكون الرموز، يبحثون دون كلل عن نقاط الضعف في الاساسات والجدران والمفاصل. انهم خبراء بالوصول الى القلب، الينا نحن المتوسدين احلام الامان وبطانيات العتمة، بانتظار ماتسفر عنه تلك الجلبة.

لم يخف احد منهم اعجابه ببراعة التصميمات. بل شعروا بالفخر والعظمة من انهم يملكون مصممين على هذا القدر من الحذق. . . لكن ما باليد حيلة. عليهم ان يجدوا الوسيلة الملائمة لنسف ذلك البناء الجليل، فقد طالته الظنون ورشته امواه الشك برذاذها. المعلومات

القائلة بأنه تحول الى مستودع للذخيرة ومركز لتوجيه العمليات صحيحة لايرتقي لها الشك. ينبغي تصميم سلاح على شاكلة ذلك البناء. بل له خصيصا. فيه من الحذق والبراعة مايفوق كل تحصين.

كانت النقطة الاضعف في الملجأ هي فتحة التهوية. عبرها فقط يمكن النفاذ الى القلب، الينا نحن القادمين من رمال الصحاري والشوارع والمدن المبعثرة تحت رحمة قصفهم. لكن انّا لجهاز مهما كان دقيقا ان يرمي صاروخه من فتحة بهذا الضيق؟ الا يمكن ان ينفجر الصاروخ على الحافة فيبقى البناء سالما وتتكشف الخطة؟ هذا هو السؤال الذي اقلق الجنرالات الخبيرين بمثل هذه الامور. اقلقهم وجعلهم يخاطبون فتحة التهوية كما لو كانوا جالسين في ظلها:ما العمل اذن ايتها الفتحة اللعينة؟

قبل ان ينزلق الفجر على هواء الكرة الارضية، مضيئا بذرذراته اسطح البنايات وجنبات الاشجار ووجوه الساهرين. قبل ان يبشر الملايين بميلاد يوم جديد سيجري فيه مثلما اي يوم آخر مزيد من القصص والاحداث، كانت لجنة الملجأ، كما سميت، قد وجدت الحل لتلك المعضلة. رسمته على خرائط مبسطة بالاسهم والنقاط والاحداثيات. وعند صعود حافة الشمس العليا على مسرح العيون، كانت حيلة المخطط جاهزة للتنفيذ.

تلك هي الحيلة:تطلق الصاروخ الاول الى فتحة التهوية. تنتظر بضع ثوان. تلحق الثاني الى النقطة نفسها. لا ابطاء ولا تردد. الذهن في اجلى تركيزه. على اليد ان لاترتعش. الصاروخ الاول سيفلق الفتحة ويوسعها. الثاني يمر بسلام الى الداخل. سنحصل على نتيجة مضمونة. لن نوقف حربا بهذه الضخامة عبر عملية معقدة كهذه، لكن يقينا اننا سنؤثر على مسارها. انها ضربة نفسية وسندفع ثمنا لها، خسائر اقل.

لاتضرب خان مرجان ولا الباشا الكبير ولا الدفتردار ولا خان الدجاج. لاتضرب خان الخفافين ولا خان الجبن، لا خضر الياس ولا

النفط ولا خان الكابولي. تلك اسماء لافائدة منها. عليك بفتحة التهوية. بدلا من هواء البساتين والانهار المشهور بنقاوته سنملا الملجأ بمستقطرات المعرفة ولا بأس ان تكون مخلوطة بالبارود والديناميت والمشعات. نحن لسنا مانويين. الحياة خلطة، خلطة من الخير والشر، اليس كذلك؟

كنا نتسمع من ذلك المذياع آخر الاخبار. نقضم بعض الخبز الجاف وندخن خفية. وكان ثمة طائرة شبحية لاترى تتجه نحونا. على الشاشة الخضراء، امام قبطانها الحاد الذهن، زبدة ماتوصلت له حضارتنا الارضية. كيفية تقويض ذلك البناء الفخم على رؤوس قاطنيه. كانت الطائرة لاترى بالعين المجردة، تطير في حضن هوائنا الساخن، وتحتها مباشرة، عملاق ماروسي يتقدم على الرمال. الآلة المملاقة التي تحمل في مقدمتها شفرة طويلة ذات اسنان دوارة تربش الذرات الرملية باحثة عن كهوف المتفجرات والخوابي المعبأة بالغازات الكيمياوية وملاجئ الجنود. كانت الالغام تتفجر عن بعد. المخابئ تدفنها التراب. الجنود صفر الوجوه يغيبون الى الابد تحت رخاوة الرمال. يغيبون هم وجوعهم ورعبهم وتذمرهم من هذه الحرب الملعونة التي برقت مثل غيمة فحملتهم الى غيهب الموت والنسيان. ترى اكنت اكون واحدا منهم لو لم ينفجر ذلك الصاروخ الرحيم بشاحنتنا؟ هل كان بادرة امل ستبعد عني الموت؟ لكن من ادراني انني لست ميتا هذه اللحظة؟ وشبحي هو الجالس في هذا الملجأ الكئيب؟ الم اسر في الشوارع والازقة والحارات دون ان يعترضني احد؟ وذلك الماضي البعيد الذي لازالت رائحته وتعاويذه واضحياته عالقة بأصابعي، مستولية على احاسيسي ما السبب وراء انبعاثه لي بهذا التجلي والوضوح؟ لم لم يدقق المسلحون الواقفون في باب الملجأ بهويتي او ينظرون ملابسي، ملابس الهارب من المعركة الذي صمم ان لايعود اليها؟ نعم، لم لا اكون ميتا حقيقة؟ على يمين ابي

تمتد حقول حنطة. السنابل مصفرة، المطر يخضب اوراقها، الظلام الكثيف يلفها. ظلام تنبثق منه التماعات مفاجئة لبرق فتمتلئ الحقول بالالتماعات. وكان ابي يندفع عكس مجرى النهر، والنهر غاضب هادر يهدد القرية بسياط امواهه. انها الليلة التي لاتنسى. جعلت ابي يتخذ قرار الرحيل الى المدينة خلاصا من عسف النهر. لماذا جئت المدينة الموحشة ياابي؟ قذفتنا في غابة العسكر والابراج والراقصات والشوارع؟ اي ماض يتمزق مثل حياتي، ويتناثر الى هياكل وقصص وحكايات؟ كيف يمكن لملمته وبعثه وبناؤه من جديد، في هذا الحاضر المضطرب الدائخ السكران؟ وذلك الهيكل الضخم، ماضينا وحاضرنا واحلامنا، كان لايحتاج الا الى لمسة ناعمة لينهار؟ لمسة اشبه بلمسة امراة. لمسة اصبع ناعم رقيق على زر صغير له زرقة سماوات الحب والهذيان والحزن. لمسة وتنتهي الحياة كما عرفناها وتوغلنا في دروبها وعاقرنا احلامها وهواجسها واوهامها. لقد انطلق الصاروخ الاول بثبات ونجاح:خلاصة الذهب، ابيات الشعر، الكومبيوترات، الاشعة السينية، روايات همنغواي، حكايات كانتربري، اكتشافات كولمبوس، امواج المحيط غير المظلم. انطلق مثل فكرة غامضة. شراع ابيض في مياه رخية، فراشة تعرف موقع الزهرة، سمكة تندفع الى منبع النهر، الى الموت، ذلك العالم السحري المختبئ خلف القشرة الارضية، وراء الانفاق المظلمة، حيث من يدخل لن يرجع ثانية. تلقفته الذرات الهوائية، تمسيدا وتقبيلا. لطفت من سخونته. الغيوم كانت تروم ايقافه. افسحت له الطيور طريقا للمرور. عناد غير مفهوم، سلكته سنوات من الخبرة، كان يدفع ذلك المعدن نحو الهدف:نحو نكاتنا البذيئة، نحو ارغفة الخبز الجافة، نحو المذياع الموشوش، والنساء الهاذرات والشيوخ الحيارى. نحو الاعمدة الهائلة المدفونة في الارض. لكن قبل كل شئ الى فتحة التهوية. ستتفجر الحواشي ثم يمر الموت بعدها بكل ابهة وجلجلة.

كان ارتجاجا وكان اختضاضا اصاب الارض. كان ظلاما وافدا اطبق على حين غرة بعد الارتجاج مباشرة. كان شيئا اكبر من انفجار. بلبل الحواس اجمع فما تراه العين لاتسمعه الاذن، وما تسمعه الاذن لايستطيع العقل ان يفسره. ماحدث اكبر من انفجار بالتأكيد، لانني ببساطة، لم اسمع شيئا، فكيف يسمع المرء انفجار صاروخ يرتطم بمكان على هذه الضخامة؟ ثم قبل ان نفيق من هول الضربة الاولى، ومن دون ان نجد لها اسما او وصفا، اشتعلت اعيننا بالنار، وعمت الفوضى الشاملة. حتى الهواء الذي نتنفس وجدناه نارا. البطانيات، الصراخ، الفقاعات الخارجة من الافواه، حضائن الاطفال، المصابيح المطفاة، الاسلاك، الهواء، البشر، لم تعد سوى وقود في فرن عملاق يسمونه الملجأ. نار تتأجج لايستطيع احد القفز خارجها. من نحن؟ سمك يشوى على ضفاف دجلة؟ جمبري فوق شواية تدار بالطاقة النووية، في مطعم من مطاعم شيكاغو؟ افاع لذيذة تقى بطنجرة رهيبة الحرارة في منتجع ياباني يؤمه السواح ورجال الصناعة والمصابون بالارتخاء الجنسي؟ شريحة بقر عملاقة من شرائح الارجنتين المشهورة بحبها للنار والملح تقدم مع بيرة قصب السكر؟ جائز كل ذلك. وجائز ايضا ان الامر لايعدو ان يكون حلما من احلامي التي امضتني بكابوسيتها وتكرارها وغرابتها. ربما لايعدو كل هذا ان يكون سوى كابوس جماعي نفز منه بعد لحظات لنجد ارواحنا خلف المتاريس او وراء قضبان لزنزانات جماعية لم يعد يدرك قاطنوها مرور الزمن. الزمن لم يعد بذي بال. الحرب اصبحت طيفا. الهلام المصنوع من لهب وغليان وابخرة وروائح كيمياوية هو الوجود الحقيقي لارواحنا. وجود لا اول له ولا آخر. اما احتراق الجلود، وانقصاف الاطراف، وسيلانات السوائل الجسدية وتوثبات الافكار الهاربة من الاقحاف الغالية بقدر الضغط هذا، فحالات كنا نعيشها رغم انها كانت دون مسميات. الان فقط البستها الاسماء. الان بعد ان فارقت

منذ زمن طويل غيهب ذلك المكان المروع بلحظاته الكئيبة. دخلت في نفق غريب منذ اللحظات الاولى للاهتزاز. نفق كان مظلما، ضيقا، غير ان الشعلة العاصفة البالغة القوة والضياء، رفعتني عاليا فعاليا. جعلتني ادرك مكاني وادرك النفق الجبلي، مادته شبيهة بارضنا، شبيه لولا اختلاف التفاصيل والطعوم والمشاهد.

طعوم والوان ومشاهد وانفعالات. استطيع ان اجتلبها بيسر وسهولة، انا الذي يمتلك الماضي والحاضر، ويسكب ابصاره النافذة نحو مستقبل سوف يأتي. استل من جراب هائل حكايات الزمن المنقضي، زمن الارض البعيدة والقريبة في الوقت نفسه. ابسط التفاصيل اراها. الالتماعات البرقية لازالت تتوهج في داخلي. خرير المياه، ملامح ابي، عصف الريح، والليلة الداجية التي جعلتنا نهجر القرية نحو المدينة، لالاقي، بعد عشرات السنين، هذا الشواء الذي كنت واحدا من مادته. رأيتني اقع على ابي مندفعا عكس مجرى النهر. كان يشق طريقه بين العاقول والشوك والطين. النهر يفيض بأرومة اشجار وعروق وعلب فارغة وزبد. النهر في قمة جنونه. الماء يلطم السد، والامواج تبعثر السنتها وراءه. لم يبق بين الماء والحافة سوى اشبار. كان ابي يقول لنفسه انها ليلة مشؤومة. لم يشهد مثلها منذ رجوعه من الكويت. نسي طغيان النهر، حين ظن الصحراء التي رآها هناك هي نفسها في كل مكان. وقف متكئا على عصاه. احس برهبة خانقة، الف اجواء مثل هذه فيما مضى، لكن لها طعم مختلف هذه الليلة. هل هو وقع المطر على الزرع؟ السكون المنتهك بزحمة الانواء؟ الومضات الطارئة والاصوات السرية وهسهسة

الصراصير؟ ومن بعيد، من مكان ما في الضفاف، كان مهدي الدلوجي صاحب القارب يعزف على مزمار شجى روحه واحزانه. الاشواق التي تستعر في البرق والرعد والمطر وعنفوان النهر والوحدة. كان يعزف للرمال البليلة، للعظاية المختبئة تحت جذل حلفاء، لامواج النهر وخزائنه. يجئ الصوت واضحا. لابد انه يتكئ الان على وسادته الريش داخل كوخه. ما الذي يحزنك يادلوجي في هذه الساعة؟ الدلوجي ليس الوحيد المحزون في هذه القرية. هو ايضا. حماقات عمي تجلب له سمعة سيئة. امي لاتبادله الود مثلما يفعل. تراوده الشكوك في نظراتها وافعالها. لكن لمن يبث همه ويبوح احزانه؟ لا احد يؤتمن على سر في هذه الحياة. ود لو يستطيع تصريف دواخله بمزمار قصب كما يفعل الدلوجي.

صوت المزمار ينتهي الى السكوت. موجة تعلو وموجة تتكسر. واضواء بعيدة في الظلام، اضواء قرى وساهرين على الضفاف وسراق اغنام. خطى ابي تتلاحق. الهواجس تتوارى في ذهنه امام وقع الليل. فجأة شدت انتباهه حركة قادمة من بعيد، كانت تسير مع الماء، تقترب منه ببطء. ومض البرق وامكن له تمييز انسان مثقل بمعطف عسكري طويل فصاح قائلا:

ـ من هناك؟

وهج حاد يجئ بغتة، يضئ كتلة السواد. ابصر ابي الوجه واضحا. هتف به مرة اخرى متسائلا:

ـ من؟ حزم؟

ـ بعينه. كيف حال السد؟

ـ السماء لاتريد ان تكف عن المطر، والنهر يرتفع منسوبه باستمرار.

ـ هل لاحظت تسربا ما في طريقك؟

ـ لحد هذا المكان لم الاحظ.

- في طرف غابة النخيل مناطق واطئة في السد، حاول ردمها مادمت تحمل مسحاتك.

- انا ذاهب الى هناك، سأفعل.

من مكان ما بعيد، يصعب تحديده نتيجة الظلام، راحت ضجة من الاصوات تتعالى. كلمات، ونداءات وعويل. الريح تجلبها لاذن ابي مرة وتحملها بعيدا مرة اخرى. هجسه والدلائل تشيران الى ان لهما علاقة بالسد والقرية والحقول المقبلة على النضج. كان السد يسور حقول القرية كلها، يدفع النهر بعيدا عن القمح والشعير والسدة الترابية القريبة من القرية. كانت القرى الاخرى تسخر من هذا الاصرار، الاصرار على تسوير الحقول بسد ترابي، والمحافظة عليه رغم هذا الفيضان العارم. المهم حسب رأيهم المحافظة على البيوت وارواح البشر. موسم واحد لايعني كثيرا. كان ابي من اشد المشجعين على اقامة السد، فالمياه اذا اقتربت من القرية تتهدم بيوتها من النزيز وتموت البساتين بسبب الملوحة. لا اريد ان اضيع ما وفرته في غربتي في الكويت على بناء جديد. انها تحويشة العمر وعصارة المشقة، دأب ابي على القول. الخوف يتسرب في داخله. جعل يتوغل في غابة النخيل، الهوة العميقة المصنوعة من سعف وجذوع واعشاش. في مكان ما، تحت سقف الغيوم الداكن، كانت ثمة مياه تندفع الى السنابل. المياه هوجاء في تدفقها، لايقف في وجهها شئ. شق السد يتسعُ، الامواج تتلاطم. اجساد معروقة يخدرها النوم كانت تحاول ردم الثغرة بحزم العاقول الجاف والطين واكداس القمح. دون فائدة.

الصيحات تتعالى مذعورة مرتجفة تطلب من السماء ان توقف مطرها، ومن النهر ان يخفض عنفوانه. حلت الكارثة وها هي الدينونة فوق افق القرية. الماء سيغطي ذؤابات السنابل، يغمرها بطينه وغرينه، ستلتوي اعناقها، تبقى مدفونة في الطين الى موسم الجفاف. اي موسم هذا؟ موسم من طين. سيأتي على البيوت ايضا. فكر ابي لو انه يملك قاربا مثل

الدلوجي لاصبح صياد سمك، فالحقول قريبا ستمتلئ بالقطان والشبوط والبز. لايحتاج الا لشبكة وزورق. خواطر تتقافز في ذهن ابي حينما كان ينطنط في المياه محاولا سد تلك الثغرة. اطبق اليأس على الجميع واحسوا ان النهر اقوى منهم، اقوى من احلامهم وعزائمهم. هكذا عهدوه دائما ما ان يستولي عليه الجنون. لن تعود القرية الى سابق عهدها.

ـ هل نحن مجانين؟ الا ترون المياه تتحدر الى الحقول كانحدارها من جبل؟

ـ لافائدة، لقد غلبنا النهر.

ـ قل لن يصيبكم الا ماكتبه الله لكم.

ـ والله عرفت ماسوف يحل بالقرية منذ ان رايت سيارة ذلك الكويتي. طير شؤم حل على القرية.

ـ انا لله وانا اليه راجعون.

عاد الناس الى القرية. اخذ النهر موسما كاملا الى جوفه. خيط اليأس يلضم الارجل والمشاعر، في رحلة بطيئة واهنة. عينا ابي كانتا ترقبان الليل بفتور. راحت ذكريات الكويت تتثال عليه، برمالها وخليجها ومحارها وبشرها. الكويت ليست فيها انهار. الكويت فيها آبار نفط فقط. ومينأؤها العميق تشبح في الذاكرة، امراسا ورافعات ومياه زرقاء تتماوج عليها بقع الزيت واشنات البحر. انها لاتفيض على الناس الا الخير والبركة. هل عليه ان يقضي حياته جوالا بين المدن؟ اي المدن تأويه هو ابن القرية المنكوبة بالفيضان والفقر والتعب؟ القى بصره الى يمينه، ذيل الماء وحش يقضم السنابل، يساويها في الارض، يدفنها بين الغرين. ان حكمة الله لاتفهم. لكن لايهم، الزمن يصلح كل شئ. ستجف الارض يوما وستظهر تربتها السوداء جاهزة للبذور.

اخرج ابي سيجارة من جيبه واشعلها. شفطها بعمق ولذة. انه في حاجة ماسة لها، سينفس عما يجيش به الصدر والروح. تحت شجرة

النبق الوارفة الاغصان، التي تشكل فوق السدة تاجا هائلا، غرس ابي مسحاته وجلس ينتظر. الجسد منهك والتجربة قاسية، فقد اوشك على نسيان حياة الفلاح وما فيها من تعب. نسي ذلك منذ ان جرفته الحفارات والمكائن وشركات المدن.

ثمة همهمات تسري في الظلام. تأتيه مختلطة متقطعة:همهمات رجال ونساء مذعورات. اصوات ديكة ونباح كلاب. في السماء نجوم تتلالا، من وراء فرجات الغيوم، كانت تنبئ بقدوم فجر وشيك. المياه تجرف معها الصراصر والسحالي والضفادع، متوغلة نحو الثعالب في جحورها والفئران في مخابئها. تتسارع الخطى على السدة الترابية لتتلافى البوابات التي تخترقها السواقي. لتمنع تدفق الماء نحو القرية. سباق محموم بين البشر والفيضان. لا شئ يبقى سوى وجهه، كان ابي يردد طوال تلك الليلة. ليلة غلبت فيها المياه بني البشر وراحت تتوغل عبر البوابات نحو البيوت والمنخفضات والبساتين. الطرق العالية ظلت سالكة، ولم يبق امامنا الا حمل ماغلى ثمنه وخف ثقله. ليس امامنا الا سويعات يغمر الفيضان بعدها كل شئ. قدنا دوابنا واتجهنا الى الصحراء. سنجاور قبور اجدادنا ونتتبع الجمال في مضارب البدو. نؤم الحمى والعرفج، ونسامر الذئاب والجن. كنا نرى لصفات المياه تتوثب خلفنا وتتكاثر. تحتل اماكن لاتخطر على بال. حتى المستنقع القريب من المدرسة اصبح بحرا من المياه الخابطة.

قبل الظهيرة، واثناء مرورنا قرب المدرسة متجهين الى الصحراء القريبة، شاهدت جدران المدرسة تتهاوى مكونة تلة من الطين. حطت عليها غربان ويمام وعصافير كانت تلتقط ما يلتجئ من الحشرات الى الذروة تفاديا للماء. بدت الشبابيك الخشب والابواب والزيران التي كنا نشرب منها الماء مستلقية براحة وسط المياه. شعرت بالفرح. فلا دروس بعد اليوم، لا رياضة ولا وطنية ولا حساب ولا عربي ولا انشاء ولا

نشيد. تعجبت من تسارع الاحداث وتغير الحياة بهذا الشكل. رحت احلم بالمغامرات والالعاب القادمة التي سنبتكرها في الصحراء ووسط الجزرعند تخوم القرية.

اقيمت البيوت على عجل. فوق التلال الرملية والمنحدرات وحافات الاودية. جلبت الجذوع والاغصان والسعف وبيوت الشعر والخيام من اماكن لايعرفها سوى الرجال. كانوا ينحدرون سابحين او مخوضين نحو القرية لالتقاط كل مايكون مفيدا لنا.

بيوت القرية، التي رأتها العيون عشرات السنين كانت تتهاوى بسرعة برقية. دكان زابط المضحي طفت علبه واكياسه وتبغه في بقعة راكدة تحيط بالجدران المنفلشة. غامر زابط بتحميل قسم من بضاعته على حمار سائب وبهذا انقذ قليلا من رأسماله، بينما حملت المياه قسما آخر معها نحو الرمال. علب السجائر وصناديق الشاي وقناني الكوكاكولا وعلب الطرشي وصحون الفافون. كنا نلتقطها بفضول لنجد فيها ضفادع ميتة و طينا مدودا وافاعي صغيرة والكثير من الاشنات. بستان امونة بدا من مواقعنا الجديدة اكداس خضرة تسبح في مياه راكدة، لم تبن منها سوى التيجان. تحسرنا نحن الاطفال على التين والتوت والتمور والبرتقال. ستكون لاحقا طعاما سائغا للطيور، للطيور وحدها. اخبرنا ابي ذات ليلة، وكنا نجلس حول فانوس محاط بالفراش والبعوض، اننا سنغادر الى المدينة. الشوارع والمدارس والكهرباء، والمياه النظيفة التي لاتتقلب الى وحش كل شتاء. يستأجر بيتا يلم فيه شمل العائلة مادامت النقود متوفرة لديه. ومن يدري، ربما سيعود بنا ما ان تصبح الطرق سالكة.

وهكذا كان. انتقلنا، بعد اسبوع من ليلة الفراش تلك، الى المدينا في باص خشبي، وضعنا فيه كل مانملك. و لبثنا فيها حتى هذه اللحظة لحظة الطيران والتحليق اللانهائي فوق كرتنا الارضية.

طغـاة يتناسلون مـثل الفطر. في ابراجـهم غـامـضـون. أيديهم ملوثة بالدم. ضـحـايا يتناسلون اباً عن جد. يسيرون الى قمة البرج راسفين بالأغلال والسلاسل. عليهم شرطة شداد غـلاظ، يمسكون سيـاطهم بلذة، لذة السلطة والرهبـة والتـفـرد. كـانوا يشكلون حولهم سداً، لا يحيدون يميناً ولا شمالاً. الى اليـمين هاوية فـاغـرة والى الشـمـال سيـاط جائعة. وعيناي لا تفارقان المعارج وطاقاتها وأعمدتها. تترصدان الابواب التي يتسلل منها رهبـان وشـامـانيـون ومتنبئـون ومنجـمـون، يرصـدون من ذلك العلو الشـاهق احـوال النجـوم وحـركـة الابراج ودلالات الفلك وحـركـات المـجـرات وتسـاقط الشـهب. لا ينامـون، يتقـرون المصـائر فيـما حـولهم من امـصـار: افق سـومـر وبابل وآشـور والأنبـار وشهربان والاسكندرية وقلعة كركوك ومفازات جلولاء وتلال حـمـرين. خاصة لاهيـة وحشد يغذ الخطى نحو المذبح وبلطة تجز الأعناق.

دار المدى للثقافة والنشر